توجيهات
ومواقف علمية

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

رقم الإيداع القانونى: ٢٠٠٥/١٠٩٤٧
الترقيم الدولى: I.S.B.N.977-253-369-3

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية
تليفون: ٣٩٠١٩١٤ - فاكس: ٥٩٠١٦٩٥

توجيهات ومواقف علمية

إعـداد
الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين
جامعة أم القرى

دار الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبد الله ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فهذه توجيهات ومواقف علمية، وقد كان هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من مواقف السلف العلمية، تمَّ رصدها وترتيبها والتعليق عليها، وقد رأيت أن أصدرها بنبذة يسيرة من التوجيهات النبوية في فضل العلم والعلماء.

ومما جاء فى ذلك عن رسول الله ﷺ قوله «**من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**» أخرجه أبو داود والترمذي والدارمي من رواية أبي الدرداء رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني[1].

فهذا حديث عظيم في بيان فضل العلم الديني وفضل العلماء وطلاب العلم، وهذا الفضل يبدأ من أول مرحلة في طلب العلم، حيث يقول رسول الله ﷺ «**من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا من طرق الجنة**» وذلك لأن طالب العلم قد بدأ بسلوك الطريق الذي يحمل به المسئولية، فالعلماء مسئولون عن حمل العلم الدينى وتبليغه للناس إفتاءً وتعليمًا وتذكيرًا وتطبيقًا، وذلك فيما يشمل الأفراد والجماعات والدول، فلهذا استحق العالم هذا الفضل منذ بدئه في طلب العلم إذا

(١) سنن أبي داود، رقم ٣٦٤١ (٤/ ٥٧)، سنن الترمذي، رقم ٢٦٨٢ (٥/ ٤٨)، سنن الدارمي، رقم ٣٤٢ (١/ ١١٠)، صحيح الجامع الصغير، رقم ٦١٧٣.

صدق النيـة وعمل فيـما علم، فهـو فضل عظيم وشـرف له كبيـر متعلمًـا وعالمًا ومعلمًا.

ولقد بين رسول الله ﷺ في هذا الحديث حـفاوة الملائكة عليهم السلام بطالب العلم، حيث تضع أجنحتها تعبيرًا عن رضاها بهذا السلوك الحميد.

ولقد بلغ من رفـعة قـدر علماء الإسلام أنهم يسـتغفـر لهم ساكنو السـماوات والأرض، ويكفيهم شـرفًا وعملاً صالحًـا أن يستغفر لهم الملائـكة عليهم السلام، وقد خص النبي ﷺ الحيتان في جوف الماء من بين أهل الأرض، ولعل ذلك لخفاء إدراك دخول ذلك في العموم لعـمق البحار وانفصال ما فيـها عن اليابسة، أو لعل ذلك لكثرة ساكنيها من الحيتان، حيث تكوِّن البحار نسبة أكبر من اليابسة.

وإذا كان المسلم العابد قـد بلغ منزلة عالية في الرفعة والفـضل، لكونه قد كبح جماح نفـسه وزمَّها عن شهـواتها وشغل كثيـرًا من وقته بالعبـادة فإن العالم الذي استنار قلبه بعلمه فاستقـام به في حياته، وأفاد به إخوانه المسلمين يزيد فضله على فضل العابد بقدر زيادة نور القمر ليلة البدر على نور سائر الكواكب.

وهذا تشبيه بشيء معروف عند الناس مـألوف لديهم، وهو بيان واضح لتفضيل العالم على العابد، وفي كل منهـما خير، والمقصود بالعـالم الذي يؤدي الواجبات والمستحبات المندوب إليها، مع أداء قدر من النوافل المطلقة كصلاة الليل، ويجتنب المحرمات والمكروهات، ثم يشـغل ما بقي من وقته بالتعليم والإفتـاء، بينما يشغل العابد جُلَّ وقته بعد الواجبات بفعل النوافل المطلقة كالصلاة والصيام والذكر.

وفي هذا الحديث بيـان فضل للعلمـاء لا يدانيه فضل، وهو أنهم ورثة الأنبـياء عليهم الصلاة والسلام، فما أعظمه من ميراث! وما أعظم الوارثين! إن وراثة الدنيا بأسرها لا تساوي مسألة علميـة يرثها العالم ثم يورثها من بعده، وإنه لا يقدِّر هذا الشـرف المعنوي إلا العظمـاء الذين تضـاءلت نظراتهم المادية، وتسـامت نظراتهم المعنوية.

ويسمو العالم الديني في نظر النبي ﷺ حتى يشبِّهه بنفسه الشريفة حيث يقول: «**فـضل العـالم علـى العـابد كـفـضلي على أدناكم، إن الله عـز وجل ومـلائكتـه وأهل**

السموات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير» أخرجه أبو عيسى الترمذي رحمه الله من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله[1].

وفي هذا حث كبير على تعلم العلم الديني وتعليمه على المنهج الذي سار عليه رسول الله ﷺ، فإن المشبَّه يلحق المشبه به، فكل ما كان من صفات النبي ﷺ في تعلم العلم وتعليمه يجب أن يتصف بها العالم.

وجاء ذكر ما سبق من دعاء الملائكة وأهل السموات والأرض لمعلم الناس الخير، وخص النبي ﷺ بالذكر النملة في جحرها والحيتان، وإن أبرز ما يجمع بين هاتين المجموعتين من خلق الله تعالى اختفاؤهما عن الأنظار فالنمل في جحورها تحت الأرض والحيتان تحت الماء.

هذا وإن من أسباب تفضيل العالم انتشار العلم على يديه، كما جاء في قول رسول الله ﷺ: «**نضَّر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها وحفظها، ثم أداها إلى من لم يسمعها، فربَّ حامل فقه غيرُ فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**» رواه الحفاظ أحمد وأبو داود وابن ماجة والحاكم رحمهم الله تعالى من حديث ابن مسعود وزيد ابن ثابت رضي الله عنهما، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله[2].

فهذا دعاء كريم من رسول الله ﷺ لطلاب العلم الذين يشتغلون برواية الحديث النبوي، فيحملونه عبر الأجيال إلى من يسمعه منهم، وليس كل رواة الحديث فقهاء، لكنهم يحفظون الحديث ويؤدونه إلى من بعدهم، ومن مجموعهم يخرج فقهاء في كل عصر يستنبطون الأحكام ويطبقونها على واقع مجتمعهم.

ويبين رسول الله ﷺ فضل العلم بقوله: «**فضل العلم أحب إلي من فضل العبادة، وخير دينكم الورع**» أخرجه الحفاظ البزار والطبراني والحاكم رحمهم الله من حديث حذيفة وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله تعالى[3].

---

(١) صحيح الجامع الصغير رقم ٤٠٨٩.
(٢) صحيح الجامع الصغير رقم ٦٦٤٢.
(٣) صحيح الجامع الصغير رقم ٤٠٩٠.

وهذا يعني أن ما يبذله المسلم المتعلم من الوقت للاستزادة من العلم أفضل مما يبذله العابد للاستزادة من العبادة، والمقصود نوافل العبادة كما سبق.

ومما جاء في فضل العلم قول رسول الله ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**».

أخرجه الإمام أحمد وابن ماجة رحمهما الله من حديث أبي هريرة وعبد الله ابن عباس رضي الله عنهم، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله[1].

ففي هذا الحديث ربَط رسول الله ﷺ بين الخير والفقه في الدين، وهذا يعني أن كل مسلم لابد له إذا أراد الخير لنفسه أن يكون له نسبة من الفقه في الدين، والتفقه في الدين على نوعين: النوع الأول التفرغ لدراسة الدين حتى يصل فيه الدارس إلى درجة العلماء، وهذا لا يكون لعموم أبناء الأمة وإنما يتوافر لطائفة منهم، والثاني دراسة ما يكفي المسلم لأن يعبد الله تعالى على بصيرة وأن يعامل الناس على منهج الإسلام، ومن لم يصلح له هذا القدر الضروري من العلم الديني فإنه يكون قد فقد الخيرية، لأنه إذا عبد الله تعالى عن جهل أو تعامل مع الناس على غير منهج الإسلام يكون قد ارتكب بعض المآثم وابتعد عن طريق الأخيار، وليس المقصود النوع الأول فقط لأن «مَن» الشرطية من أدوات العموم، فلا يختص الحديث بالعلماء، وإنما يدخلون فيه دخولاً أوليًا، وعلى قدر التَّفقُّه في الدين يكون قدر الخيرية والفضل.

ومما جاء في معنى هذا الحديث ما أخرجه الشيخان رحمهما الله من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال «قيل: يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال: **أتقاهم**، فقالوا ليس عن هذا نسألك، قال: **فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله**، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: **فعن معادن العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»[2].

(١) صحيح الجامع الصغير رقم ٦٤٨٧.

(٢) صحيح البخاري، رقم ٢٣٥٣، كتاب الأنبياء، باب ٨ (٦/ ٣٨٧) صحيح مسلم، رقم ٢٣٧٨، كتاب الفضائل، باب ٤٤ (ص١٨٤٦).

فهذا يبين أهـمية الفقه في الإسـلام، حيث جعل النبي ﷺ ذلك شـرطًا لتمام الخيـرية، وفي الحديث إشـارة إلى أن أسبـاب الكمال في الإنسـان منها مـا يكون متأصلاً في الإنسان بحكم الوراثة والتربية، فـيكون ميالاً إلى فعل الخير والإحسان إلى الناس وكف الأذى عنهم، فإذا اجتمع مع ذلك الإسـلام والفقه في الدين فإن هذه الميول الخيرية تتحول إلى وجهـها الصحيح، فبدلا من الكرم الحاتمي الذي يراد به الذكر الدنيوي، كما قال حاتم الطائي:

أمـــا ويَّ إن المال غـــــادٍ ورائح ويبقى من المال الأحـاديث والذكر

فإن الكـرم يتحول إلى إرادة الأجـر الأخروي، وبدلا من أن يبـذل الكريم هذا الكرم إلى أصحـاب اللسان والشـهرة ليحـصل منهم على الذكر الدنيـوي فإنه في الإسلام يبـذله لمستحقـيه وإن كانوا فـقراء مغمـورين، لأنه لا يطلب ثناءهم وإنما يطلب الأجـر من عند الله تعالى، وبدلا من الافـتخـار بالكرم ليحـصل على أثره الذكر يكون إخفاء الصدقة في الإسلام ليكون الأجر في الآخرة أكبر.

والشجـاعة بدلا من أن تكون للذكر والفـخر بين الناس فإنهـا في الإسلام مع الفقه في الدين تكون لابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة.

وهذه الأخلاق الكريمة بـدلاً من أن تكون قاصرة على البـروز عند رؤية الناس واطلاعهم تكون في الإسلام مع الفقه سارية المفعول في كل الأحوال، لأن المسلم الذي يتـحلى بهـا يطلب اطلاع الله جل وعـلا، وهو مطلع على عـبـاده في كل أحوالهم، ولذلك فإن أعمال الخير في الإسـلام مع الفقه في الدين تكون مضاعفة لأنها غير محدودة بمكان معين أو زمان معين.

وفي تصـوير شغف طلاب العـلم بالعلم يقول رسـول الله ﷺ: «**منهـومان لا يشـبعـان: منهوم في علم لا يشـبع، ومنهـوم في دنيا لا يشـبع**». أخرجه أبـو عبد الله الحاكم رحمـه الله من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وصحـحه على شرط الشيخين وأقره الحافظ الذهبي رحمه الله[1].

(١) المستدرك ١/ ٩٢.

ولكنْ فرقٌ كبير بين الطالبين، فـطالب العلم يغذي بطلب العلم عقله وتفكيره، وطالب المال يغذي بماله عاطفته وهواه، وفرقٌ كبير بين من يحدد أهدافه من خلال عقله وفكره ومن يحددها من خلال عاطفته.

ومما جاء في بيان فضل تعليم العلم قول رسول الله ﷺ: «**من علَّم علما فله أجر من عمل به، لا ينقص من أجـر العامل**». أخرجه الحافظ ابن ماجـة من حديث معاذ ابن أنس رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله[1].

فهذا فضل كبير لمعلم العلم الديني إذا خلصت نيته ولم يرد بذلك كسبًا دنيويًا، فـهو يحـصل أولاً على أجر التـعليم، ثم يحـصل على أجر العـمل بما علم، ثم يحصل على مـثل أجر من عـمل بذلك العلم الذي علَّمه، وكلمـا زاد عدد الذين تعلموا منه زاد أجره، فكـأنه بذلك قد عاش في هذه الحياة أعـمارًا مديدة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

أما العالم الذي لا ينتفع الناس بعلمه فإنه يكون محرومًا من هذه النتائج الطيبة ويكون آثمًا بكتمـان العلم، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «**إن علمًا لا يُنـتفع به ككنز لا يُنفق منه في سـبيل الله**» أخرجـه الحافظ ابن عـساكر من حـديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه الشيخ الألباني رحمه الله[2].

وفي هذا يشـبِّه النبي ﷺ العلم الـذي لا يُنتفع به بكنز المال المخـزون الذي لا يُنفَق منه في سـبيل الله تعالى، وكـلاهما صاحـبه مذمـوم، فالأول أنعم الله جل وعلا عليه بنعمة العلم فلم يَرْعَها وكتم العلم، والثاني أنعم الله سبحانه عليه بنعمة المال فلم يشكر وأمسك المال ولم ينفق منه.

***

(١) صحيح الجامع الصغير رقم ٦٢٧٢.
(٢) صحيح الجامع الصغير رقم ٢١٠٨.

توجيهات ومواقف
في
إخلاص النية

قبل أن أذكر المواقف الإسلامية في هذا الموضوع أحب أن أقدم لذلك بذكر حديث عظيم كان له أثر بالغ في إخلاص كثير من العلماء على مر العصور وقد أخرج هذا الحديث الإمام أبو عيسى الترمذى وحسنه من حديث الوليد أبى عثمان المدائني عن عقبة بن مسلم أن شُفَيّا الأصبحيَّ حدثه أنه دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا أبو هريرة، فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا قلت له أنشدك بحقٍّ وبحقٍّ لما حدَّثتني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ عقلتهُ وعملتهُ، فقال أبو هريرة أفعلُ، لأُحدِّثنك حديثًا حدَّثنيه رسولُ الله ﷺ عقلتُهُ وعلمتُهُ، ثمَّ نَشَغَ[1] أبو هريرة نشغةً، فمكث قليلاً ثم أفاق، فقال: لأحدثنك حديثًا حدَّثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيرهُ، ثم نشغ أبو هريرة نشغةً أخرى، ثم أفاق فمسح وجهه فقال: لأُحدثنك حديثًا حدَّثنيه رسول الله ﷺ وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيرهُ، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى ثم أفاق ومسح وجهه فقال: أفعلُ لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ وأنا معه في هذا البيت ما معه أحد غيري وغيره، ثم نشغَ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مالَ خَارّا على وجهه فأسندته علي طويلاً.

قال: ثم أفاق فقال: حدَّثني رسولُ الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزلُ إلى العباد ليقضي بينهم وكلُّ أمة جاثيةٌ، فأولُ من يدعو به رجلٌ جمع القرآن، ورجلٌ قُتِل في سبيل الله، ورجلٌ كثير المال، فيقولُ الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا ربِّ. قال: فماذا عملت فيما عُلِّمت؟ قال: كنت أقوم به آناءَ الليل وآناءَ النهار. فيقول الله له كذبت. وتقولُ له الملائكة كذبت. ويقول الله: بل أردتَ أن يُقال إن فلانًا قارئ فقد قيل ذلك. ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له ألم أوسِّع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا ربِّ. قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدقُ، فيقول الله له كذبت، وتقول له الملائكة كذبت. ويقول الله: بل أردتَ

(١) نشغ نشغة: أى شهق حتى كاد يغمى عليه، ويحصل ذلك للإنسان إذا اشتد أسفه على فائت.

أن يقال فلانٌ جوادٌ فقد قيل ذلك. ويُؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقول الله له: فبمـاذا قتلتَ؟ فيقول: أمِـرتُ بالجهاد في سبيلـك فقاتلتُ حتى قتلت فـيقول الله تعالى له كـذبت، وتقول له الملائكة كذبت. ويقولُ الله: بل أردت أن يُـقال فلانٌ جريء فقـد قيل ذاك، ثم ضرب رسولُ الله ﷺ على ركبـتي فقال: يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسْعَرُ بهم النار يوم القيامة.

وقال الوليد أبو عثـمان: فأخبرني عقبةُ بن مـسلم أن شُفَيًّا هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا، قال أبو عثـمان، وحدثني العَلاء بن أبي حكيم أنه كان سيَّافًا لمعاوية فدخل عليه رجل فأخبره بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية: قد فُعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معـاوية بكاءً شديدًا حتى ظننا أنه هالك. وقلنا قد جاءنا هذا الرجل بشـر، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجـهه وقال: صدق الله ورسوله ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [هود: ١٥، ١٦].

قال أبو عـيسى: هذا حـديث حسنٌ غـريب[(١)] ورواه الحاكم وصـححـه وأقره الذهبي[(٢)].

ففي هذا الحـديث تصوير بليغ لمصـائر هؤلاء الثلاثة الذين وقـعوا في الرياء ولم يخلصوا أعـمالهم لله تعالى، وإنما كانوا هم السـابقين إلى الاصطلاء بنار جهنم لأن أعمالهم تلك كانت مشتملة على الاستهانة بالله عز وجل، فكان ظاهرها أنها أعمال صالحة، ولكن حقيقتهـا أنها من كبائر الذنوب لأنها قد تحولت إلى شرك، وفي هذا تحذير شديد من الوقوع في الرياء الذي قد يقع الإنسان فيه وهو لا يشعر.

وفي التحذير مـن الرياء يقول رسول الله ﷺ: «**قال الله تبـارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه[(٣)].

(١) سنن الترمذي، رقم ٢٣٨٢، كتاب الزهد (٤/ ٥٩١ - ٥٩٣).
(٢) المستدرك ١/ ٤١٨ - ٤١٩.
(٣) صحيح مسلم، رقم ٢٩٨٥، كتاب الزهد (ص٢٢٨٩).

وفي بيان أنواع الرياء يقول الحافظ ابن رجب: واعلم أن العمل لغير الله أقسام: فتارة يكون رياءً محضا بحيث لا يراد به سوى مراءاة المخلوقين لغرض دنيوي كحال المنافقين في صلاتهم.

قال: وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن فى فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر فى الصدقة الواجبة أو الحج وغيرهما من الأعمال الظاهرة، أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط وأن صاحبه يستحق المقت والعقوبة.

وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه وحبوطه أيضًا.

وقد ذكر أحاديث في ذلك ثم قال: وأما إن كان أصل العمل لله ثم طرأت عليه نية الرياء فإن كان خاطرًا ودفعه فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه فهل يحبط به عمله أم لا يضره ذلك ويجازَى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازَى بنيته الأولى، وهو مروي عن الحسن البصري وغيره، وذكر ابن جرير أن هذا الاختلاف إنما هو في عمل يرتبط آخره بأوله كالصلاة والصيام والحج، فأما ما لا ارتباط فيه كالقراءة والذكر وإنفاق المال ونشر العلم فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة عليه ويحتاج إلى تجديد نية.

قال: فأما إذا عمل العمل خالصًا، ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين بذلك، ففرح بفضل الله ورحمته واستبشر بذلك لم يضره ذلك[1].

وفي هذا الحديث بيان لما كان يتصف به حافظ الأمة أبو هريرة رضي الله عنه من خشية الله تعالى، حيث أصيب بالإغماء أربع مرات وهو يشرع بالتحديث بهذا الحديث، وإنما اعتراه الخوف وعلَتْه الخشية لأنه من العلماء الذين ينشرون علمهم، والحديث قد ذُكر فيه القراء المراؤون، وهذا يشمل قراء القرآن الذين يراؤون الناس بتلاوتهم أو بصلاتهم، كما يشمل العلماء الذين يراؤون الناس بنشر علمهم،

(١) جامع العلم والحكم ١/ ٧٩ - ٨٣.

فخشى أبو هريرة أن يكون صدر منه شيء يسير من الرياء، مع ما اشتهر به من الورع والتقوى.

وكذلك يظهر في هذا الحديث اتصاف أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه بالخشية، حيث بكى بكاءً شديداً وأغمي عليه عند سماعه هذا الحديث، وقد أجاد حينما استشهد بقول الله تعالى ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [هود: ١٥-١٦]. فالدنيا لا تجتمع مع الآخرة من حيث الغاية، فمن كانت الدنيا هى غايته في العمل خسر سعادة الآخرة وباء بشقائها، ومن كانت الآخرة هي غايتَه فاز بسعادتها ونجا من شقائها مع حصوله في الدنيا على ما كتب له من خيرها.

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا..**﴾: وقد سئل شيخنا المصنف رحمه الله عن هذه الآية فأجاب بما حاصله: ذكر عن السلف فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم ولا يعرفون معناه.

فمن ذلك: العمل الصالح الذين يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله: من صدقة وصلاة، وصلة وإحسان إلى الناس، وترك ظلم، ونحو ذلك مما يفعله الإنسان أو يتركه خالصًا لله، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته، أو حفظ أهله وعياله، أو إدامة النعمة عليهم، ولا همة له في طلب الجنة والهرب من النار، فهذا يعطَى ثواب عمله في الدنيا وليس له في الآخرة من نصيب. وهذا النوع ذكره ابن عباس.

النوع الثاني: وهو أكبر من الأول وأخوف، وهو الذي ذكره مجاهد في الآية: أنها نزلت فيه: وهو أن يعمل أعمالا صالحة ونيته رياء الناس، لا طلب ثواب الآخرة.

النوع الثالث: أن يعمل أعمالا صالحة يقصد بها مالا، مثل أن يحج لمال يأخذه أو يهاجر لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل المغنم، فقد ذكر أيضًا

هذا النوع في تفسير هذه الآية، وكما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم أو رياستهم، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد، كما هو واقع كثيراً.

النوع الرابع: أن يعمل بطاعة الله مخلصًا في ذلك لله وحده لا شريك له، ولكنه على عمل يكفره كفراً يخرجه عن الإسلام، مثل اليهود والنصارى إذا عبدوا الله، أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام بالكلية، إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله في الدار الآخرة، لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام وتمنع قبول أعمالهم، فهذا النوع أيضًا قد ذكر في هذه الآية عن أنس بن مالك وغيره، وكان السلف يخافون منها، قال بعضهم: لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة واحدة لتمنيت الموت لأن الله تعالى يقول ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ [المائدة: ٢٧]

ثم قال: بقي أن يقال: إذا عمل الرجل الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج ابتغاء وجه الله، طالبًا ثواب الآخرة، ثم بعد ذلك عمل أعمالاً قاصدًا بها الدنيا، مثل أن يحج فرضه لله، ثم يحج بعده لأجل الدنيا كما هو واقع، فهو لما غلب عليه منهما. وقد قال بعضهم: القرآن كثيراً ما يذكر أهل الجنة الخلص وأهل النار الخلص، ويسكت عن صاحب الشائبتين، وهو هذا وأمثاله أ. هـ[1].

من مواقف أبي الدرداء رضي الله عنه[2].

من مظاهر الإخلاص في طلب العلم أن يكون العلم من أجل، ولقد كان أبو الدرداء رضي الله عنه يهتم بالتربية مع التعليم حيث كان يحث تلامذته على العمل بما علموا، كما جاء في قوله: لن تكون عالما حتى تكون متعلما، ولا تكون متعلما حتى تكون بما علمت عاملا، إن أخوف ما أخاف إذا وقفت للحساب أن يقال لي: ما عَمِلتَ فيما عَلِمْتَ؟

---

(١) فتح المجيد / ٣٧٩.

(٢) هو عويمر بن زيد الأنصارى، اشتهر بكنيته، وتوفي في آخر خلافة عثمان.

وقال: أيضًا في هذا المعنى: ويل للذي لا يعلم مرة، وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات[1].

من مواقف أبى جعفر القارئ رحمه الله:

وكان العلماء يهتمون بالعمل الصالح مع العلم النافع، ولا يَعدُّون العلم نافعًا إذا لم يصاحبه العمل الصالح، وفي ذلك يقول عبدالرحمن بن زيد بن أسلم رحمه الله: قال رجل لأبي جعفر -وكان في دينه فقيها وفي دنياه أبله-: هنيئًا لك ما آتاك الله من القرآن، قال: ذاك إذا أحللت حلاله وحرمت حرامه وعملت بما فيه[2].

وأبو جعفر هو يزيد بن القعقاع المدني القارئ أحد الأئمة العشرة في القراءات.

من مواقف سفيان الثوري وفضيل بن عياض رحمهما الله:

لقد كان علماء السلف يهتمون بإخلاص النية فى طلب العلم لله تعالى، ويحثون طلابهم على ذلك، ومما رُوي في ذلك أن سفيان الثوري وفضيل بن عياض رحمهما الله التقيا فتذاكرا فبكيا، فقال سفيان: إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا أعظم مجلس جلسناه بركة، فقال له فضيل: لكني أخاف أن يكون أعظم مجلس جلسناه شؤمًا، أليس نظرت إلى أحسن ما عندك فتزيَّنت به لي وتزينتُ لك، فعبدتني وعبدتك؟ فبكى سفيان حتى علا نحيبه، ثم قال: أحييتني أحياك الله[3].

وهكذا وجدنا هذين العالمين العابدين يلتقيان فيبكيان من ذكر الله تعالى، فيشعر سفيان الثوري بالفرح من تلك النتيجة الطيبة التي خرجا بها من ذلك المجلس، ولكن فضيل بن عياض يذكِّره أن ما تذاكرا به من العلم الذي أثار فيهما خشية الله تعالى يُخشَى بأن لا يكونا وصلا به إلى درجة التجرد التام من ملاحظة حظ النفس، خشية أن يكون خطر في بالهما تزيُّن كل واحد منهما للآخر بخير ما عنده من العلم، فيؤثر ذلك على إخلاص النية لله تعالى.

وإذا كان هذا السيدان الجليلان اللذان ملأت شهرتهما الأرض بالتقوى والعلم والورع والزهد قد خافا على أنفسهما من الرياء والسمعة فكيف بمن هو دونهما في هذه المحامد بمراحل؟!

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٤٧.

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٨٨.

(٣) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٦٧.

ولأهمية إخلاص النية نجد سفيان الثـوري رحمه الله يقول: ما نعلم شيئًا أفضل من طلب العلم بنية[1].

يعني أن يطلب المسلم العلم ابتـغاء وجه الله تعـالى وحده، وإنما جعل سفـيان ذلك أفضل من أداء نوافل العبـادة مثلا لأن الإخلاص في طلب العلم عـسير المنال عند كثير من طلاب العلم، فهو يحتـاج إلى مكابدة ومجاهدة للنفس حتى تستقيم على النية الخالصة وتتجرد من الرياء والسمعة.

ولقد بين سفيان الثوري رحمـه الله منزلة العالم الصادق في إصلاح الأمة حيث يقول: المال داء هذه الأمة والعالم طبيب هذه الأمة، فإذا جر العالم الداء إلى نفسه فمتى يبرئ الناس؟[2]

نعم، متى يبرئ الناس وهو مريض، كما قال الشاعر:

طبيب يداوي الناس وهو عليل

إن مجموعة أدواء الأمة أكثرها يترتب علـى عبادة المال، فعبيد المال لا يتورعون عن الكسب الحـرام بطرقـه المختلفـة، ولا يتـورعون عن إنـفاق المال في الوجـوه المحـرمة، إلى جـانب اتصافـهم بالحسـد والغل والكذب والنفـاق وغيـر ذلك من الأخلاق السيئة التي يجر إليها مـحاولة كسب أكبر قدر ممكن من المال، والانحراف في تصريفه.

والطبيب الذي يستـطيع بإذن الله تعالى تشخيص أمراض القلـوب ثم تطهيرها من تلك الأمراض هو عالم الدين الذي نوَّر الله بصيرته، وشغل قلبه بمحبته ومحبة رسوله ﷺ ومحبة دينه، وبالاهتمام الدائم بتشخيص أمراض الأمة والبحث في علاجها.

أما إذا كان العالم الديني قد رتع فيما يرتع فيه مرضى القلوب فمن لهؤلاء المرضى؟

أين من يشخص أمراضهم ويلتمس شفاءهم من تلك الأمراض؟

وهكذا شخَّص سـفيان الثـوري رحمه الله أدواء الأمة وبيَّـن سببهـا الأساسي، وعلى يد مَنْ يكون عـلاجهـا، ومتى يتـمكن هؤلاء الأطباء مـن شفاء الأمـة من أدوائها.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٤٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٤٣.

ولقد كان وراء هذا العالم الرباني وأمثاله غالبًا آباء مربون وأمهات مربيات، كما جاء عن وكيع بن الجراح رحمه الله قال: قالت أم سفيان لسفيان: اذهب فاطلب العلم حتى أعُولَك بمغزلي، فإذا كتبت عدة عشرة أحاديث فانظر هل تجد في نفسك زيادة فاتبعه، وإلا فلا تتعنّ[1].

نعم لقد كان وراء هذا العالم الكبير أم صالحة مربية كانت تعمل بيديها في طلب الرزق لتكفي ابنها مؤنة النفقة حتى يتفرغ للعلم.

لقد علَّمته الاستقامة على العمل الصالح قبل أن يتعلم العلم.

ولقد أخذ من أمه مقاصد العلم فوعاها، وأصبح رقيب نفسه، فهو يزنها كلما تعلم مجموعة من الأحاديث..

هل تقوَّى إيمانه؟ هل ازداد عمله الصالح؟

هل نما يقينه وذكره لله تعالى والدار الآخرة؟

وهكذا تفاعل هذا العالم في سنوات الطلب مع العلم الذي تلقاه، واقتبس خير ما وجده من تربية العلماء وسلوكهم حتى أصبح من كبار علماء الأمة المربين.

وكان أساس ذلك وبذرتَه الأولى تربيةُ أمه له ووصيتُها الغالية التي كانت منارًا لطريقه العلمي.

ومما روى عن الثورى في الإخلاص في طلب العلم وتقدير أصحاب النية الصادقة ما أخرجه القاضي الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي من حديث محمد ابن إسحاق بن عبد الله الكوفي قال: سمعت أبي يقول: جاء رجل إلى سفيان الثوري وهو في مجلسه بعد العصر وحوله أصحاب الحديث، فقال له: يا شيخ ما يمنعك أن تنشر ما عندك وتحدث به هؤلاء؟ فقال سفيان: لو علمتُ أن الذي يطلب هذا لله لكنت آتيه في منزله حتى أحدثه[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٦٩، وقوله «فلا تتعن» يعني فلا تتعب نفسك.

(٢) المحدث الفاضل بين الراوي والواعي / ١٨٤.

من مواقف سفيان بن عيينة رحمه الله:

من ذلك ما رواه محمد بن قدامة الحمصي قال: كنا نواظب على ابن عُيَيْنة فقال: تتركون الصلاة والطواف وتأتوني؟ فقال بعضنا: لعلنا نسمع منك بعض ما ينفعنا الله به، فقال: لوددت أني أرى من يطلبه لله فآتيه وأحدثه[1].

من مواقف هشام الدستوائي رحمه الله:

وبعضهم نفى عن نفسه الإخلاص تواضعًا لشدة حذرهم من اختلاط النية كما رُوي عن هشام بن سَنْبَر الدستوائي أنه قال: والله ما أستطيع أن أقول إني ذهبت يومًا قط أطلب الحديث أريد به وجه الله عز وجل.

ذكره الإمام الذهبي وقال: قلت: ولا أنا، فقد كان السلف يطلبون العلم لله فنبلوا وصاروا أئمة يُقتدى بهم، وطلبه قوم منهم أوَّلاً لا لله، وحصَّلوه ثم استقاموا وحاسبوا أنفسهم، فَجَرَّهم العلم إلى الإخلاص في أثناء الطريق، كما قال مجاهد وغيره: طلبنا هذا العلم ومالنا فيه كبير نية، ثم رزق الله النية بعد، وبعضهم يقول: طلبنا هذا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله، فهذا أيضًا حسن ثم نشروه بنية صالحة[2].

ولا شك أن اتهام هذين العالمين الجليلين أنفسهما بعدم التجرد والإخلاص في طلب العلم إنما هو من باب التواضع منهما، وهذا هو اللائق بمقامهما الرفيع.

من مواقف الإمام الشافعي رحمه الله:

ومن الأمثلة على الإخلاص والتجرد من حظ النفس مارواه عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل قال: سمعت أبي يقول: قال الشافعي: أنتم أعلم بالأخبار الصحاح منا، فإذا كان خبر صحيح فأعلمني حتى أذهب إليه، كوفيًا كان أو بصريًا أو شاميا[3].

وقول الإمام محمد بن إدريس الشافعي هذا، إلى جانب كونه من التواضع حيث إنه من شيوخ الإمام أحمد، فإنه دليل على قوة إيمان الشافعي ورغبته

(١) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي / ١٨٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ٧/ ١٥٢.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣٣، طبقات الحنابلة ١/ ٢٨٢.

الصادقة في معرفة الحق المتـمثل في الكتاب والسنة، وتجرده من هوى النفس، فهو على استعداد تام للرجوع عن رأيه إذا ثبت عنده حديث يخالفه، وهذا يعني أنه لا يتعمد مخالفة السنة اتباعًا لقواعد علمية قعَّدها أو فتاوى صدرت عنه.

وهكذا اطلعنا على نماذج طيـبة من إخـلاص العلمـاء في تعليم العلم وحثـهم طلاب العلم على إخلاص النية في طلبه، وقـد صاروا بذلك قدوة صالحة لطلاب العلم على مر العصور، فإن طالب العلم حينما ينشأ فيرى شيوخه لا ينافسون أهل الدنيا في دنياهم، ولا يطلبون في مقابل علمهم مالاً ولا جاها فإنه يقتدي بهم في هذه الأخلاق العالية.

أما إذا نشـأ طالب العلم فرأى من حـوله من العلماء ينافسـون الناس في طلب المال والجاه فإنه قد يعتقد مشـروعية ذلك، وأن طلب المال والجاه هدف مشترك بين علماء الدين وغـيرهم وإن اختلفت الوسائل المـوصلة إلى ذلك، فربما سلك طريق التـعليم الديـني للوصـول إلى ذلك الهـدف، وهذا هو الذي حـذر مـنه العلمـاء المخلصون أبلغ تحذير.

***

توجيهات ومواقف
في
الأهتمام بالعلم

لقد كانت للعلماء مواقف عالية في الاهتمام بطلب العلم وتعليمه وإرشاد الناس به وتدوينه.

وفي هذا الفصل أذكر بعض مواقف العلماء في هذا المجال.

من مواقف أبي هريرة رضي الله عنه:

كان أبو هريرة الدوسي رضي الله عنه من أبرز أصحاب رسول الله ﷺ في نشر السنة، ولقد انتشر العلم عنه وكثر تلامذته في المدينة وحملوا علمه إلى الآفاق.

وإلى جانب ما كان يقوم به من تعليم العلم فإنه كان يهتم بوعظ الناس بالسنة وتذكيرهم في أيام اجتماعهم، كما روى عاصم بن محمد عن أبيه قال: رأيت أبا هريرة يخرج يوم الجمعة، فيقبض على رمَّانتي المنبر قائما، ويقول: حدثنا أبو القاسم ﷺ الصادق المصدوق، فلايزال يحدث حتى إذا سمع فتح باب المقصورة لخروج الإمام جلس.

أخرجه الحاكم وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ثم قال: قد تحريت الابتداء من فضائل أبي هريرة رضي الله عنه لحفظه لحديث المصطفى ﷺ وشهادة الصحابة والتابعين له بذلك فإن كل من طلب حفظ الحديث من أول الإسلام وإلى عصرنا هذا فإنهم من أتباعه وشيعته، هو أولهم وأحقهم باسم الحفظ.

وقد أقره الإمام الذهبي على تصحيح هذا الحديث[1].

من مواقف تميم الداري رضي الله عنه:

من ذلك ما ذكره الإمام الذهبي من حديث الإمام الزهري عن حميد بن عبدالرحمن: أن تميمًا استأذن عمر في القصص سنين ويأبى عليه، فلما أكثر عليه قال: ما تقول؟ قال: أقرأ عليهم القرآن وآمرهم بالخير وأنهاهم عن الشر، قال عمر: ذاك الربح، ثم قال: عِظْ قبل أن أخرج إلى الجمعة[2].

---

(١) المستدرك ٣/ ٥١٢

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٤٧.

وفي هذا الخبر والذي سبق عن أبي هريرة رضي الله عنه دلالة على مشروعية الوعظ قبل صلاة الجمعة.

من مواقف أبي الدرداء رضي الله عنه:

مما يبين اهتمام السلف بالعلم كثرة عدد التلاميذ في الحلقات العلمية، ومن الذين كان التلاميذ يزدحمون في حلقاتهم أبو الدرداء عويمر بن زيد الأنصاري رضي الله عنه، وهو أحد القراء الثلاثة الذين بعثهم أمير المؤمنين عمر لتفقيه أهل الشام، وقد استقر بدمشق فصار سيد القراء والعلماء بها، وقد لُقِّب بحكيم الأمة لكثرة ما صدر عنه من الحكم والمواعظ.

وفي الشام ازدحم عليه طلاب العلم حتى بلغوا المئين كما جاء في رواية عن مسلم بن مشكم قال: قال لي أبو الدرداء: اعدُد من في مجلسنا قال: فجاؤوا ألفًا وستمائة ونيفا، فكانوا يقرؤون ويتسابقون عشرة عشرة، فإذا صلى الصبح انفتل وقرأ جزءًا فيحدقون به يسمعون ألفاظه، وكان ابن عامر مقدَّمًا فيهم(١).

من مواقف عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

لقد كان ابن عباس رضي الله عنهما حريصًا على العلم دؤوبًا في جمعه وتحصيله حتى استوعب علم أكابر الصحابة إلى جانب ما استفاده من النبي ﷺ، ومن شواهد ذلك ما أخرجه الإمام الدارمي بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما توفي رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: يا فلان هلم فلنسأل أصحاب النبي ﷺ فإنهم اليوم كثير، فقال: واعجبًا لك يا ابن عباس أترى الناس يحتاجون إليك وفي الناس من أصحاب النبي ﷺ من ترى، فترك ذلك وأقبلت على المسألة، فإنْ كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتيه وهو قائل(٢)، فأتوسد ردائي على بابه فتسفي الريح على وجهي التراب، فيخرج فيراني فيقول يا ابن عم رسول الله ما جاء بك؟ ألا أرسلت إليَّ فآتيك! فأقول: أنا أحق أن آتيك، فأسأله

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٤٦، وابن عامر هو عبد الله بن عامر الذي كان أميرا على البصرة في عهد عثمان رضي الله عنه.

(٢) أي نائم في القيلولة.

عن الحديث، قال: فبقي الرجل حتى رآني وقد اجتمع الناس عليّ فقال: كان هذا الفتى أعقل مني[1].

أما تلاميذ ابن عباس فقد كانوا كثيرين جدًا حتى كان موكبه يشبه مواكب الخلفاء، كما جاء عن يزيد بن الأصم قال: خرج معاوية حاجًا معه ابن عباس، فكان لمعاوية موكب ولابن عباس موكب ممن يطلب العلم[2].

وذكر الحافظ ابن كثير من خبر شقيق بن سلمة قال: خطب ابن عباس وهو على الموسم فافتتح سورة البقرة، فجعل يقرؤها ويفسرها، فجعلت أقول ما رأيت ولا سمعت كلام رجل مثله، لو سمعته فارس والروم لأسلمت[3].

فهذا مثل من سعة علم حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وتعمقه في تأويل القرآن.

وقول أبي وائل «لو سمعته فارس والروم لأسلمت» دليل على قوة تأثير ابن عباس على السامعين لقوة تأثره هو بما يقول، وحسن اختياره للمعاني والألفاظ.

من مواقف مكحول الدمشقي رحمه الله:

من ذلك ما رُوي عن مكحول الدمشقي رحمه الله أنه قال: عُتقت بمصر فلم أدع بها علمًا إلا احتويت عليه فيما أرى، ثم أتيت العراق فلم أدعَ بها علمًا إلا احتويت عليه فيما أرى، ثم أتيت المدينة فلم أدع بها علمًا إلا احتويت عليه، ثم أتيت الشام فغربلتها، كل ذلك أسأل عن النَّفَل فلم أجد أحدا يخبرني عنه حتى مررت بشيخ من بني تميم يقال له: زياد بن جارية جالسًا على كرسي، فسألته فقال: حدثني حبيب بن مسلمة قال: شهدت رسول الله ﷺ نفل في البُداءةَ الربع، وفي الرجعة الثلث.

قال الإمام الخطابي رحمه الله: البداءة ابتداء السفر للغزو وإذا نهضَتْ سرية من جملة العسكر فإذا أوقعَتْ بطائفة من العدو فما غنموا كان لهم فيه الربع ويشركهم سائر العسكر في ثلاثة أرباعه، فإن هم قفلوا من الغزاة ثم رجعوا فأوقعوا بالعدو

(١) سنن الدارمي/ المقدمة ١/ ١٤١.
(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٥١.
(٣) البداية النهاية ٨/ ٣٠٣.

ثانية كـان لهم مما غنموا الثلث، لأن نهـوضهم بعد القفـل أشق لكون العدو على حذر وحزم[1].

ومكحـول عالم أهل الشام مـن التابعين، كان مـولى لرجل مصـري من هذيل فأعتـقه، وكان إمامًا في العلم، وهذا الخبـر يدل على شدة اهتمامه بالمعـرفة حيث ظل سنوات يبحث عن هذا الحكم الشرعي ويسـأل عنه أهل العلم حتى وجده عند أحد الشيوخ.

من مواقف أبي عبد الله عكرمة رحمه الله:

ومما يدل على حرص طلاب العلم آنذاك على التـحصيل ما كـان يحصل بينهم من التزاحم على أبواب العلماء وفي حلقاتهم وتنافسهم في الوصول إليهم.

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء عن أيوب السخـتياني أنه قال: قدم علينا عكرمة فاجتمع الناس عليه حتى صعد فوق ظهر بيت.

وقـال أيوب: كنت أريد أن أرحل إلى عكرمـة إلى أفق من الآفـاق فـإني لفي سوق البصرة إذا رجل على حمار، فقيل لي: عكرمة، فاجتمع الناس إليه، فقمت إليه، فمـا قدرت على شيء أسأله، ذهبَتْ مني المسائل، فقـمت إلى جنب حماره فجعل الناس يسألونه وأنا أحفظ[2].

وعكرمة هو العلامة المفسر أبو عبـد الله البربري المدني مولى عبد الله بن عباس رضي الله عنهمـا كان إمـاماً في التفـسيـر والحديث، وهذا الخبـر يدل على منزلة العلماء في ذلك الوقت وحرص طلاب العلم على الأخذ عنهم حتى وهم يسيرون في الأسواق.

من مواقف أبي الزناد رحمه الله:

ومن الأمثلة على كثرة طلاب العلم في عهد التابعين ما رواه الليث بن سعد عن عبد ربه بن سعيد قال: دخل أبو الزناد[3] مسجد رسول الله ﷺ ومعه من الأتباع

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/١٥٨.
(٢) سير أعلام النبلاء ٥/١٨..
(٣) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن ذكوان القرشي الفقيه الحافظ كان من أكابر علماء المدينة.

-يعني طلبة العلم- مثلُ ما مع السلطان فمن سائل عن فريضة ومن سائل عن الحساب، ومن سائل عن الشعر ومن سائل عن الحديث ومن سائل عن معضلة[1].

من مواقف الإمام الزهري رحمه الله:

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير قال: وجاء شيخ إلى الزهري فقال: حدثني، فقال: إنك لا تعرف اللغة، فقال: لعلي أعرفها، فقال: فما تقول في قول الشاعر:

صريعَ ندامَى يرفع الشربُ رأسَه[2] وقد مات منه كل عضو ومِفصَل

ما المفصل؟ قال: اللسان، قال: عُد عليَّ أحدثك[3].

وهذا مثل على اهتمام علماء الحديث باللغة العربية، حيث كانوا يختبرون طلابهم باللغة أولا، فإذا أجادوها أذنوا لهم بالسماع منهم وإلا امتنعوا من ذلك جتى يتقنوا اللغة، وذلك لأن حديث رسول الله ﷺ رواه الصحابة رضي الله عنهم باللغة العربية الفصحى، فإذا رواه من لا يتقن هذه اللغة فإنه سيؤديه بشيء من اللحن فيكون قد قصر في أداء ما تحمل من هذه السنة.

من مواقف أبي بكر الباغندي رحمه الله:

وكانوا لاهتمامهم بالعلم يعتنون به أكثر من عنايتهم بمصالحهم الخاصة، فمن ذلك ما جاء في خبر أبي بكر الباغندي الحافظ أنه كان ينتخب على شيخ -يعني يسمع منه أحاديث مختارة- فكان يقول له: كم تُضجرني؟ أنت أكثر حديثًا مني وأحفظ، فقال: إنى قد جئت إلى الحديث، بحسبك أني رأيت النبي ﷺ في النوم فلم أسأله الدعاء، وإنما قلت: يا رسول الله أيما أثبت في الحديث منصور أو الأعمش؟ فقال: منصور منصور[4].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٠٨.

(٢) أي قتيل المنادمين حيث يزيل شرب الخمر عقله.

(٣) البداية والنهاية ٩/ ٣٦١.

(٤) سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٠٨. وأبو بكر الباغندي هو محمد بن محمد بن سليمان.

يعني منصور بن المعتمر رحمه الله، فأبو بكر الباغندي حينما رأى رسول الله ﷺ في النوم كان أول ما تبادر إلى ذهنه أن يسأله عن هذه القضية العلمية، ونسي أن يسأله الدعاء له، مما يدل على أن الذي كان يشغل باله هو الاهتمام بالعلم.

من مواقف سعيد بن المسيب وقتادة رحمهما الله:

من ذلك ما رَوَى الإمام مالك عن سعيد بن المسيب رحمه الله أنه قال: إنْ كنت لأسير الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد[1].

وسعيد بن المسيب من أكبر سادة التابعين وعالم أهل المدينة في وقته أبو محمد المخزومي القرشي، وقد حصل له ابتلاء في حياته على يد بعض ولاة المدينة، فقد ضُرِبَ وأُوقف في الشمس، ومع ذلك لم يتركه طلاب العلم بل حاولوا الاستفادة منه وهو في تلك الحال كما جاء في رواية عن قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله قال: أتيت سعيد بن المسيب وقد أُلبِسَ تِبَّان الشعر وأُقيم في الشمس فقلت لقائدي: أَدْنني منه فأدناني، فجعلت أسأله خوفًا من أن يفوتني، وهو يجيبني حسبةً والناس يتعجبون[2].

وهو موقف يثير العجب عند عامة الناس، ولكنه بالنسبة لطلاب العلم أمر معتاد، فكم خاطروا بحياتهم في الأسفار، وكم كابدوا من المشاق في سبيل طلب العلم!

من مواقف أبي حنيفة النعمان رحمه الله:

ومن أخبارهم في الجد في طلب العلم وطول ملازمة الشيوخ ما رُوي عن الإمام أبي حنيفة قال: قدمت البصرة فظننت أني لا أُسأل عن شيء إلا أجبت فيه، فسألوني عن أشياء لم يكن عندي فيها جواب، فجعلت على نفسي أن لا أفارق حمادًا حتى يموت، فصحبته ثماني عشرة سنة[3].

يعني شيخه حماد بن أبي سليمان رحمه الله.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٢٢.
(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٣٢.
(٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٩٨.

ومن مواقف الإمام أبي حنيفة وتلميذه أبي يوسف رحمهما الله: ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر الإمام القاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام أبي حنيفة قال: توفي أبي وأنا صغير فأسلمتني أمي إلى قصار[1]، فكنت أمرُّ على حلقة أبي حنيفة فأجلس فيها، فكانت أمي تتبعني فتأخذ بيدي من الحلقة وتذهب بي إلى القصار، ثم كنت أخالفها في ذلك وأذهب إلى أبي حنيفة، فلما طال ذلك عليها قالت لأبي حنيفة: إن هذا صبي يتيم ليس له شيء إلا ما أطعمه من مغزلي، وإنك قد أفسدته عليّ، فقال لها: اسكتي يا رعناء[2]، ها هو ذا يتعلم العلم وسيأكل الفالوذج بدهن الفستق في صحون الفيروزج، فقالت له: إنك شيخ قد خرفت، قال أبو يوسف: فلما وليت القضاء -وكان أول من ولاه القضاء الهادي، وهو أول من لُقِّب قاضي القضاة، وكان يقال له: قاضي قضاة الدنيا لأنه كان يستنيب في سائر الأقاليم التي يحكم فيها الخليفة- قال أبو يوسف: فبينا أنا ذات يوم عند الرشيد إذ أُتِيَ بفالوذج في صحن فيروزج، فقال لي: كل من هذا فإنه لا يُصنع لنا في كل وقت، وقلت: وما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: الفالوذج، قال: فتبسمت فقال: مالك تتبسم؟ فقلت: لا شيء أبقى الله أمير المؤمنين، فقال: لَتخبرنِّي، فقصصت عليه القصة، فقال: إن العلم ينفع ويرفع في الدنيا والآخرة، ثم قال: رحم الله أبا حنيفة فلقد كان ينظر بعين عقله، ما لا ينظر بعين رأسه[3].

ففي هذا الخبر مثل على اهتمام الطلاب آنذاك بالعلم، حيث تنبه الإمام أبو يوسف إلى أهمية العلم وهو طفل، وفراسة عالية وتقدير للعلم من الإمام أبي حنيفة حيث أخبر بما سيؤول إليه أمر أبي يوسف، وموقف لأمير المؤمنين هارون الرشيد في إعزاز العلماء وتقديرهم.

من مواقف هاشم السلمي وشيخه أبي شيبة رحمهما الله:

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة أبي معاوية هاشم بن بشير بن أبي حازم السُّلمي، قال: كان أبوه طباخًا للحجاج بن يوسف الثقفي، ثم كان بعد

(١) القصَّار الصانع أو مبيض الثياب.
(٢) أى يا حمقاء.
(٣) البداية والنهاية ١٠/١٨٦ - ١٨٧.

ذلك يبيع الكوامخ[1]، وكان يمنع ابنه من طلب العلم ليساعده على شغله، فأبى إلا أن يسمع الحديث، فاتفق أن هاشمًا مرض فجاءه أبو شيبة قاضي واسط عائدًا له ومعه خلق من الناس، فلما رآه بشير فرح بذلك وقال: يا بني أَبَلَغَ من أمرك أن جاء القاضي إلى منزلي؟ لا أمنعك بعد هذا اليوم من طلب الحديث[2].

وهكذا عرف بشير بن أبي حازم قيمة العلم ومنزلة أهله حينما جاء قاضي واسط ومعه أهل العلم لزيارة ابنه هاشم الذي كان -آنذاك- من طلاب العلم، وكم كانت فرحته حينما جاء القاضي لزيارته لما سيترتب على ذلك من تقدير أبيه للعلم وأهله، وهذا موقف يذكر لأبي شيبة قاضي واسط في تقديره لطلاب العلم، ولقد رفعت هذه الزيارة الحرج عن هاشم بن بشير، حيث أصبح أبوه لا يمنعه بعد ذلك من طلب العلم.

من مواقف عبد الملك بن جريج رحمه الله:

وقال عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج: ما دوّن هذا العلم تدويني أحد، جالست عمرو بن دينار بعدما فرغت من عطاءَ سبع سنين، وقال: لم يغلبني على يسار عطاء عشرين سنة أحد، فقيل له: فما منعك من يمينه؟ قال: كانت قريش تغلبني عليه[3].

وقال أيضا: أقمت على عطاء إحدى وعشرين حجة، يخرج أبواي إلى الطائف وأقيم أنا تخوفًا أن يفجعني عطاء بنفسه[4].

من مواقف مالك بن أنس رحمه الله:

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن عبد البر في «التمهيد» قال: هذا كتبته من حفظي وغاب عني أصلي: أن عبد الله العمريَّ العابد كتب إلى مالك يحضُّه على الانفراد والعمل[5]، فكتب إليه مالك: إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فَرُبَّ رجل فُتِح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له

(١) جمع كامخ، معرَّب، وهو اسم لما يؤتدم به.
(٢) البداية والنهاية ١٠/ ١٩٠.
(٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٣٤.
(٤) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٣٦.
(٥) يعني على العزلة والتعبد.

في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد، فَنَشْر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فُتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر»[1].

وهكذا أبان الإمام مالك فضل العلم، وبين لذلك العابد شمول العبادة، حيث ذكر له أن نشر العلم من أفضل الأعمال الصالحة، وأن العالم الذي ينشر علمه ليس بأقل عملا ممن قَصَر عملَه على أداء الشعائر التعبدية.

وهذه نظرة مهمة في بيان شمول العبادة حيث تشمل كل عمل مشروع أراد به فاعله وجه الله تعالى، وإن من أفضل الأعمال التي تدخل في ذلك نشر العلم، بل إنه أفضل من الاقتصار على أداء الشعائر التعبدية من النوافل، لأن هذه نفعها قاصر على فاعلها، ونشر العلم يصل نفعه إلى من قام به ومن استفاد من ناشره.

هذا إضافة إلى الأدلة الصحيحة الصريحة التي تدل على فضل نشر العلم والدعوة به إلى الإسلام، كما جاء في قول رسول الله ﷺ «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»[2]، وقوله «**لأن يهدي الله بك رجلا واحدًا خير لك من حمر النعم**»[3] وقوله «**مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن**[4] **كمثل الأترجَّة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها**»[5].

وهذا صريح في تفضيل معلم العلم الديني على من اقتصر على العبادات الخاصة.

بل أصرح من ذلك قوله ﷺ «**من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رِضًى بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، والحيتانُ في جوف الماء، وإن فضل العالم**

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٠٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن

(٣) صحيح البخاري، رقم ٤٢١٠ (٧/ ٤٧٦).

(٤) يعني يعلمه الناس

(٥) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل القرآن، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة حافظ القرآن.

على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهما إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر[1]». وكذلك قوله ﷺ «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، إن الله عز وجل وملائكته وأهل السماوات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلُّون على معلِّم الناس الخير**»[2].

كما يبين النبي ﷺ أن الاشتغال بالعلم أفضل من نوافل العبادة حيث يقول: «**فضل العلم أحب إليَّ من فضل العبادة، وخير دينكم الورع**»[3].

ويربط النبي ﷺ في حديث آخر بين الخير والفقه في الدين كما في قوله «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»[4].

وذلك أن عبادة الله تعالى بغير فقه قد تضر صاحبها، وذلك فيما إذا عبد الله سبحانه بغير ما شرع.

فهذه النصوص وأمثالها تدل على فضل الاشتغال بطلب العلم ونشره على الاشتغال بنوافل العبادة، وإن كان الكمال في الجمع بين ذلك لمن استطاع.

ولو أن الإمام مالكا وأمثاله من العلماء ساروا على منهج ذلك العابد الذي أشار عليه بالعزلة والاشتغال بنوافل العبادة لما انتشر العلم ولَعَبَد الناسُ ربهم على جهل، وما ذلك الاهتمام الذي تمتع به ذلك العابد إلا بسبب ما بلغه من العلم عن طريق العلماء الذين تقربوا إلى الله تعالى بنشر العلم.

ومن المواقف في الاهتمام بالعلم ما رواه ابن مهدي قال: سأل رجل مالكًا عن مسألة فقال: لا أحسنها، فقال الرجل: إني ضربت إليك من كذا وكذا لأسألك عنها، فقال له مالك: فإذا رجعت إلى مكانك وموضعك فأخبرهم أني قد قلت لك: إني لا أحسنها[5].

---

(١) صحيح الجامع الصغير، رقم ٦١٧٣ (٥/ ٣٠٢).
(٢) صحيح الجامع رقم ٤٠٨٩ (٣/ ٨٦).
(٣) صحيح الجامع رقم ٤٠٩٠ (٣/ ٨٦).
(٤) صحيح الجامع رقم ٦٤٨٧ (٥/ ٣٧١).
(٥) حلية الأولياء ٦/ ٣٢٣.

فهذا مثل على ورع الإمـام مالك وقوة إيمانه، فقد كان لا يفـتي إلا متمكنا من معرفـة الحكم، ولا يبالي أن يوصف بنقص العلم إذا اعتـذر عن الجواب، لأنه لا يعمل من أجل الناس وإنما يعمل من أجل الله تعالى، والعـالم إذا سئل عن مسألة فأجاب يكون قد خلص نفسه من الناس، ولكنه إذا أجاب بغير علم يكون قد ورط نفسه وأوقعها في مهلكة، فالعالم التقي يوازن بين مشكلة الدنيا التي قد تنقص من جاهه ومكانته عند الناس، وبين مشكلة الآخرة، حينما يقف للحساب بين يدي الله تعالى فيسأله عن الفتوى بغير علم، فيفضِّل الخلاص من مشكلة الآخرة وإن حصل له نقص في جاهه ومنزلته في الدنيا.

وهكذا فعل الإمام مالك حينما اعتذر عن الفتيا في تلك المسألة مع أن ذلك زاده شرفًا ومنزلة عند العلماء، لأنهم عَدُّوا ذلك دليلا على ورعه وتقواه.

وقد بين في خـبر آخـر عنه أنه يخشى من إجـابة السائلين القـادمين من الآفاق البعيدة أن يـرجع عن فتواه إلى ما يراه أقرب إلى الصواب، فـلا يستطيع بعد ذلك العثور على السـائلين لإخبارهم بذلك، كما أخرج أبو نعـيم بإسناده عن عمرو بن يزيد أنه قـال قلت لمالك: يا أبا عـبد الله يـأتيك ناس من بلدان شـتَّى قد أنَضَـوا مطاياهم، وأنفقوا نفقاتهم يسألونك عما جعل الله عندك من العلم تقول لا أدري! فقـال: يا عبد الله يأتيني الشـامي من شامـه، والعراقي من عراقـه، والمصري من مـصره، فـيسـألونني عن الشيء لعلِّي أن يبـدوَ لي فيـه غـير مـا أجيب به فـأين أجدهم؟[1].

وهذا أبلغ في التـحري والورع حـيث يكون له اجتـهاد في المسألة ويـخشى أن يتغير اجتهاده.

موقف لعبد الله القعنبي رحمه الله:

ومن العلماء من بالغ في الورع فترك نشر الحديث خشية الوقوع في مآثم بسبب ذلك مثل احـتمال مـداخلة الرياء والسمعـة أو وقوع الخلاف مع العلمـاء الآخرين ونحو ذلك ورأى بسبب ذلك أن يتفرغ لأداء الشعائر التعبدية.

(١) حلية الأولياء ٦/ ٣٢٤.

ومن هؤلاء الإمام عبد الله بن مسلمة القعنبي، ولكنه بعد التوقف رجع إلى التحديث بسبب رؤيا صالحة رآها، كما رُوي عن أبي سبرة المديني قال: قلت للقعنبي: حدَّثتَ ولم تكن تحدث! قال: إني رأيت كأن القيامة قد قامت، فَصيحَ بأهل العلم، فقاموا وقمت معهم، فنودي لي: اجلس، فقلت: إلهي ألم أكن أطلب؟ قال: بلى ولكنهم نشروا وأخفيته، قال: فحدثت[1].

فهذه الرؤيا جاءت تذكيرا وإيقاظا لهذا الإمام لِمَا أراد الله تعالى به من الخير، وإلا فهو على علم غالبا بالأحاديث التي تحث على نشر العلم وتُبيِّن أن ذلك من أزكى الأعمال الصالحة، لكن غلب عليه الورع، فغلَّب جانب اتقاء الإثم المحتمل على التزود بالعمل الصالح المتيقن مع صلاح النية.

موقف لهشام بن عمار رحمه الله:

ومن أمثلة اهتمامهم بطلب العلم ما رُوي عن هشام بن عمار قال: دخلت على مالك[1] فقلت له: حدثني، فقال: اقرأ، فقلت: لا بل حدثني، فقال: اقرأ، فلما أكثرت عليه، قال: يا غلام تعال اذهب بهذا فاضربه خمسة عشر، فذهب بي فضربني خمس عشرة دِرَّة، ثم جاء بي إليه، فقال: قد ضربته، فقلت له: لِمَ ظلمتني؟ ضربتني خمس عشر درةً بغير جرم، لا أجعلك في حل، فقال مالك: فما كفارته؟ قلت: كفارته أن تحدثني بخمسة عشر حديثًا، قال" فحدثني بخمسة عشر حديثًا، فقلت له: زد من الضرب وزد في الحديث، فضحك مالك وقال: اذهب[3].

فهذا مثل بليغ في اهتمام طلاب العلم بالتحصيل العلمي في رواية السنة النبوية وقد كانوا يرون أن تحديث الشيخ إياهم أعلى من قراءتهم عليه ولكن علماء المدينة اعتاداوا على قراءة تلاميذهم عليهم، فقد احتمل هشام بن عمار الضرب في سبيل العلم، وكان يريد المزيد من العلم وإن ناله مزيد من الضرب في سبيل ذلك.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٦١ - ٢٦٢.

(٢) يعني الإمام مالك بن أنس.

(٣) سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٢٩.

وفيه مثل من اهتمام الإمام مالك بتأديب الطلاب الذي قد يصل إلى حد الضرب، ومع أنه قد فعل ذلك على سبيل التأديب فإنه لما تظلَّم إليه هشام بن عمار غلب عليه جانب الخوف من الله تعالى فسأل ذلك الطالب عن كفارة ما حصل منه نحوه، وهذا دليل على قوة إيمانه وشدة استحضاره لرقابة الله عز وجل والحساب الأخروي.

من مواقف أبي يوسف يعقوب الفسوي رحمه الله:

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة الإمام أبي يوسف يعقوب بن أبي معاوية الفسوي قال: وقد رحل في طلب الحديث إلى البلدان النائية، وتغرَّب عن وطنه ثلاثين سنة،وروى ابن عساكر عنه قال: كنت أكتب في الليل على ضوء السراج في زمن الرحلة، فبينا أنا ذات ليلة إذ وقع شيء على بصري فلم أبصر معه السراج، فجعلت أبكي على ما فاتني من ذهاب بصري، وما يفوتني بسبب ذلك من كتابة الحديث، وما أنا فيه من الغربة، ثم غلبتنى عينى فنمت فرأيت رسول الله ﷺ فقال: **مالك؟** فشكوت إليه ما أنا فيه من الغربة وما فاتني من كتابة السنة، فقال: **ادْنُ مني**، فدنوت منه فجعل يده على عيني، وجعل كأنه يقرأ شيئًا من القرآن، ثم استيقظت فأبصرت وجلست أسبح الله[1].

وهكذا كان اهتمام الإمام الفسوي سببًا فيما نزل به من الغم الشديد حينما فقد بصره، فلم يفكر -آنذاك- بأمور دنياه وإنما كان باله مشغولا بما سيفوته من كتابة السنة النبوية بسبب فقد البصر، وقد رحمه الله تعالى فشفاه بواسطة رقية رسول الله ﷺ إياه في المنام، وأكْرِمْ بها من واسطة!

من مواقف عبد الله بن المبارك وعلي بن الحسن بن شقيق رحمهما الله:

ومن أمثلة اهتمامهم بالعلم وهيامهم بمذاكرته ما رُوي عن علي بن الحسن بن شقيق رحمه الله قال: قمت لأخرج مع ابن المبارك في ليلة باردة من المسجد، فذاكرني عند الباب بحديث أو ذاكرته فما زلنا نتذاكر حتى جاء المؤذن للصبح[2].

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ٦٣ -٦٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٣٩.

فهـذان العالمان الجلـيلان يستـغرقـان في مذاكـرة الحديث ليلة كـاملة عند باب المسجـد، ولم يعكِّر عليهـما ما كـان من برودة الجو لأن اشـتياقـهمـا إلى المذاكرة واستغراقَ أفكارهما في العلم ينسيهما لوافح البرد وسمائم الحر.

من مواقف إسماعيل بن عياش رحمه الله:

ومن الأخبـار التي تدل على اهتمام العلمـاء بالعلم وتذكره ما رواه محـمد بن عوف عن أبي الـيمان قـال: كان منزل إسـماعيـل (يعني ابن عيـاش) إلى جانب منزلي، فكان يحيي الليل، وكان ربما قرأ، ثم يقطع ثم رجع فقرأ من الموضع الذي قطع منه، فلقيته يومًا فقلت: يـا عم قد رأيت منك في القراءة كيت وكيت، قال: يا بني وما سـؤالك؟ قلت: أريد أن أعلم، قال: يا بني إنـي أصلي فأقرأ، فـأذكر الحديث في البـاب من الأبواب التي أخرجتهـا فأقطع الصلاة فأكتـبه ثم أرجع إلى صلاتي فأبتدئ من الموضع الذي قطعت منه[1].

وقوله «فـأقطع الصلاة» يعني القـراءة ثم يتم الركعـتين خفـيفتين ثـم يعود إلى القراءة بعـد كتابـة الحديث في صلاة أخـرى، لأنه يبعد من ذلك الـعالم أن يقطع صلاته بالكلية.

وفي هذا الخبر دلالة على اهتمام العلماء البالغ بالعلم وتذكره وتدوينه، فقد كان التـفكيـر في العلم يدخل عليـهم حـتى في صـلاتهم التي كـانت أغلى شيء في حياتهم، فهذا العالم الجليل يوقف قـراءته ويخفف صلاته ليدون ما خطر في فكره من العلم خشية فواته، وهذا دليل على فهمهم الصحيح لمنزلة العلم وأهميته.

من مواقف أبي جعفر المنصور مع أحد العلماء رحمهما الله:

ذكر الإمام محمـد بن جرير الطبري في ترجمة أمير المؤمنين أبي جـعفر المنصور قال: ودخل على المنصور رجل من أهل العلم فـازدراه واقتحمتْه عـينه، فجعل لا يسأله عن شيء إلا وجد عنده، فقال له: أنَّى لك هذا العلم! قال: لم أبخل بعلم علمته، ولم أستح من علم أتعلمه، قال: فمِنْ هناك[2].

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٨٠.

(٢) تاريخ الطبري ٨/ ٨٨.

وهكذا رفع العلم هذا الرجل الذي احتقره أمير المؤمنين أبو جعفر المنصورُ في أول الأمر، فالعلم النافع رِفْعة ونور لصاحبه في الدنيا والآخرة، وقد أبان هذا العالم للمنصور سبب حفظه العلم واستيعابه إياه بأمرين: الأول أنه لم يبخل بعلمه، بل نشره وعلَّمه غيره، وتعليم العلم هو من أهم وسائل حفظه وتذكُّره، والثاني أنه لم يمنعه الحياء من طلب العلم حيث كان يسأل عما خفي عليه منه، وهذا يعطيه فرصة أكبر في التزود من العلم ومعرفة مسائله الخفية.

من مواقف عاصم بن علي رحمه الله:

ومن أمثلة كثرة طلاب العلم وتزاحمهم على العلماء ما جاء عن عمر بن حفص السدوسي قال: سمعنا من عاصم بن علي، فوجه المعتصم من يحزر مجلسه في رحبة النخل التي في جامع الرصافة، وكان يجلس على سطح، وينتشر الناس، حتى إني سمعته يومًا يقول: حدثنا الليث بن سعد، ويُستعاد، فأعاد أربع عشرة مرة، والناس لا يسمعون، وكان هارون المستملي يركب نخلة معوجة يستملي عليها، فبلغ المعتصم كثرة الخلق فأمر بحزرهم، فوجَّه بقطَّاعي الغنم فحزروا المجلس عشرين ومائة ألف[1].

فهذا مثال على كثرة طلاب العلم والمستمعين للدروس العلمية، وخاصة ما يتعلق بالسنة النبوية، حيث إن دروسها هي التي كانت تحظَى بالعدد الكبير من الطلاب والمستمعين.

وإذا نحن قارنا بين تلك العصور وعصرنا الحاضر نجد أن الله تعالى منَّ علينا في هذا العصر بالوسائل التي يستطيع بها أهل العلم أن يُبَلِّغوا العلم ومن ذلك مكبرات الصوت، بينما كان أهل العلم سابقًا يضطرون إلى عدد من المبلغين إذا كثر طلاب العلم، وذلك يأخذ عليهم وقتًا طويلاً.

إضافة إلى ما توافر في هذا العصر من الآلات الأخرى التي يتم بها نشر العلم بسرعة وحفظه كالمسجلات وآلات الطباعة والتصوير والحاسوب الآلي.

وإن من شكر هذه النعمة على أبناء هذا الجيل أن يستخدموا هذه الوسائل في تكثيف الإنتاج والاستفادة من الوقت الذي وفرته هذه الوسائل.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩/٢٦٣، تاريخ بغداد ١٢/٢٤٨.

من مواقف علي بن عاصم رحمه الله:

من ذلك ما ذكره الإمام الذهبي عن الخضر بن أبان قال: سمعت علي بن عاصم يقول: خرجت من واسط أنا وهشيم إلى الكوفة لِلُقِيِّ منصور -يعني ابن المعتمر- فلما خرجت فراسخ لقيني أبو معاوية، فقلت: أين تريد؟ قال: أسعى في دين عليَّ، فقلت: ارجع معي فإن عندي أربعة آلاف أعطيك منها ألفين، فرجَّعته فأعطيته ألفين، ثم خرجت فدخل هشيم الكوفة غداة، ودخلتها العشي فذهب فسمع من منصور أربعين حديثًا، ودخلت أنا الحمام، ثم أصبحت فأتيت باب منصور فإذا جنازته، فقعدت أبكي، فقال شيخ هناك: يا فتي ما يبكيك؟ قلت: قدمت لأسمع من هذا الشيخ فمات، قال: فأدلك على من شهد عرس أم ذا؟ قلت: نعم، قال: اكتب: حدثنا عكرمة عن ابن عباس، فجعلت أكتب شهرًا، فقلت: من أنت؟ قال: أنا حصين بن عبد الرحمن ما كان بيني وبين أن ألقى ابن عباس إلا تسعة دراهم، وكان عكرمة يسمع منه ثم يجيء فيحدثني[1].

ففي هذا الخبر مواقف عالية:

فالموقف الأول: في رجوع علي بن عاصم الواسطي ليقضي دين أحد العلماء وهو أبو معاوية، وهذا مثل من الكرم المتأصل في النفس، حيث أجَّل سفره من أجل هذه المهمة، ولم يطلب منه أبو معاوية وإنما ذكر فقط أنه خرج من أجل سداد دين عليه، وليس غريبًا هذا الكرم على علماء الدين بل هو الغالب عليهم وخاصة فيما بينهم ومع طلابهم لأنهم كانوا يريدون وجه الله تعالى والدار الآخرة، ولأن مثل هذا الموقف يكون بعيدًا عن الخيلاء والمباهاة، وهم كانوا حريصين جدًا على توقِّي أمراض القلوب.

والموقف الثاني: في بكاء علي بن عاصم حينما فاته السماع من منصور بن المعتمر، والبكاء أثر من آثار حرقة النفس وكمدها على فوات المحبوب، وقد كان العلم أعزَّ محبوب عند أهل العلم.

وقد كان علي بن عاصم يستطيع سماع ما فاته من مرويات منصور بن المعتمر من تلامذته الذين سمعوا منه، ولكنه كان يريد علو الإسناد، وكان ذلك مطلبًا

(١) سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٥٣.

عزيزًا عند أهل الحديث رحمهم الله تعالى، وقد عوَّضه الله سبحانه بما يشفي وَجْده؛ ذلك بما سمع من حصين بن عبد الرحمن الذي لم يكن بينه وبين ابن عباس رضي الله عنهما إلا عكرمة.

والموقف الثالث: فيما قام به حصين بن عبد الرحمن من مواساة علي بن عاصم حينما رأى مصيبته بفقد منصور بن المعتمر، حيث جلس يحدثه شهرًا، فعوضه عما فاته مما قدم الكوفة من أجله، وقد كان العلماء يقدِّرون طالب العلم الذي يلمسون منه إخلاصًا في طلب العلم.

وإلى جانب حرص الطلاب في ذلك الزمن على تعلم العلم نجد الآباء يشجعون أبناءهم ويوجهونهم إلى العلماء، ويبذلون في سبيل ذلك الكثير من أموالهم كما جاء عن عاصم بن علي أنه قال: دفع إليَّ أبي مائة ألف درهم، وقال: اذهب فلا أرى لك وجهًا إلا بمائة ألف حديث[1].

فهذا مثل من أمثلة اهتمام الآباء بتوجيه أبنائهم نحو العلم مع ما يكلفهم ذلك من أموال، فقد كانوا أسخياء بأموالهم في سبيل تعليم أبنائهم، وإذا كان طلب العلم لا يحصل إلا بهذا الجهد البدني والمالي فإنه أبقى له وأجدر بالانتفاع به.

موقف لعبد الله بن داود الخريبي رحمه الله:

ويشبه موقف علي بن عاصم ما رواه الكديمي عن عبد الله بن داود الخُرَيْبي أنه قال: كان سبب دخولي البصرة لأنْ ألقى ابن عون، فلما صرت إلى قناطر سردارا تلقاني نعيه، فدخلني ما الله به عليم[2].

موقف لابن المديني رحمه الله:

ومن أمثلة حرصهم على طلب العلم ما جاء عن إبراهيم بن المنذر الحزامي قال: قدمت البصرة فجاءني علي بن المديني فقال: أول شيء أطلب أن تُخرج إليَّ حديث الوليد بن مسلم، فقلت: يا ابن أمَّ، سبحان الله! وأين سماعي من سماعك؟ فجعلت آبَى، ويلح، فقلت له: أخبرني عن إلحاحك ما هو؟ قال

(١) سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٥٢، تاريخ بغداد ١١/ ٤٤٧.

(٢) سير أعلام النبلاء ٩/ ٣٤٨، تهذيب الكمال ٦٧٨.

أُخبـرُك: إن الوليد رجل أهل الشام، وعنده علم كـثير، ولم أستـمكن منه، وقد حدثكم بالمدينة في المواسم، وتقع عندكم الفـوائد، لأن الحجاج يجتـمعون بالمدينة من الآفاق فيكون مع هذا بعض فوائده ومع هذا شيء.

قال: فأخرجت إليه، فتعجب من كتابه، كاد أن يكتبه على الوجه[1].

فهـذا مثـال لحرص العلمـاء على نوادر العلم، كمـا أنه مثـال لتواضعـهم في الطلب، فإن عليَّ بن المديني أشهر من إبراهيم بن المنذر، ومع ذلك يذهب إليه ابن المديني ليأخذ منه الفوائد العلمية.

وهو إضافـة إلى ذلك مثال لمـا كانت تعمـر به مكة والمدينة في أيام المواسم من النشاط العلمي المتـرتب على وفود العلماء وطلاب العلم من الآفاق، وهـذه منفعة عظمى من المنـافع التي ذكـرها الله جل وعـلا بقـوله: ﴿**لِيَـشْـهَـدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ**﴾ [الحج: ٢٨].

من مواقف أبي حاتم وزملائه رحمهم الله:

من ذلك ما رُوي عـن أبي حاتم[2] أنه قال عن عـبد الله بن مسلمـة القعنبي: سألناه أن يقرأ علينا الموطأ، فـقال: تعالوا بالغداة، فقلنا: لنا مـجلس عند حجاج ابن منهال، قال: فإذا فرغتم من حـجاج، قلنا: نأتي مسلم بن إبراهيم، قال: فإذا فرغـتم، قلنا: يكون وقت الظهر ونأتي أبا حـذيفة النهدي، قال: فـبعد العـصر، قلنا: نأتي عارمًا أبا النعمـان، قال: فبعد المغرب، فكنا نأتيه بـالليل فيخرج علينا وعليه كبل[3] ما تحتـه شيء في الصيف في الحر الشديد، فكان يقـرأ علينا وعليه كساؤه ولو أراد لأعطي الكثير[4].

فهـذا مثل لعمـران البلاد آنذاك بمجـالس العلم، فأبو حـاتم وزملاؤه في طلب العلم يحضرون خمسة دروس في اليوم في الحديث، وإذا تذكرنا أنهم يحفظون ما

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩/ ٢١٤.

(٢) هو الإمام الحافظ محمد بن إدريس التميمي الرازي.

(٣) أي فرو كبير.

(٤) الجرح والتعديل ٥/ ١٨١، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٦٠.

يسمعون عن ظهر قلب غالبًا عرفنا الجهد الكبير الذي كان يبذله طلاب العلم آنذاك في حمل العلم.

ولقد كان بعض تلك الأحاديث من مسموعاتهم قديما ولكنهم يحبون أن يسمعوها من أكثر من شيخ زيادة في التثبت والتحري.

من مواقف سليمان بن حرب رحمه الله:

ومن أمثلة كثرة طلاب العلم في دروس الحديث النبوي ما أخرجه ابن أبي حاتم قال: سمعت أبي يقول: لقد حضرت مجلس سليمان بن حرب ببغداد، فحزروا من حضر مجلسه أربعين ألف رجل، وكان مجلسه عند قصر المأمون، فبُنِي له شبه منبر فصعد سليمان وحضر حوله جماعة من القواد عليهم السواد[1] والمأمون فوق قصره، قد فتح باب القصر، وقد أُرسِل سترٌ يَشِفُّ وهو خلفه يكتب ما يُمْلَى، فَسُئِل أول شيء حديث حوشب بن عقيل، فلعله قد قال: حدثنا حوشب بن عقيل أكثر من عشر مرات وهم يقولون: لا نسمع فقام مستملٍ ومستمليان وثلاثة، كل ذلك يقولون: لا نسمع، حتى قالوا: ليس الرأي إلا أن يحضر هارون المستملي، فذهب جماعة فأحضروه، فلما حضر قال: من ذكرت؟ فإذا صوته خلافُ الرعد، فسكتوا، وقعد المستملون كلهم، فاستملَى هارون، وكان -يعني سليمان بن حرب- لا يُسأل عن حديث إلا حدَّث من حفظه، وسئل عن حديث فتح مكة فحدثنا به من حفظه، فقمنا من مجلسه فأتينا عفان -يعني ابن مسلم- فقال: ما حدثكم أبو أيوب؟ وإذا وهو يعظمه[2].

فهذا الخبر مثل لكثرة طلاب العلم في عصور الإسلام الزاهرة، فهذا الإمام الجليل سليمان بن حرب قد اجتمع في درسه أربعون ألف طالب، وهؤلاء يعادلون طلاب جامعة من أكبر جامعات الدنيا في العصر الحاضر.

وفي المقارنة بين الوسائل المتاحة للعلماء وطلاب العلم في هذا العصر وما أتيح لهم في العصور السابقة نجد فرقًا كبيرًا، فقد كانوا مضطرين سابقًا إلى تكليف عدد

(١) أي لبس السواد وهو شعار العباسيين.

(٢) الجرح والتعديل ٤/١٠٨- ١٠٩، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣٣١- ٣٣٢، وقوله «فإذا هو يعظمه» يعني أن عفان يعم أبا أيوب.

من المبلغين لكثـرة الحضور وعدم سـماعهم صـوت الشيخ، وحينمـا يوجد رجل جهورى الصـوت من أهل العلم فإنه يكون نعمة على الـشيوخ والتلاميـذ كما هو الحال في هارون المستملي الذي جاء ذكره في هذا الخبر.

وكان القادة يستفيدون أيضًا من أصحاب الأصوات الجهورية في إبلاغ البلاغات العسكرية، ولهم في ذلك أسوة حسنة برسول الله ﷺ يوم حنين، حيث كلف عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه بنداء أفراد الجيش، وكان جهوري الصوت.

أما أبناء هذا العصر فقد هيـأ الله تعالى لهم مكبرات الصوت التي تحيل الصوت الخافت إلى صـوت جهوري، يـصل إلى أبعاد طويلة، فاسـتفاد مـن ذلك العلماء والخطباء والقادة وغيرهم في اختصار الوقت الذي كان سابقًا يذهب في التبليغ.

أما ما جـاء في هذا الخبر من كون سليمان بن حـرب لا يُسأل عن حديث إلا حدث به من حفظه فـهو مثل من أمثلة كثـيرة تكشف عما كـان يبذله العلماء من جهود كبيرة في حفظ السنة النبوية بأسانيدها.

وأخيرًا موقف كريم للعالم الجليل عفَّان بن مسلم الذي كان معاصرًا لسليمان بن حرب، ويساميه في الحفظ والعلم، فلما سأل عنه طلاب العلم الذين حضروا هذا المجلس وأخبروه عنه أثنى عليه وعظمه.

من مواقف يحيى بن معين رحمه الله:

من مواقف العلماء المشهورة شدة تحريهم ودقة تثبتهم في رواية الحديث النبوي، ومن أمثلة ذلك ما رواه أحمد بن منصور الرمـادي قال: خرجت مع أحمد ويحيى إلى عبد الرزاق خادمًا لهما[1]. قال: فلما عدنا إلى الكوفـة قال يحيى بن معين: أريد أن أختبر أبا نعيم[2] فقال أحمد: لا تُرِدْ فـالرجل ثقة، قال يحيى: لابد لي، فأخذ ورقة فكتب فـيها ثلاثين حديثًا وجعل على رأس كل عشـرة منها حديثًا ليس من حديثه، ثم إنهم جاؤوا إلى أبي نعـيم، فخرج وجلس على دكان طين، وأخذ

(١) يعني أن أحمـد الرمادي خرج مع الإمام أحـمد بن حنبل ويحيى بن مـعين من العراق إلى اليمن لسـماع الحديث من محدث اليمن عبد الرزاق الصنعانى

(٢) هو الحافظ الفضل بن دُكَين، ودكين لقب اشتهر به أبوه عمرو بن حماد.

أحمد بن حنبل فأجلسه عن يمينه، ويحيى عن يساره، وجلست أسفل الدكان، ثم أخرج يحيى الطبق فقرأ عليه عشرة أحاديث، فلما قرأ الحادي عشر قال أبو نعيم: هذا ليس من حديثي، اضرب عليه، ثم قرأ العشر الثاني وأبو نعيم ساكت، فقرأ الحديث الثاني -يعني من الأحاديث التي أدخلها في أحاديث أبي نعيم- فقال أبو نعيم: ليس هذا من حديثي فاضرب عليه، ثم قرأ العشر الثالث، ثم قرأ الحديث الثالث، فتغير وجه أبي نعيم وانقلبت عيناه، ثم أقبل على يحيى فقال: أما هذا -وذراع أحمد بيده- فأورع من أن يعمل مثل هذا، وأما هذا -يريدني- فأقل من أن يفعل ذلك ولكن هذا من فعلك يا فاعل، وأخرج رجله فرفس يحيى فرمى به من الدكان، وقام فدخل داره، فقال أحمد بن حنبل ليحيى: ألم أمْنَعْك وأقُلْ لك: إنه ثبت، قال: والله لرَفْسَتُه أحب إلي من سفرتي[1].

فهذا الإمام الكبير والحافظ الخبير يحيى بن معين يقوم باختبار شيخه أبي نعيم، لا على سبيل التعنت والإحراج وإنما ليصل بذلك إلى توثيق آلاف الأحاديث التي رواها عنه، وقد كان الإمام أحمد واثقًا من شيخه أبي نعيم ويعتقد أنه ثقة، ولكن يحيى أصر على الاختبار ليحصل على مزيد من الثقة.

ونجح الشيخ أبو نعيم رحمه الله تعالى في ذلك الاختبار، ولكنه غضب غضبًا شديدًا، وكَبُر عليه أن يحصل ذلك من تلاميذه وهذا هو الذي كان يخشى منه أحمد بن حنبل.

وتلقَّى يحيى ضريبة عمله ذلك رفسة أطاحت به من قدم شيخه ولكن هذه الرفسة كانت عند يحيى أحلى من فرحة العودة من سفرته العلمية إلى اليمن.

لقد استقرت نفس يحيى واطمأن بعد ذلك الاختبار لحديث أبي نعيم الكثير فلِمَ لا يكون ذلك أحلى عنده مما جمعه من عبد الرزاق الصنعاني في سفرته إلى اليمن؟

إن سعادة هؤلاء العلماء النفسية ومتعتهم الروحية تتحقق فيما يقدمونه لسنة رسول الله ﷺ من خدمة في جمعها وتنقيتها ومعرفة درجات رواتها في القوة

(١) تاريخ بغداد ١٢/ ٣٥٣- ٣٥٤، سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٤٨- ١٤٩.

والضعف، ومن أجل هذه السعادة استحلى يحيى تلك الرفسة من أبي نعيم، فرحمهم الله تعالى رحمة واسعة.

ومن أمثلة اهتمامهم أنهم كانوا يكتبون الحديث مرات عديدة كما رُوي عن يحيى بن معين أنه قال: لو لم نكتب الحديث خمسين مرة ما عرفناه[1].

ولعل ذلك بتعدد الروايات عن الشيوخ حيث يروون الحديث الواحد مرات عديدة بأسانيد متعددة، وهذا دليل على الجد والمثابرة في جمع العلم حيث لم يكتفوا برواية واحدة للحديث الواحد أو روايات قليلة، وكلما تكرر متن الحديث زادوا به معرفة وإتقانًا وضبطا، وبهذا نالوا مرتبة الحفظ التام والإتقان الكامل.

ومما روي عن توسع يحيى بن معين في العلم ما ذكره أحمد بن عقبة قال: سألت يحيى بن معين: كم كتبت من الحديث؟ قال: كتبت بيدي هذه ستمائة ألف حديث.

قال الإمام الذهبي: يعني بالمكرر.

وقال صالح بن أحمد الحافظ: سمعت أبا عبد الله محمد بن عبد الله يقول: سمعت أبي يقول: خلَّف يحيى بن معين مائة قِمَطْر وأربعة عشر قمطرًا وأربعة حِبَاب شرابية مملوءة كتبًا[2].

وهذا يعني أن الحافظ يحيى بن معين قد استوعب أكثر السنة رواية، وقد سبق عنه أنهم كانوا يروون الحديث الواحد بأسانيد متعددة، فالمقصود هنا الأسانيد وليس المتون، فالمتون تكون مكررة كما ذكر الذهبي.

وهذه الخزائن الكُتُبيَّة التي خلَّفها ابن معين كلها من مروياته لأن الكتب إذا نُسبت إلى العالم فإنما يقصدون بذلك كتب الأحاديث التي رواها.

من مواقف الشقيقي رحمه الله:

من أمثلة تثبُّت العلماء -رحمهم الله تعالى- في رواية الحديث ما رُوي عن أبي عمار الحسين بن حريث قال: قلت للشقيقي[3]: سمعتَ من أبي حمزة كتاب

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٨٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٨١، [والقمطر هو وعاء يصنع من القصب، والحِبَاب الجرار الضخمة].

(٣) هو الحافظ علي بن الحسن بن شقيق المروزي.

الصلاة؟ قال: قد سمعت ولكن نهق حمار يومًا فاشتبه حديثٌ فلا أدري أي حديث هو، فتركت الكتاب كله[1].

من مواقف أبي رجاء قتيبة رحمه الله:

ومن ذلك ما ذكره أحمد بن سيار المروزي عن الحافظ أبي رجاء قتيبة مولى الحجاج بن يوسف حيث قال عن كثرة مروياته: وكان كثير الحديث، لقد قال لي: أقم عندي هذه الشَّتوة حتى أخرج لك مائة ألف حديث عن خمسة أناسيّ، فقلت: لعل أحدهم عمر بن هارون؟ قال: لا، كنت كتبت عن عمر بن هارون وحده أكثر من ثلاثين ألفا، ولكن وكيع بن الجراح، وعبد الوهاب الثقفي، وجرير، ومحمد بن بكر البُرْسَاني، ونسيت الخامس[2].

وإذا كانت روايات أبي رجاء مائة ألف حديث عن خمسة شيوخ فكيف برواياته عن بقية شيوخه!

من مواقف أحمد بن حنبل وأبي زرعة وإسحاق بن راهويه رحمهم الله:

لقد كان اهتمام العلماء بالعلم يصل أحيانًا إلى حد الانشغال به عن بعض نوافل العبادات، ومن أمثلة ذلك ما رواه عبد الله بن الإمام أحمد قال: لما قدم أبو زرعة نزل عند أبي، فكان كثير المذاكرة له، فسمعت أبي يومًا يقول: ما صليت غير الفرض، استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي[3].

وهذا يفيد بأن مذاكرة العلم والاشتغال به أفضل من نوافل العبادة والمقصود بذلك النوافل المطلقة، أما المقيدة بأوقات محددة فلا ينبغى تركها، وإنما كان الاشتغال بالعلم أفضل من نوافل العبادة المطلقة لأن العلم يتعدى نفعه للمسلمين بخلاف نوافل العبادة فإن نفعها يقتصر على فاعلها، والمقصود بالعبادة هنا المعنى الاصطلاحي الشائع وهو إطلاق ذلك على الشعائر التعبدية وإلا فإن العبادة تشمل جميع الأعمال الصالحة.

وقد يغلب على العلماء خاطر الاشتغال بالعلم فيشغلهم حتى عن نوافل الوقت المحددة كما جاء في خبر عن الحافظ إسحاق بن راهويه قال: كنا عند عبد الرزاق

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣٥١- ٣٥٢.
(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٨.
(٣) تاريخ بغداد ١٠/ ٣٢٧.

أنا وأحمد بن حنبل، فمضينا معه إلى المصلَّى يوم عيد فلم يكبِّر هو ولا أنا ولا أحمد، فقال لنا: رأيتُ معمرًا والثوريّ في هذا اليوم كبَّرا وإني رأيتكما لم تكبرا فلم أكبر فلِمَ لم تكبرا؟ قلنا: نحن نرى التكبير ولكن شُغِلنَا بأي شيء نبتدئ من الكتب[1].

وكون هذين الإمامين العابدين شغلا عن التكبير بالتفكير في العلم دليل على عظمة اهتمامهما بالسنة النبوية.

ولقد كانوا يروون الحديث الواحد من عدة طرق فلا يكتفون بإسناد واحد، وقد كان هذا من أسباب ضبط السنة لأنه إذا اخطأ راوٍ أو أكثر في بعض الحديث فيمكن تصحيحه من الطرق الأخرى، وفي بيان ذلك يقول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: نحن كتبنا الحديث من ستة وجوه وسبعة لم نضبطه، فكيف يضبطه من كتبه من وجه واحد؟!

وقال عبد الله بن أحمد: قال لي أبو زرعة: أبوك يحفظ ألف ألف حديث، فقيل: وما يدريك؟ قال ذاكرته فأخذت عليه الأبواب[2].

فهذا مثال لاهتمام العلماء برواية السنة حيث يروونها من طرق متعددة، وكثيرًا ما رحلوا مسافات طويلة من أجل زيادة هذه الطرق، وإن من مزايا ذلك ضبط ألفاظ الأحاديث وتقوية أسانيدها، وقد يقتصر العالم عند تدوين السنة على طريق أو أكثر ويحذف بعض الطرق على سبيل الاختصار أو لكونها لا تخلو من ضعف.

والمقصود بقول الحافظ أبي زرعة: «أبوك يحفظ ألف ألف حديث» الأسانيد وليس المتون، فالحديث الواحد الذى يَرِدُ بعدة أسانيد يُحسب بعددها، وقد كانوا يعدُّون الأحاديث بالأسانيد لشدة اهتمامهم بجمع الطرق الكثيرة للحديث الواحد.

ومن ذلك ما رواه الحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم قال وسمعت أبي يقول: رأيت أحمد في المنام[3]، فرأيته أضخم مما كان وأحسن وجهًا وسَحْنًا[4] مما كان، فجعلت أسأله عن الحديث[5].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٩٣.
(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٨٧.
(٣) يعني الإمام أحمد بن حنبل.
(٤) يعني الهيئة واللون.
(٥) سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٤٥.

ففي هذا الخبر بيان اهتمام العلماء بدراسة السنة النبوية، حيث يتذاكرون في الحديث حتى في رُؤَى المنام، فهذا يدل على أن هذا العلم هو أهم شيء عندهم.

ومن ذلك ما رُوي عن صالح بن الإمام أحمد قال: عزم أبي على الخروج إلى مكة ليقضي حجة الإسلام، ورافق يحيى بن معين، فقال نمضي إن شاء الله فنقضي حجتنا ونمضي إلى عبد الرزاق إلى صنعاء نسمع منه، وكان يحيى بن معين يعرف عبد الرزاق وقد سمع منه [قال: يحيى بن معين] فوردنا مكة وطفنا طواف الورود، فإذا عبد الرزاق في الطواف يطوف، فطاف وخرج إلى المقام فصلى ركعتين وجلس، فتمَّمْنا طوافنا أنا وأحمد وجئنا وعبد الرزاق جالس عند المقام، فقلت لأحمد: هذا عبد الرزاق قد أراحك الله من مسيرة شهر ذاهبًا وجائيا ومن النفقة، فقال: ما كان الله يراني وقد نويت له نية أُفسدها ولا أتمها[1].

فهذا الخبر مثل من الحرص الشديد على العمل الصالح، فقد كان الإمام أحمد قد نوى السفر إلى اليمن للسماع من الإمام عبد الرزاق الصنعاني فأحب أن يَتِمَّ على نيته ولم يكتف بلقاء عبد الرزاق في مكة ليكتب الله تعالى له ذلك العمل الصالح الذي نواه، وحينما تَدْخل النية الصالحة في طلب العلم فإن الله جل وعلا يبارك في أي جهد يبذله المتعلم، إضافة إلى تحول طلب العلم والسفر من أجله إلى عمل صالح يُرفع لصاحبه.

ومن أخبار العلماء في الشوق إلى العلم ما روُي عن عبد الله بن الإمام أحمد قال: سمعت أبي يقول: لما قدمت صنعاء اليمن -أنا ويحيى بن معين- في وقت صلاة العصر، فسألنا عن منزل عبد الرزاق فقيل لنا: بقرية يقال لها الرمادة، فمضيت لشهوتي للقائه، وتخلف يحيى بن معين، وبينها وبين صنعاء قريب، حتى إذا سألت عن منزله قيل لي: هذا منزله، فلما ذهبت أدقُّ الباب قال لي بقَّال تجاه داره، مَهْ، لا تدق فإن الشيخ مهوب، فجلست حتى إذا كان قبل صلاة المغرب خرج للصلاة فوثبت إليه وفي يدي أحاديث قد انتقيتها، فقلت له: سلام عليكم، تحدثني بهذه رحمك الله فإنني رجل غريب، فقال لي: ومن أنت؟ قلت: أنا أحمد ابن حنبل، فتقاصر ورجع وضمني إليه وقال: بالله أنت أبو عبد الله؟ ثم أخذ الأحاديث فلم يزل يقرؤها حتى أشكل عليه الظلام، فقال للبقال: هلمَّ بالمصباح، حتى خرج وقت صلاة المغرب[2] وكان يؤخرها.

---

(١) طبقات الحنابلة ١/ ١٧٥.

(٢) أي خرج أول وقتها.

قال عبد الله: فكان أبي إذا ذكر أنه نُوِّه باسمه عند عبد الرزاق بكى[1].

فهذا الخبر فيه مَثَلٌ من حرص الإمام أحمد على العلم، فمنذ أن وصل إلى اليمن بادر إلى سماع الأحاديث من الإمام عبد الرزاق الصنعاني ولم ينتظر حتى يستريح.

وفي الخبر مثل من تقدير أهل الفضل والتقدم في العلم والدين، فمنذ أن عرف عبد الرزاق أحمد بن حنبل ضمه وأكرمه وتواضع له.

وأخيرًا مثل من الخشية والخوف من الله تعالى حيث كان الإمام أحمد يبكي كلما ذكر حفاوة عبد الرزاق الصنعاني به، المبنيَّة على سبق شهرته إليه.

ومن أمثلة ما روي عن الحافظ أبي زرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي رحمه الله تعالى أنه قال: كل شيء قال الحسن [يعني البصري] قال رسول الله ﷺ وجدت له أصلا إلا أربعة أحاديث[2].

وهكذا فليكن العلم ! فقد قام أبو زرعة بحصر مرسلات الحسن البصري رحمه الله تعالى فوجد لها أصلا موصولا ما عدا أربعة أحاديث، وبهذا وأمثاله استحق أبو زرعة أن يكون من أبرز حفاظ زمانه، وجدير بهذا العالم الحافظ الناقد أن يحكم على الأحاديث وأن يعمل العلماء بحكمه.

ولقد كان رحمه الله تعالى محتفظا بحفظه حتى وهو يعاني من سكرات الموت كما قال أبو جعفر محمد بن علي ورَّاق أبي زرعة: حضرنا أبا زرعة بـ«ماشهران» وهو في السَّوق[3] وعنده أبو حاتم وابن وارة والمنذر بن شاذان وغيرهم، فذكروا حديث التلقين «**لقِّنوا موتاكم لا إله إلا الله**» واستحيَوا من أبي زرعة أن يلقنوه فقالوا: تعالوا نذكر الحديث، فقال ابن وارة حدثنا بندار حدثنا أبو عاصم حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن صالح، ولم يجاوز، والباقون سكتوا، فقال أبو زرعة وهو فى السَّوق: حدثنا بندار حدثنا أبو عاصم حدثنا عبد الحميد عن صالح بن أبي عَريب عن كثير بن مرة عن معاذ بن جبل قال قال رسول الله ﷺ: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»، وتوفي رحمه الله تعالى[4].

---

(١) طبقات الحنابلة ١/ ١٨١- ١٨٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٦٩.

(٣) يعني قد حضره الموت.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٧٧، تاريخ بغداد ١٠/ ٣٣٥.

وهكذا كان أبو زرعة حافظًا للأحاديث وهو في النزع الأخير مما يدل على أن علم السنة قد خالط روحه وهيمن على تفكيره، وكذلك كان الحفاظ الكبار رحمهم الله تعالى.

موقف للأصمعي رحمه الله:

ومن المواقف المذكورة في بيان أهمية علم النحو ما جاء عن أبي داود السنجي قال: سمعت الأصمعي[1] يقول: إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قوله عليه السلام «**من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**»[2].

فالأصمعي رحمه الله تعالى يبين أهمية تعلم اللغة العربية وخاصة فى رواية الحديث النبوي، فالحديث لا يكون مشكولاً كالقرآن غالبًا، فإذا نسبه راويه إلى رسول الله ﷺ ولحن فيه يكون كأنما نسب اللحن إلى رسول الله ﷺ، فيكون كأنما كذب عليه حيث نسب إليه قولاً لم يَقُلْه على نفس الوجه الذي أورده وإنما قاله باللغة العربية الفصحى.

ويكون الخطبُ أعظم حينما يخطئ القارئ خطأ يحيل المعنى لأنه بهذا يلبِّس الأمر على السامع ويوصله في الفهم إلى خلاف مقصود الحديث.

ولا شك أن هناك خطأ مشتركًا في عدم العناية بالسنة النبوية من هذا الجانب، فُدُور النشر لا تهتم كثيرًا بتشكيل الأحاديث النبوية، والقراء لا يهتمون بتعلم اللغة العربية، فيحصل بسبب ذلك اللحن البسيط واللحن الفاحش في رواية السنة، وخاصة من بعض الوعاظ الذين لم يتمكنوا من تعلم اللغة العربية.

موقف لأبي بكر أحمد الرمادي رحمه الله:

لقد بلغ من شدة اهتمام العلماء بحديث رسول الله ﷺ أنهم كانوا يستشفون بسماعه من المرض كما رُوي عن الإمام أبي بكر أحمد بن منصور الرمادي أنه كان إذا مرض يَستشفِي بأن يسمعوا عليه الحديث[3].

(١) هو العلامة الأديب أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيب، وهذا لقب أبيه عاصم.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٧٨.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٩٠.

فهل سمع طلاب العلم بأعجب وأجمل من هذا؟!

متى كان الاشتغال بالعلم شفاء من الأمراض!

إنه كذلك بالنسبة لهؤلاء العظماء الذين كان العلم هو قضيتَهم الكبرى وشغلهم الشاغل في حياتهم.

إن أعراض المرض تظهر على الجسم فتسبب أنواعًا من الآلام، ولكن حينما يُشغَل الفكر شغلاً كاملاً بشيء مَّا إلى حد الهيام به فإن تأثير ذلك على الأعصاب يكون أقوى من تأثير أعراض المرض، فينسى المريض تلك الآلام لأنه شُغل بشيء أكبر، كالمجاهد الذي يُجرح أو يقطع عضو من أعضائه فلا يحسّ بذلك كثيرًا بل يستمر في الجهاد وينسى آلام الجراح حتى تهدأ المعركة فتعود بعد ذلك الآلام.

من مواقف محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله:

من ذلك ما رُوي عن الإمام أبي عبد الله البخاري أنه قال: ما وضعت في كتابي «الصحيح» حديثًا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين[1].

فهذا تعظيم من هذا الإمام لحديث رسول الله ﷺ، وكونه يلتزم بأمر غير لازم شرعًا دليل على مكانة السنة النبوية في قلبه، وعلى قدر هذا التعظيم يضع الله تعالى القبول للعمل في الأرض، وهكذا تبوأ صحيح الإمام البخارى أعلى منزلة بين كتب السنة.

فكم اغتسل هذا الإمام وصلى من ركعات من أجل تدوين هذا السفر العظيم! وكم أفاده ذلك من عمل صالح زائد على ثواب العمل العلمي الكبير الذي قام به!

وكان لغزارة علمه ودقة فهمه يجتمع في درسه آلاف التلاميذ كما روى الحافظ الخطيب البغدادي من خبر محمد بن يوسف بن عاصم قال: رأيت لمحمد بن إسماعيل ثلاثة مستملين ببغداد، وكان اجتمع في مجلسه زيادة على عشرين ألف رجل[2].

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٠٢، تاريخ ٢/ ٩.

(٢) تاريخ بغداد ٢/ ٢٠.

ومن أمثلة شـهرة العلمـاء بكثرة الروايات ما ذكـره محمـد بن أبي حاتم ورَّاق الإمام البخاري حـيث يقول عن البخاري: سمعتـه يقول: دخلت بلْخ فسألوني أن أملي عليهم لكل من كتبت عنه حديثًـا فأمليت ألف حديث لألف رجل ممن كتبت عنهم.

قال: وسمعته قبل موته بشهر يقـول: كتبت عن ألف وثمانين شيخًا ليس فيهم إلا صاحب حديث، كانوا يقولون الإيمان قول وعمل يزيد وينقص[1].

فهذان مثالان على توسع الإمام البخارى في الأخذ عن الشيوخ وهذا يدل على كثرة مروياته.

وقولـه «كانوا يقـولون الإيمان قول وعـمل» أراد بذلك الرد على المرجئـة الذين يقولون الإيمان اعتقاد فقط، وهذا مثل من اهتمام الإمام البخاري بأمور العقيدة.

وقد ورد عنه أنه انتخب كتابه الجامع الصـحيح من ستمائة ألف حديث، وهذه الأحاديث كلها من مروياته.

وهذه نماذج يسيرة من أمـثلة كثيرة تدل على توسُّع علـماء الحديث في الرواية، وأصحاب مئـات الألوف عددهم كبير في مختلف العـصور، فكم هو الجهد الذي بذله هؤلاء العلماء في جمع هذه الروايات وتحريرها وحفظها أو حفظ بعضها!

ومن أمثلة اهتمام الإمام البخاري بتدوين السنة النبوية ما ذكره الإمام الذهبي عن محـمد بن يوسف البـخاري قال: كنت مع مـحمد بن إسـماعـيل - يعني الإمام البخاري - بمنزله ذات ليلة فأحصيـت عليه أنه قام وأسرج - يعني أضاء السراج - يستذكر أشياء يعلِّقها في ليلةٍ ثماني عشرة مرة[2].

فهـذا دليل على اهتمـام الإمام البـخاري بالعلم حـيث لا يكاد ينام إلا ويوقظه تفكيرٌ في مـسائل علمية فـينهض لتسجيلهـا، وبهذا التفكير المتـواصل بالعلم كان الإمام البخـاري أحفظ أهل زمانه، وعلى قدر اهتمام الإنـسان بالعلم يكون حفظه واستيعابه والإبداع فيه.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٩٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٠٤.

ومن ذلك ما ذكره هانئ بن النضر قال: كنا عند يوسف الفريابي بالشام، وكنا نتنزه فعل الشباب في أكل الفرصاد ونحوه[1]، وكان محمد بن إسماعيل معنا وكان لا يزاحمنا في شيء مما نحن فيه ويكبُّ على العلم[2].

فهذا مثل للاهتمام بالعلم، لأن التسلِّي بالأشياء المذكورة مضيعة للوقت، والوقت عند أبي عبد الله البخاري ونحوه من أكابر العلماء أغلى من جميع جواهر الدنيا، وبهذا الجد والعمل الدائب صار عمر الواحد منهم كأعمار عدد من الذين يضيعون بعض أوقاتهم.

من مواقف عبد الرحمن بن أبي حاتم وزملائه رحمهم الله:

ومن الأمثلة الرائعة لحفظ العلماء لأوقاتهم ما رواه علي بن أحمد الخوارزمي قال: سمعت عبد الرحمن بن أبي حاتم يقول: كنا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مَرَقة، كل نهارنا مقسَّم لمجالس الشيوخ، وبالليل: النسخ والمقابلة، قال: فأتينا يومًا أنا ورفيق لي شيخًا، فقالوا: هو عليل، فرأينا في طريقنا سمكًا أعجبنا فاشتريناه، فلما صرنا إلى البيت حضر وقت مجلسٍ، فلم يمكنا إصلاحه ومضينا إلى المجلس، فلم نزل حتى أتى عليه ثلاثة أيام، وكاد أن يتغير فأكلناه نيِّئًا، لم يكن لنا فراغ أن نعطيه من يشويه، ثم قال: لا يُستطاع العلم براحة الجسد[3].

فهذا مثل بليغ في الاجتهاد في طلب العلم وحفظ الوقت، فالأكل من الضرورات ومع ذلك لم يتركوا وقتًا لإعداده لاشتغالهم طوال الوقت بالسماع على الشيوخ والنسخ من الكتب.

من مواقف مسلم بن الحجاج رحمه الله:

ومن أمثلة اهتمام العلماء بالعلم ما رواه الخطيب البغدادي من حديث أحمد بن سلمة قال: عُقِد لأبي الحسين مسلم بن الحجاج مجلسٌ للمذاكرة، فذُكِرَ له حديثٌ لم يعرفه، فانصرف إلى منزله وأَوْقَد السراج وقال لمن في الدار: لا يدخلنَّ أحد منكم هذا البيت، فقيل له: أُهدِيتْ لنا سلة فيها تمر، فقال: قدِّموها لي، فقدموها

(١) يعني ما يتسلى به عادة كحب البطيخ.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٠٥.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٦٦، تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٣٠.

إليه، فكان يطلب الحديث ويأخذ تمرة تمرة يمضغها، فأصبح وقد فني التمر ووَجد الحديث[1].

فهذا اهتمام كبير من الإمام مسلم بمعرفة السنة، فقد شغله البحث عن هذا الحديث الذي لم يعرفه عن أموره الأخرى ليلة كاملة حتى وجده.

وبهذه الهمة العالية كان أثر هذا العالم الجليل وأمثاله واضحًا في حفظ السنة النبوية وتدوينها.

من مواقف أبي مسلم الكجِّي رحمه الله:

من ذلك ما أخرجه الخطيب البغدادي من خبر أبي بكر أحمد بن جعفر بن سلم قال: لما قدم علينا أبو مسلم الكجِّي[2] أملى الحديث في رحبة غسان، وكان في مجلسه سبعة مستملين يبلِّغ كل واحد منهم صاحبه الذي يليه، وكتب الناس عنه قيامًا بأيديهم المحابر، وحُسِب من حضر بِمِحْبَرة فبلغ ذلك نيفًا وأربعين ألف محبرة سوى النظارة[3].

وذكرها الإمام الذهبي وقال: إسنادها صحيح[4].

وهذا عدد كبير يدل على عزة العلماء ومكانتهم وشدة إقبال الطلاب عليهم، ولو تمت المقارنة مع الدراسة في هذا العصر لكان هؤلاء الطلاب الذين يجتمعون في درس واحد يعادلون طلاب جامعة من أكبر الجامعات.

موقف لأبي حاتم الرازي رحمه الله:

كان العلماء يتدرجون في العلم، فالقرآن أولاً، ثم السنة ثم العلوم الأخرى، ومن أمثلة ذلك ما رُوي عن عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: لم يَدَعْني أبي أشتغل في الحديث حتى قرأت القرآن على الفضل بن شاذان الرازي، ثم كتبت الحديث[5].

---

(١) تاريخ بغداد ١٣/ ١٠٣.

(٢) هو الإمام الحافظ إبراهيم بن عبد الله الكَجِّى صاحب السنن.

(٣) تاريخ بغداد ٦/ ١٢١-١٢٢.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٢٤.

(٥) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٦٥.

فهـذا الحافظ عبـد الرحمن بن الحـافظ أبي حاتم الرازي أراد التوجـه إلى تلقِّي الحديث وحـفظه من صغـره، وذلك لشهرة هذا العلم آنذاك، ولكـن أباه منعه من ذلك حتى يتقن القرآن الكريم على الشيوخ.

ويشبه اندفاع ابن أبي حاتم نحو علم الحديـث ما يتوجه إليه بعض المبتدئين في هذا العصر من طلب دراسـة مصطلح الحديث، وبعضهم لا يحـسن قراءة القرآن، وإن أحـسنوا ذلك فإنهم قـد أهملوا المرحلة الثـانية وهـي قراءة كـتب السنة على الشيوخ.

فهؤلاء المبتدؤون الذين يتوجهـون أولاً لدراسة مصطلح الحديث إن كان هدفهم من هذه الدراسة أن يجعلوا من أنفسهم حكامًا يحكمون على الأحاديث ويخَطِّئون العلماء فليـعلموا أنهم ليسوا على منهج صـحيح، وليدخلوا البيـوت من أبوابها، وليتدرجوا في التعلم كما سلك أهل العلم من قبلهم.

من مواقف علي بن أبي طاهر رحمه الله:

من الاهتمام بالعـلم العناية بالكتب العلمية، ومن أمثلة عنايـتهم بذلك ما رُوي عن سليـمان بن يزيـد: أن علي بن أبي طاهر لما رحل إلى الشـام وكتب الحـديث جعل كتبه في صندوق وقيَّره[1] وركب البحر، فاضطربت السـفينة وماجت فأُلقي الصندوق في البحر، ثم سكنـت السفينة، فلما خرج منهـا أقام على الساحل ثلاثًا يدعو الله، ثم سـجد في الليلة الثالـثة وقال: إن كان طلـبي ذلك لوجهك وحبِّ رسولـك فأغثـني بردِّ ذلك، فرفع رأسـه فإذا الصندوق مُلْقًى عـنده، فَقَـدِم وأقام برهة، ثم قصدوه لسماع الحديث فامتنع منه.

قال: فرأيت النبي ﷺ في منامي ومعه علي رضي الله عنه، فقال النبي ﷺ: يا علي[2] من عاملَ اللهُ بما عاملك به على شط البحر؟! لا تمتنع من رواية أحاديثي، قال: فقلت: قد تبت إلى الله، فدعا لي وحثني على الرواية[3].

---

(١) يعني طلاه بالقار حتى لا يصل إليه الماء. (٢) يعني علي بن أبي طاهر.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٤/٨٨.

فهذا مـثل من العناية بكتب العلم حيث حفظهـا علي بن أبي طاهر من وصول الماء إليها، وكان حفظه لها متقنًا حيث بقيت مدة في البحر ولم يتسرب الماء إليها، وهو بهذا قـد أخذ بجانب الحـذر والاحتياط ولم يغـتر بجانب السـلامة التي هي الغالب وهذا دليل على الحزم وبعد النظر.

وقد حـصل له بفقد كتـبه حزن شديد جـعله ينفرد من قافلتـه ويبقى على شط البحر ثلاثة أيام يدعـو الله تعالى أن يمنَّ عليه بعودة صندوق كتبـه، وكان في حال تلهف ورجاء بالغ ولم ييأس من رحمة الله تعالى، فأكرمه سبحانه واستجاب دعاءه وردَّ عليه كتبه سليمة لم يؤثر عليها البحر.

ولكنه رحمـه الله تعالى غـفل عن أهم مجـال من مجالات شكر المـنعم تبارك وتعالى على تلك النعمة، حيث امتنع عن نشر العلم، فتداركه الله سبحانه برحمته وهيأ له تلك الرؤيا الصالحة التي غيَّر بسببها منهجه واهتم بنشر العلم.

من مواقف أبي بكر الإسماعيلي رحمه الله:

ومن أمثلة حرص العلماء الشديد على طلب العلم حتى في سنٍّ مبكرة ما رُوي عن أبي بكر الإسـماعـيلي أنه قـال: لما ورد نعي محـمـد بن أيوب الرازي بكيت وصرخـت ومزقت القـميص ووضـعت التراب على رأسي، فـاجتـمع عليَّ أهلي وقالوا: مـا أصابك؟ قلت: نُعِي إليَّ محمـد بن أيوب، منعتموني الارتحـال إليه، فسلَّوني وأذنوا لي في الخـروج إلى «نسا» إلى الحسن بن سفـيان، ولم يكن هاهنا شعرة - وأشار إلى وجهه-[1].

فهـذا مثل من الشـوق البالغ والتلهف على لقـاء الشيـوخ، فقد كـان أبو بكر الإسماعيلي يستأذن أهله ويلحُّ عليهم في السفر إلى محمد بن أيوب ويأبون عليه، ولما مات ابن أيوب اعتبر موته مصيبـة كبرى حلت به حتى أفزع من حوله بصياحه عليه، وقد كـان هذا المنظر المؤثر شافعًا له ليأذن له أهله في السـفر إلى الحسن بن سفـيان، وقـد كان كـما ذكـر الذهبي أقل من مـحمـد بن أيوب الرازي في علو الإسناد، وكان أهل العلم يهـتمون بذلك، لأنه كلمـا قل رجال الإسناد كان أكـثر مظنة للسلامة.

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٩٥ - ٢٩٦.

وكون هذا الشوق الكبير يصدر من طلاب العلم وهم في أول سن الشباب دليل على ارتفاع مستوى التعليم في تلك العصور وسمو الأهداف عندهم، حيث إن المظنون في من كانوا في تلك السنّ الميل نحو متاع الدنيا ولهوها.

من مواقف محمد بن يعقوب السناني رحمه الله:

قال أبو عبد الله الحاكم: سمعت الأصم[1] وقد خرج ونحن في مسجده، وقد امتلأت السكة من الناس في ربيع الأول سنة أربع وأربعين وثلاثمائة، وكان يملي عشية كل يوم اثنين من أصوله، فلما نظر إلى كثرة الناس والغرباء وقد قاموا يُطَرِّقون له، ويحملونه على عواتقهم من باب داره إلى مسجده، فجلس على جدار المسجد، وبكى طويلاً، ثم نظر إلى المستملي فقال: اكتب: سمعت محمد ابن إسحاق الصَّغاني يقول: سمعت الأشجّ، سمعت عبد الله بن إدريس يقول: أتيت يومًا باب الأعمش بعد موته فدققت الباب، فأجابتني جارية عرفتني: هاي هاي، تبكي: يا عبد الله، ما فعل جماهير العرب التي كانت تأتي هذا الباب؟ ثم بكى الكثير، ثم قال: كأني بهذه السكة لا يدخلها أحد منكم، فإني لا أسمع وقد ضعف البصر، وحان الرحيل وانقضى الأجل[2].

ففي هذا الخبر مثل على كثرة طلاب العلم وازدحامهم حول بيوت الشيوخ ومساجدهم، كما أنه شاهدٌ على ما كان يقوم به طلاب العلم من احترام العلماء وإعزازهم.

وماذا يريد ذلك الجم الغفير من الحافظ محمد بن يعقوب؟ هل لديه مال يصيبون منه؟ أو جاه دنيوي يتوصلون به إلى ما يريدون من مناصب الدنيا؟

بلى، إن لديه كنز الدنيا والآخرة.

إن لديه ميراث النبي ﷺ، فلا عجب أن ازدحم حول بيته ومسجده طلاب العلم الوافدون من الآفاق.

---

(١) هو الإمام محمد بن يعقوب السناني النيسابوري.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٥/٤٥٨ - ٤٥٩.

من مواقف أبي علي النيسابوري رحمه الله:

ومن ذلك ما رُوي عن أبي علي الحسين بن علي النيسابوري قال: قدمت بغداد على الفريابي وقد قطع الرواية فبكيت بين يديه، فما حدثني، ورأيته حسرة[1].

فهذا مثل من الاهتمام العالي بالعلم إلى الحد الذي يصل إلى حد البكاء حسرة على فواته.

إن بكاء الرجال ليس بالأمر اليسير، وإنما يدفع إليه في مثل هذه الأحوال تأثر نفسي ضاغط من الأسى والحزن على فوات شيء محبوب، وهذا دليل واضح على أهمية تحصيل العلم عند هذا العالم الجليل.

من مواقف أبي نعيم الأصبهاني رحمه الله:

ومن ذلك ما ذكره أحمد بن محمد بن مردويه عن الحافظ أبي نعيم الأصبهاني[2] قال: كان أبو نعيم في وقته مرحولا إليه، ولم يكن في أفق من الآفاق أسند ولا أحفظ منه، كان حُفَّاظ الدنيا قد اجتمعوا عنده، فكان كل يوم نوبة واحد منهم، يقرأ ما يريده إلى قريب الظهر، فإذا قام إلى داره ربما كان يُقرأ عليه في الطريق جزء، وكان لا يضجر، لم يكن له غداء سوى التصنيف والتسميع[3].

فهذا مثل من العز الذي كان فيه العلماء، وإنما نالوا ذلك العز وأقبل طلاب العلم عليهم ذلك الإقبال الشديد لقيامهم بخدمة سنة رسول الله ﷺ تعلمًا وحفظًا وتدوينًا وتعليمًا، وكلما تأخرت وفاة العالم كان أكثر عزًا وأقبل عليه الكبار والصغار لعلو إسناده، وقد جاء في رواية عن حمزة بن العباس العلوي قال: كان أصحاب الحديث يقولون: بقي أبو نعيم أربع عشرة سنة بلا نظير لا يوجد شرقًا ولا غربًا أعلى منه إسنادًا ولا أحفظ منه[4].

وبهذا الحفظ القوي المتقن لدى العلماء حتى مع تقدم السن، وبالرغبة الشديدة في السماع من الشيوخ حُفظت السنة النبوية، وأصبحت حية ماثلة في أفكار طلاب العلم، لمداومة التعلم والمذاكرة والتعليم.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/ ٥٦.
(٢) هو الحافظ أحمد بن عبدالله الأصبهاني.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٧/ ٤٥٩.
(٤) سير أعلام النبلاء ١٧/ ٤٥٩.

من مواقف أبي الفضل محمد بن طاهر رحمه الله:

ومن الأخبار الجيدة في بيان شوق طلاب العلم وحرصهم الشديد على التحصيل العلمي ما رُوي عن الإمام أبي الفضل محمد بن طاهر قال: كنت يومًا أقرأ على أبي إسحاق الحبَّال جزءًا فجاءني رجل من أهل بلدي وأسرَّ إليّ كلامًا قال فيه: إن أخاك قد وصل من الشام، وذلك بعد دخول الترك بيت المقدس وقَتْل الناس بها، فأخذت في القراءة فاختلطت عليَّ السطور ولم يمكني أن أقرأ، فقال أبو إسحاق: مالك؟ قلت: خير، قال: لابد أن تخبرني، فأخبرته، فقال: وكم لك لم تر أخاك؟ قلت: سنين، قال: ولِمَ لا تذهب إليه؟ قلت: حتى أُتِمَّ الجزء، قال: ما أعظم حرصكم يا أهل الحديث! قد تَمَّ المجلس، وصلى الله على محمد، وانصرف[1].

فهذا مثل من حرص طلاب العلم الشديد على العلم، فابن طاهر قد غلبت عليه الفرحة بقدوم أخيه الذي كأنما ولد من جديد، بسلامته من الحروب التي جرت آنذاك في الشام بين المسلمين وأعدائهم، وكان في شوق بالغ للقائه فغلب عليه ذلك حتى خلط في قراءته، ومع ذلك استمر في الدرس، وهذه الصورة الحية من الصور التي تبين لنا سبب تفوق طلاب العلم الظاهر في العصور السابقة في الحفظ والفهم، فهم غير مجبورين على التعلم، ولا مسوقين إليه بحكم العادة أو خوف الملامة من الأهل والأقارب بتركه، وإنما أقبلوا عليه بشغف بالغ وشوق قاهر غلب على مشاعرهم حتى نَحْوَ والديهم وأقاربهم أحيانًا، فأنتجوا تلك المؤلفات العظيمة، وعمروا عصورهم بالعلم الزاهر الحي.

وكان ابن طاهر كثير الرحلة في طلب الحديث حتى إنه سافر من أجل سماع حديث واحد كما قال عن نفسه: رحلت من طوس إلى أصبهان لأجل حديث أبي زرعة الرازي الذي أخرجه مسلم عنه، ذاكرني به بعض الرحالة بالليل، فلما أصبحت سرت إلى أصبهان ولم أحلل عني حتى دخلت على الشيخ أبي عمرو، فقرأته عليه عن أبيه عن القطان عن أبي زرعة، ودفع إليَّ ثلاثة أرغفة وكُمَّثْراتين،

(١) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٦٧.

فما كان لي قوت تلك الليلة غيره، ثم لزمته إلى أن حصَّلت ما أريد، ثم خرجت إلى بغداد فلما عدت كان قد توفي[1].

من مواقف أبي عبد الله محمد الحميدي رحمه الله:

من أمثلة اجتهاد العلماء في تدوين السنة ما ذكره يحيى البناء قال: كان الحميدي من اجتهاده ينسخ بالليل في الحر، فكان يجلس في إِجَّانةٍ[2] في ماء يتبرد به[3].

فهذا العالم الجليل أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي يكتب العلم في شدة الحر ويتَّقي الحر بالجلوس في الماء، فكيف بأهل العلم اليوم الذين سُخِّرت لهم الوسائل التي تحيل الصيف ربيعًا! ومع توافر هذه الوسائل وحصول الراحة الكبيرة فإن إنتاج علماء اليوم أقلُّ بكثير من إنتاج علماء العصور السابقة، فلابد من دراسة الأسباب التي سببت انخفاض الإنتاج العلمي في هذا العصر.

موقف لأبي عبد الله محمد المازري رحمه الله:

مما يستحق الإعجاب والثناء ما قام به الإمام أبو عبد الله محمد بن علي المازري من دراسة علم الطب إلى جانب تفوقه في العلوم الدينية، قال الإمام الذهبي: قيل إنه مرض مَرْضَةً فلم يَجِدْ من يعالجه إلا يهودي، فلما عوفي على يده قال: لولا التزامي بحفظ صناعتي لأعدَمْتُك المسلمين، فأثَّر هذا عند المازري فأقبل على تعلم الطب حتى فاق فيه، وكان ممن يفتي فيه كما يفتي في الفقه[4].

وهذا الخبر يصور لنا حقد الأعداء على المسلمين وخاصة على علماء الدين الذين يعتقدون أنهم سبب قوة المسلمين، وامتداد حيويتهم ووعيهم على مر الأجيال.

فمِنْ منطلق هذا الحقد الدفين صرح ذلك الطبيب اليهودي أنه يود قتل ذلك العالم الجليل حتى يضر بقتله المسلمين.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٦٦، والحديث المذكور هو قول رسول الله ﷺ **«اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحوُّل عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك»** كما ذكر محقق الكتاب.

(٢) الإجَّانة بتشديد الجيم إناء يغسل فيه الثياب. (٣) سير أعلام النبلاء ١٩/ ١٢٢.

(٤) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٠٥ - ١٠٦.

وقد دفع ذلك هذا العالم إلى أن تعلم الطب حتى فاق فيه وأصبح مرجعًا للأطباء، وقد قيل عنه إنه أحد الأذكياء الموصوفين فساعده ذكاؤه على تعلم الطب والبراعة فيه، مع انشغاله بالعلوم الأخرى.

وإن في هذا الخبر درسًا بليغًا للمسلمين كي يصلوا إلى كفاية أنفسهم في مختلف العلوم حتى لا يحتاجوا إلى غيرهم، بل إن المفترض فيهم أن يكونوا أئمة وهداة في كل علم نافع، وأن يسخِّروا علمهم للدعوة إلى دينهم.

من مواقف أبي بكر محمد بن موسى الحازمي رحمه الله:

ومن أمثلة الاهتمام بالعلم ما رُوي عن ابن النجار قال: سمعت أبا القاسم المقرئ جارنا يقول - وكان صالحًا -: كان الحازمي رحمه الله في رباط البديع فكان يدخل بيته في كل ليلة ويطالع ويكتب إلى طلوع الفجر، فقال البديع للخادم: لا تدفع إليه الليلة بزرًا للسراج[1] لعله يستريح الليلة.

قال: فلما جنَّ الليل اعتذر إليه الخادم لأجل انقطاع البزر، فدخل بيته وصفَّ قدميه يصلي ويتلو إلى أن طلع الفجر، وكان الشيخ قد خرج ليعرف خبره فوجده يصلي[2].

ففي هذا الخبر مثل من الاهتمام بالعلم وحفظ الوقت وعدم شغله إلا بالأمور الجدية، فهذا العالم الجليل مشغول طول الليل بالكتابة في العلم، ولما فقد المصباح لم يسترح في فراشه بل عدل إلى العبادة بالصلاة، وكان يرى أن الاشتغال بالعلم أفضل لأن ذلك مما يتعدى نفعه للآخرين، فلما حيل بينه وبين الكتابة عدل إلى صلاة الليل، وكل ذلك عبادة وعمل صالح، وإنما تتفاوت درجات العمل بمقدار كثرة نفعه وإخلاص فاعله.

إن النفوس السامية التي شغلها الهمّ بالمطالب العالية لا تهنأ بلذيذ النوم، ولا تجد سعادتها في الراحة، وإنما تجد سعادتها في مواصلة العمل الذي يدفع بها نحو الوصول إلى أهدافها العليا.

---

(١) يعني الوقود.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٦٩.

من مواقف أبي الوفاء ابن عقيل رحمه الله:

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن رجب أن أبا الوفاء علي بن عقيل قال في فنونه: قال حنبلي - يعني نفسه - أنا أقْصرُ بغاية جهدي أوقات أكلي حتى أختار سَفَّ الكعك وتَحَسِّيه بالماء على الخبز لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ توفرًا على مطالعةٍ أو تسطير فائدة لم أدركها فيه[1].

فهذا مثل بليغ في حفظ الوقت وشغله بما ينفع، وإذا كان هذا العالم وأمثاله يفكرون في اختصار وقت الأكل فإنهم لن يضيعوا أوقاتهم الأخرى بما لا فائدة فيه ولا حاجة إليه من نوم أو كلام أو كسل.

من مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية:

اشتهر شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية بقوة الحفظ وسرعة التذكر، فكان وهو يتحدث كأنما يقرأ من عدد من الكتب، وكان يكتب النقول في كثير من مؤلفاته من ذاكرته.

وفي ذلك يقول الحافظ ابن رجب فيما نقله عن الحافظ الذهبي: وقد كتب الذهبي في تاريخه الكبير للشيخ ترجمة مطولة، وقال فيها: وله خبرة تامة بالرجال، وجرحهم وتعديلهم، وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث، وبالعالي والنازل، والصحيح والسقيم، مع حفظه لمتونه، الذي انفرد به، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته، ولا يقاربه، وهو عجيب في استحضاره، واستخراج الحجج منه، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة، والمسند، بحيث يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث.

وقال: ولما كان معتقلاً بالإسكندرية التمس منه صاحب سبتة أن يجيز لأولاده، فكتب لهم في ذلك نحوًا من ستمائة سطر، منها سبعة أحاديث بأسانيدها، والكلام على صحتها ومعانيها، وبحث وعمل ما إذا نظر فيه المحدث خضع له من صناعة الحديث. وذكر أسانيده في عدة كتب. ونَبَّه على العوالي. عمل ذلك كله من حفظه، من غير أن يكون عنده ثَبَت أو من يراجعه.

---

(١) طبقات الحنابلة ٣/١٤٦.

ولقد كان عجـيبًا في معرفة علم الحـديث. فأما حفظه متون الـصحاح وغالب متون السنن والمسند: فما رأيت من يُدانيه في ذلك أصلا.

قال: وأما التفـسير فمسلَّم إليه. وله من استـحضار الآيات من القرآن - وقت إقامة الدليل بها على المسألة - قوة عجيبة. وإذا رآه المقرئ تحير فيه. ولفرط إمامته في التـفسيـر وعظم اطلاعه يـبين خطأ كثـير من أقوال المـفسرين. ويُـوهى أقوالاً عديدة. وينصر قولاً واحدًا، موافقًا لما دل عليه القرآن والحديث. ويكتب في اليوم والليلة من التـفسيـر، أو من الفقـه، أو من الأصلين، أو من الرد على الفلاسـفة والأوائل نحوًا من أربعة كراريس أو أزيد.

قلت: وقد كتـب «الحموية» في قعدة واحـدة. وهي أزيد من ذلك. وكتب في بعض الأحيان في اليوم ما يُبيَّض منه مجلد[1].

***

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٤/ ٣٩١.

توجيهات ومواقف
في
بذل الجهد فى حفظ السنة

لقد حظِيَتْ السنة النبـوية بجهود ضخمـة من علماء الإسلام في حفظ مـتونها وأسانيدها على مَرِّ العصور، وقد دوَّن علمـاء التراجم أخبار أولئك العلماء في قوة الحفظ وسرعة التذكر.

والمقصود من عرض هذه الأخبار أمران:

الأول: الإشادة بالجـهود الضخمـة التي بذلها أولئك العلماء في الحـفظ، حيث يحتاج ذلك إلى وقت طويل، وإجهاد فكري، ثم يحتـاج الأمر إلى جهد متواصل في التذكر والمذاكرة حتى يستطيعوا الاحتفاظ بتلك الكمية الكبيرة من النصوص في ذاكرتهم.

والثانى: إبراز نماذج من عباقـرة الأمة الإسلامية الذين ضـربوا أروع الأمثال في التفوق العلمي المبني على حدة الذكاء وقوة الحافظة وسرعة الذاكرة.

وإن من أهم مـا يدفع إلى عرض هذه النـماذج مـا يوجد في بعض الأوسـاط العلمية من التمثيل للأذكياء والعباقرة بمفكري بلاد الغرب.

وإن من الدوافع التي دفعت هؤلاء الكتاب إلى الاستشهاد بمفكري الغرب كونهم يجدون أسماءهم مدونة في الكتب المؤلفة في هذا الموضـوع، ويرجعون إليها بسهولة لِمَا حَظِيَتْ به من خدمة وتسهيل، بينما لا يجدون ذلك بسهولة في الكتب الإسلامية.

وإنه ينبغي أن نسـتفتح هذه النمـاذج بذكر أمثلة من تفوق الصـحابة رضي الله عنهم وعلماء القرون المفضلة بقوة الحافظة وسرعة التذكر.

من أخبار عائشة رضي الله عنها:

من ذلك ما رُوي عن هشام بن عروة بن الزبير رحمه الله وأباه ورضي عن جده قال: لقد صـحبت عائشة فـما رأيت أحدا قط كان أعلم بآية نزلـت، ولا بفريضة ولا بسنة ولا بشعر، ولا أروى له ولا بيوم من أيام العرب ولا بنسب ولا بكذا ولا بكذا، ولا بقـضاء ولا طب مـنها، فـقلت لهـا: يا خالة الطـبُّ من أين عَلِمتِـه؟

فقالت: كنت أُمْرض فَيُنعت لي الشيء، ويُمرَض المريض فينعت له، وأسمع الناس يَنعت بعضهم لبعض فأحفظه[1].

وكذلك قال عروة عنها: ربما روت عائشة القصيدة ستين بيتًا والمائة بيت[2].

ولهذا فإنه ليس غـريباً أن تكون أم المؤمنين عائشة رضي الله عنـها من المكثرين من رواية الحديث النبوي بإتقان وضبط.

من أخبار زيد بن ثابت رضي الله عنه:

ومن أمثلة تفوق الصحابة رضي الله عنهم في هذا المجال ما أخرجه أبو عبد الله الحاكم من حـديث خارجة بن زيد قال: قـال زيد بن ثابت رضي الله عنه: أمرني رسول الله ﷺ فتعلمت له كتابة اليهود، وقال: إني والله ما آمن يهود على كتابي، فتعلمتـه، فلم يمر بي نصف شهر حتى حذقتـه، قال: إني كنت أكتب له إذا كتب وأقرأ له إذا كُتب إليه.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح وأقره الذهبي[3].

وقد أخرج هذا الحديث الإمام البخاري تعليقا[4].

وهذا الخبـر يدل على حدة زكـاء زيد بن ثابت وقوة حـافظته حيث تـعلم لغة اليهود في نصف شهر.

ومن مواقفه رضي الله عنه في ذلك قيامه بجمع القرآن في المصحف بعد أن كان متفرقا، كما جاء في رواية الإمام البـخاري من حديث عبيد بن السبَّاق «أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أرسل إليَّ أبو بكر الصـديق مقتلَ أهل اليمامة فـإذا عمر ابن الخطاب عنده، قال أبو بـكر رضي الله عنه: إن عمر بن الخطاب أتاني فـقال: إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقـراء القرآن، وإني أخشى أن يستحرَّ القتل بالقراء بالمواطن فيذهبَ كـثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القـرآن، قلت لعمر:

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ١٨٣.

(٢) طبقات ابن سعد ٨/ ٧٢-٧٣.

(٣) المستدرك ١/ ٧٥.

(٤) صحيح البخاري، الأحكام رقم ٧١٩٥ (١٣/ ١٨٥).

كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر.

قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبَّع القرآن فاجمعه [قال:] فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ماكان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتبَّعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال»[1].

وجمْع القرآن الكريم في مصحف كان من أعظم الأعمال الإسلامية التي تمت في عهد أبي بكر رضي الله عنه بأمره، وقد اشترك في هذا الموقف الكبير عمر بن الخطاب الذي أشار على أبي بكر بذلك وألح عليه فيه وزيد بن ثابت الذي قام بهذا العمل رضي الله عنهم أجمعين.

وفي قول أبي بكر لزيد: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ أربعة أمور ترشح زيدًا لهذا التكليف الكبير: الأول أنه رجل شاب، وسِنُّ الشباب أفضل مراحل العمر فيما يتعلق بالحفظ وقوة الذاكرة، وهذا هو المؤهل الأكبر لجمع القرآن، وإن كان سِنُّ الكهولة والشيخوخة أفضل فيما يتعلق بالفكر والتخطيط والإدارة.

الثانى: أنه عاقل، وكمال العقل مؤهل مهم لجميع الأعمال الكبيرة.

الثالث: الأمانة وهي شرط أساسي لنجاح أي عامل وقد ذكر ذلك بقوله: «لا نتَّهمك».

الرابع: الكفاءة والخبرة وهي أيضًا شرط أساسي، وقد ذكرها بقوله: «وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ» يعني أنه خبير بذلك، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى

---

(١) صحيح البخاري/ فضائل القرآن/ ب٣ (عمدة القاري ٢٠/١٦)، والعسُب جريد النخل والمراد الجزء العريض منه واللخاف الحجارة الرقيقة وفي رواية أخرى للبخاري والرقاع وهي تكون من الورق أو الجلد ونحوه.

هذين الأمرين على لسان ابنة شعيب حينما وصفَتْ موسى عليه السلام بذلك بقولها: ﴿ **قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ** ﴾ [القصص: ٢٦] فالكفاءة في ذلك العمل تعني قوة البدن وقد توافرت في موسى عليه السلام مع اتصافه بالأمانة، كما ذكرهما الله سبحانه وتعالى على لسان يوسف عليه السلام حين قال لملك مصر: ﴿ **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾ [يوسف: ٥٥] فالحفظ هو الأمانة، والعلم هو الكفاءة والخبرة.

من أخبار أبى هريرة رضي الله عنه:

إن أبرز حفاظ الإسلام أبو هريرة الدوسي رضي الله عنه محدث الأمة الأكبر وحافظها الأول، حيث قد فَرَّغ وقته لملازمة رسول الله ﷺ وحفظ أحاديثه، ولم ينشغل عن ذلك بمتابعة أمور الدنيا، بل كان يكتفي من الطعام بِلُقَيمات يُقمْن صُلبه، وفضَّل أن يبقَى في الصفَّة مع المساكين ليتفرغ لملازمة النبي ﷺ واستيعاب أكبر قدر من أحاديثه، فكان بذلك أكثر الصحابة حفظًا للسنة النبوية ولم يقاربه في ذلك أحد، وبلغ عدد تلاميذه الذين رَوَوا عنه أكثر من ثمانمائة.

ومع كثرة روايته فإنه كان حافظًا متقنًا لم تتغير روايته على مرِّ السنين، ومن أدلة ذلك مارُوي عن أبي الزعيزعة كاتب مروان بن الحكم: أن مروان أرسل إلى أبي هريرة فجعل يسأله، قال: وأجلسني خلف السرير وأنا أكتب، حتى إذا كان رأس الحول دعا به، فأقعده من وراء الحجاب، فجعل يسأله عن ذلك الكتاب فما زاد ولا نقص ولا قدَّم ولا أخرَّ.

ذكره الإمام الذهبي وقال: هكذا فليكن الحفظ[1].

وإذا كان كذلك فلا عجب في أن يكون قد حفظ أكثر من خمسة آلاف حديث بمجرد سماعها، واحتفظ بها في ذاكرته إلى أن وافاه الأجل، مادام الله تعالى قد وهبه هذا الحفظ القوي وسرعة التذكر.

وكانت له مقدرة فائقة على سرد الأحاديث النبوية مما يدل على قوة حفظه وتمكنه من مروياته، ومن أمثلة ذلك ما رواه مكحول الشامي قال: تواعد الناس

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٩٨.

ليلةً إلى قبة من قباب معاوية، فاجتمعوا فيها فقام فيهم أبو هريرة يحدثهم عن رسول الله ﷺ حتى أصبح[1].

وقد كان لكثرة أحاديثه مثار إعجاب الصحابة والتابعين، وإن كان بعض التابعين يستنكر كونه أكثر روايةً من كبار الصحابة، ولقد دافع عنه في ذلك بعض كبار الصحابة، كما جاء في خبر رواه ابن إسحاق عن محمد بن إبراهيم عن أبي أنس مالك بن عامر قال: كنت عند طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه فدخل عليه رجل فقال: يا أبا محمد والله ما ندري هذا اليماني أعلم برسول الله ﷺ أم أنتم؟ أم هو يقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل؟ -يعني أبا هريرة- فقال طلحة: والله ما نشك أنه سمع من رسول الله ﷺ ما لم نسمع وعلم ما لم نعلم، إنا كنا قومًا أغنياء لنا بيوت وأهلون، كنا نأتي نبي الله ﷺ طرفي النهار ثم نرجع، وكان أبو هريرة رضي الله عنه مسكينًا لا مال له ولا أهل ولا ولد، إنما كانت يده مع يد النبي ﷺ وكان يدور معه حيث دار، ولا نشك أنه قد علم ما لم نعلم وسمع ما لم نسمع، ولم يتهمه أحد منا أنه تَقَوَّل على رسول الله ﷺ ما لم يقل.

أخرجه أبو عبد الله الحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي[2].

ولقد اعترف له بعض الصحابة بأنه أعلم الناس بالسنة كما جاء في خبر رواه الوليد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه مرَّ بأبي هريرة رضي الله عنه وهو يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «**من تبع جنازة فله قيراط**» فقال: انظر ما تحدث عن رسول الله ﷺ، فقال أبو هريرة فأخذه بيده إلى عائشة رضي الله عنها فقال لها: أنشدُك الله هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من تبع جنازة. . . .» الحديث فقالت: اللهم نعم.

فقال أبو هريرة: لم يكن يشغلني عن رسول الله ﷺ غرس الوَدِيِّ[3] ولا صفقٌ بالأسواق، وإنما كنت أطلب من رسول الله ﷺ كلمة يعلمُنيها أو أكلة يطعمُنيها.

فقال ابن عمر: كنتَ ألزمنا لرسول الله ﷺ وأعلمنا بحديثه.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٩٩.

(٢) المستدرك ٣/ ٥١٢.

(٣) يعني فراخ النخل.

ذكره الإمام الذهبي وقال: رواته ثقات[1].

فعبد الله بن عمر استغرب منه ذلك الحديث الذي لم يسمعه من غيره من الصحابة فأراد أن يتثبت منه ولم يكن في شك من حفظ أبي هريرة ولا أمانته، فلما أيَّدَتْه في سماع ذلك الحديث عائشة اعترف لأبي هريرة بأنه أعلم الصحابة بالسنة.

ولقد جرت له قصة مع بعض مشيخة الصحابة دلَّت على سعة علمه وقوة حفظه وذاكرته، وذلك فيما روى محمد بن عمارة بن عمرو بن حزم أنه قعد في مجلسٍ فيه أبو هريرة وفيه مشيخة من أصحاب رسول الله ﷺ، بضعةً عشر رجلا، فجعل أبو هريرة يحدثهم عن النبي ﷺ بالحديث فلا يعرفه بعضهم، ثم يتراجعون فيه، فيعرفه بعضهم، ثم يحدثهم بالحديث فلا يعرفه بعضهم ثم يعرفه، حتى فعل ذلك مرارا.

قال: فعرفت يومئذ أنه أحفظ الناس عن رسول الله ﷺ[2].

ولقد كان حفظ أبي هريرة القوي وذاكرته الجيدة من بركة رسول الله ﷺ كما أخرج الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله إني سمعت منك حديثًا كثيرا فأنساه، قال: ابسط رداءك، فبسطته فغرف بيده فيه ثم قال: ضمه، فضممته فما نسيت حديثًا بعد[3].

من أخبار عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

ومن أخبار الصحابة رضي الله عنهم في سعة العلم وقوة الحفظ ما رواه الحافظ أبو نعيم من حديث أبي صالح قال: لقد رأيت من ابن عباس مجلسًا لو أن جميع قريش فخرت به لكان لها فخرا، لقد رأيت الناس اجتمعوا حتى ضاق بهم الطريق، فما كان أحد يقدر على أن يجيء ولا أن يذهب، قال: فدخلت عليه فأخبرته بمكانهم على بابه، فقال لي: ضع لي وَضوءًا، قال: فتوضأ وجلس وقال: اخرج وقل لهم: من كان يريد أن يسأل عن القرآن وحروفه وما أراد منه فليدخل.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٦١٦.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٦١٧.
(٣) صحيح البخاري رقم ٣٦٤٨، المناقب (٦/ ٦٣٣).

قال: فخـرجت فآذنتهم، فدخلوا حـتى ملؤوا البيت والحجرة، فـما سألوه عن شيء إلا أخبـرهم به، وزادهم مثل مـا سألوا عنه أو أكـثر، ثم قـال: إخوانكم، فخرجوا.

ثم قال: اخـرج فقل: من أراد أن يسـأل عن تفسـير القرآن وتأويله فـليدخل، قال: فخرجت فـآذنتهم، فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجـرة فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به، وزادهم مثل ما سألوا عنه أو أكثر، ثم قال: إخوانكم، فخرجوا.

ثم قال: اخـرج فقل: من أراد أن يسـأل عن الحلال والحـرام والفقه فـليدخل فخرجت فقلت لهم: قال: فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به، وزادهم مثله، ثم قال: إخوانكم، فخرجوا.

ثم قال: اخـرج فقل: من أراد أن يسأل عن الـفرائض وما أشـبهها فليدخل، قال: فخرجت فـآذنتهم، فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجـرة فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به، وزادهم مثله، ثم قال: إخوانكم، فخرجوا.

ثم قال: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن العربية والشعر والغريب من الكلام فليدخل، قال: فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به، وزادهم مثله، قال أبو صـالح: فلو أن قريشًا كلها فخـرت بذلك لكان فخرا، فما رأيت هذا لأحد من الناس[1].

فهذا حبر الأمة عبـد الله بن عباس رضي الله عنهما الذي جمع بين هذه العلوم المتنوعة وتفوق فيها كلها، مما يدل على قوة حافظته وحدة ذكائه.

ومن شواهد سعة عـلمه ما أخرجه الحاكم من حديث أبـي وائل قال: حججت أنا وصـاحب لي، وابن عبـاس على الحج [يعني أميـرا] فجـعل يقرأ سـورة النور ويفـسرها فـقال صـاحبي: يا سـبحـان الله ماذا يخـرج من رأس هذا الرجل، لو سمعَتْ هذا الترك لأسلمَتْ. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي[2].

(١) حلية الأولياء ١/ ٣٢٠ - ٣٢١، البداية والنهاية ٨/ ٣٠٢.
(٢) المستدرك ٣/ ٥٣٧.

ومع سعة علمه فإنه كان غوَّاصا على دقائق المسائل ولطائف المعاني، ومن شواهد ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث عكرمة أن عليا رضي الله عنه حرَّق قومًا فبلغ ابن عباس فقال: لو كنت أنا لم أحرِّقهم لأن النبي ﷺ قال: «**لا تُعذِّبوا بعذاب الله**» ولقتلتهم كما قال النبى ﷺ: «**من بدَّل دينه فاقتلوه**»(١).

وذكره الإمام الذهبي من طريق آخر عن عكرمة وزاد فيه: فبلغ ذلك عليًّا فقال: ويح ابن أم الفضل، إنه لغواص على الهنَات(٢).

وهذه كلمة تدل على إعجاب عليٍّ بدقة علم ابن عباس وعمقه، حيث يغوص على النوادر والغرائب من العلم.

ومما يشهد لغزارة علم ابن عباس ما رُوي عن طاووس قال: أدركت نحوًا من خمسمائة من الصحابة إذا ذاكروا ابن عباس فخالفوه لم يزل يُقَرِّرهم حتى ينتهوا إلى قوله(٣).

ولقد أشاد العلماء بعلم ابن عباس، ومن ذلك كلمات صدرت من أحد كبار العلماء في المدينة وهو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود حيث يقول: كان ابن عباس قد فات الناس بخصال، بعلم ماسبق، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم ونسب ونائل، وما رأيت أحدًا أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ، ولا بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه، ولا أعلم بما مضى، ولا أثقب رأيًا فيما احتيج إليه منه، ولقد كنا نحضر عنده فيحدثنا العشية كلها في المغازي، والعشية كلها في النسب، والعشية كلها في الشعر(٤).

من أخبار ابن شهاب الزهري رحمه الله:

قال الإمام الليث بن سعد عن الإمام الزهري: كان ابن شهاب يقول: ما استودعت قلبي شيئًا قط فنسيته(٥).

---

(١) صحيح البخاري / الجهاد رقم ٣٠١٧.
(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٤٦.
(٣) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٥١.
(٤) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٥٠.
(٥) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٣٢.

وكذلك مـا رواه الإمام مالك قـال: حدثنا الزهري بحديث طـويل فلم أحفظه فسألتـه عنه، فقال: أليس قد حدثـتكم به؟ قلنا: بلى، قلت: كنت تكتب؟ قال: لا، قلت: أم كنت تستعيد؟ قال: لا[1].

وعن معمر بن راشد أن الزهري قال: ما قلت لأحد قط أعِدْ علي[2].

ومن ذلك ما ذكـره الحافظ ابن كثـير من رواية الحـافظ ابن عساكـر عن الإمام الزهري أنه قال: أصاب أهل المدينة جهد شـديد فارتحلت إلى دمشق، وكان عندي عيال كثيرة، فجئت جامعها فجلست في أعظم حلقة، فإذا رجل قد خرج من عند أمير المؤمنين عبد الملك فقال: إنه قد نزل بـأمير المؤمنين مسألة، وكان قد سمع من سعيـد بن المسيب فيهـا شيئًا وقـد شذ عنه في أمهات الأولاد يرويه عـن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فـقلت: إني أحفظ عن سـعيـد بن المسيب عن عـمر بن الخطاب، فأخذني فأدخلني على عبد الملك، فسألني ممن أنت؟ فانتسبت له وذكرت له حاجـتى وعيالي، فسـألني، هل تحفظ القرآن؟ قـلت: نعم والفرائض والسنن، فسألني عن ذلك كله فأجبته، فقضى ديني وأمر لي بجائزة، قال لي: اطلب العلم فإنـي أري لك عينًا حـافظة وقلبًا ذكـيا، قـال: فرجـعت إلى المدينة أطلب العلم وأتتبعه[3].

وهكذا رأينا أن العلم قد أعز الله تعالى به أهله ورفعـهم إلى منازل عالية، فقد أوصل العلم الإمام الزهري وهو في شـبابه إلى أمير المؤمنين عـبد الملك بن مروان ونال عنده وعند الخلفاء من بعده مكانة رفيعة.

وكان الزهري قوي الحافظة سريع التذكـر، ومن أخباره في ذلك ما ذكره الحافظ عبدالرحمن بن مهدي قال: سمعت مالكًا يقول: حدَّث الزهري يوما بحديث فلما قام أخذت بلجام دابتـه فاستفهمته فـقال: أتستفهمني؟ ما استـفهمت عالمًا قط ولا رددت على عالم قط، قال ابن مهدي: فتلك الطوال وتلك المغازي[4].

وروى يعقوب بن سفيان عن سعيد بن عبد العزيز: أن هشام بن عبد الملك سأل الزهري أن يكتب لبنيه شـيئًا من حديثـه، فأملى على كاتبه أربعـمائة حديث، ثم

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٣٣.
(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٣٣.
(٣) البداية والنهاية ٩/ ٣٥٤.
(٤) البداية والنهاية ٩/ ٣٥٦.

خرج على أهل الحديث فحدثهم بها، ثم إن هشامًا قال للزهري: إن ذلك الكتاب ضاع، فقال: لا عليك، فأملى عليهم تلك الأحاديث، فأخرج هشام الكتاب الأول فإذا هو لم يغادرحرفًا واحدا، وإنما أراد هشام امتحان حفظه[١].

فهذا الخبر وأمثاله فيها شاهد على قوة حفظ الإمام الزهري ودقته في الرواية، وهذا يكسب مروياته ثقة وطمأنينة عند الرواة.

وكان شديد الاهتمام بالمذاكرة والتعليم وفي ذلك يقول الحافظ ابن كثير: وكان ابن شهاب ينزل بالأعراب يعلمهم لئلا ينسى العلم[٢].

وذكر عن أبي إسحاق قال: كان الزهري يرجع من عند عروة -يعني ابن الزبير- فيقول لجارية عنده فيها لكنة: حدثنا عروة حدثنا فلان. ويسرد عليها ما سمعه منه، فتقول له الجارية: والله ما أدري ما تقول، فيقول لها: اسكتي لكاع[٣]، فإني لا أريدك إنما أريد نفسي[٤].

فهذا مثل من اهتمام الإمام الزهري باستذكار العلم وتأكيد الحفظ، فإن أبلغ الوسائل في ذلك تعليم العلم، وحيث إن الزهري آنذاك حديث السن ولم يجتمع حوله طلاب يأخذون عنه العلم فإنه صار يحاول تثبيت حفظه بإلقائه على جاريته.

ولقد أثنى العلماء عليه في حفظه وشدة اهتمامه بالعلم، فمن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر الإمام الليث بن سعد قال: مارأيت عالما قط أجمع من ابن شهاب، ولو سمعته يحدث في الترغيب والترهيب لقلت ما يحسن غير هذا، وإن حدث عن الأنبياء وأهل الكتاب قلت لا يحسن إلا هذا وإن حدث عن الأعراب والأنساب قلت لا يحسن إلا هذا، وإن حدث عن القرآن والسنة كان حديثه بدعًا جامعا[٥].

وقال عنه أيضًا الإمام الليث ابن سعد: وُضِعَ الطست بين يدي ابن شهاب فتذكر حديثًا فلم تزل يده في الطست حتى طلع الفجر وصححه[٦].

وهذا يدل على استغراق فكره بالعلم إلى الحد الذي يُنسيه ما حوله، وبهذا الاهتمام الكبيرحوى فكره علمًا عظيما.

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣٥٦.
(٢) البداية والنهاية ٩/ ٣٥٦.
(٣) أي يا لئيمة.
(٤) البداية والنهاية ٩/ ٣٥٥.
(٥) البداية والنهاية ٩/ ٣٥٦.
(٦) البداية والنهاية ٩/ ٣٥٩.

ويقول الإمام الزهري عن نفسه في بيان شدة ملازمته العلماء: خدمت عبيد الله ابن عتبة[1] حتى إن كان خادمه ليخرج فيقول: من بالباب؟ فتقول الجارية: غلامك الأعيمش، فتظن أني غلامه، وإن كنت لأخدمه حتى أستقي له وضوءه[2].

من أخبار قتادة السدوسي رحمه الله:

من ذلك ما رواه معمر في قوة حفظ الحافظ قتادة بن دعامة السدوسي، قال: سمعت قتادة يقول: ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئًا، وقال: ما سمعت شيئًا إلا وحفظته[3].

وكذلك ما رواه معمر في ذلك قال: قال قتادة لسعيد بن المسيب: يا أبا النضر: خذ المصحف فعرضَ عليه سورة البقرة فلم يُخطئ فيها حرفا، فقال: يا أبا النضر أحكمتُ؟ قال: نعم، قال: لأنا لصحيفة جابر أحفظ مني لسورة البقرة، قال: وكانت قرئت عليه الصحيفة التي يرويها سليمان اليشكري عن جابر[4].

وروى الحافظ معمر عن قتادة قال: تكرير الحديث في المجلس يذهب نوره، وما قلت لأحد قط: أَعِدْ عليّ[5].

من أخبار وكيع بن الجراح رحمه الله:

من الحفاظ الكبار الذين يحفظون آلاف الأحاديث عن ظهر قلب الإمام الحافظ وكيع بن الجرَّاح الرُّؤاسي، قال عن نفسه: ما نظرت في كتاب قط منذ خمس عشرة سنة إلا في صحيفةٍ يومًا، فقال له ابن عمار: عَدُّوا عليك بالبصرة أربعة أحاديث غلطت فيها، قال: وحدثتهم بعبادان بنحو من ألف وخمسمائة، أربعة أحاديث ليست بكثيرة في ذلك[6].

وقال عنه الإمام أحمد بن حنبل: كان وكيع حافظا حافظا، ما رأيت مثله[7].

---

(١) هو الإمام عبيد الله بن عتبة بن مسعود ابن أخي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وكان من أئمة التابعين.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٣٥٨.
(٣) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٧١.
(٤) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٧٢.
(٥) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٧٤.
(٦) سير أعلام النبلاء ٩/ ١٤٦.
(٧) سير أعلام النبلاء ٩/ ١٤٧.

وقال على بن خشرم: ما رأيت بيد وكيع كتابا قط، إنما هو حفظ، فسألته عن أدوية الحفظ فقال: إن علمتك الدواء استعملته؟ قلت: إي والله، قال: ترك المعاصي، ما جربت مثله قط[1].

وكذلك أرشد وكيعٌ الإمام الشافعي إلى ذلك كما سجله الشافعي في شعره المشهور:

شكوت إلى وكيعٍ سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال: اعلم بأن العلم نور ونور الله لا يُؤتاه عاصي

وهكذا ألهم الله تعالى هذا الإمام الحافظ وكيعَ بن الجراح إلى هذا الجواب السديد الذي كان عن علم وتجربة، فالمعاصي ظلمة في القلب ومشغلة للفكر، فالمؤمن إذا صدرت منه المعصية يؤنبه ضميره المتيقظ بنور الإيمان، ويحاسب نفسه، ويشغل قسطا من تفكيره في هذا المجال، مما يؤثر على درجة حفظه للعلم، وأهم من ذلك أن العلم النافع توفيق وتسديد من الله تعالى ونور منه، كما قال وكيع، والله تعالى لا يمنح نوره إلا للطائعين، وهم الذين يوفقهم الله جل وعلا للتقدم في الحفظ، والتفوق في العلم.

من أخبار أحمد بن حنبل رحمه الله:

هذا ومن الحفاظ الكبار الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، يقول الحافظ أبو زرعة: حزرت كتب أحمد يوم مات فبلغت اثني عشر حِمْلاً وعِدْلاً، ما كان على ظهر كتاب منها «حديث فلان» ولا في بطنه «حدثنا فلان» كل ذلك كان يحفظه[2].

وقال حسن بن مُنَبِّه: سمعت أبا زرعة يقول: أخرجَ إلي أبو عبد الله أجزاء كلها سفيان سفيان، ليس على حديث منها «حدثنا فلان»، فظننتها عن رجل واحد، فانتخبت منها، فلما قرأ ذلك عليّ جعل يقول: حدثنا وكيع ويحيى، حدثنا فلان، فعجبت ولم أقدر أنا على هذا[3].

(١) سير أعلام النبلاء ٩/ ١٥١.
(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٨٨.
(٣) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٨٨..

وقال عبد الله بن أحمد: قال لي أبي: خذ أي كتاب شئت من كتب وكيع من المصنف، فإن شئت أن تسألني عن الكلام حتى أخبرك بالإسناد، وإن شئت بالإسناد حتى أخبرك أنا بالكلام[1].

فهذه أمثلة من سعة علم أبي عبد الله الإمام أحمد بن حنبل وقوة حافظته وجودة ذاكرته.

وهذه الكمية الضخمة من المحفوظ لم تتم إلا بعد جهد كبير من التذكر المتواصل والمذاكرة مع الشيوخ والأقران.

من أخبار شعبة بن الحجاج رحمه الله:

كان بعض العلماء يمنعون طلابهم الذين وهبهم الله تعالى قوة في الحفظ من الكتابة كما جاء عن الحافظ أبي الوليد الطيالسي أنه قال: بينا أنا أكتب عند شعبة إذ بَصُر بي فقال: وتكتب؟ فوضعت الألواح وجعلت أنظر إليه.

قال الإمام الذهبي: كأنه كره الكتابة لأنه كان قادرًا على أن يحفظ[2].

وهذا توجيه سديد من الحافظ شعبة بن الحجاج لأن الحفظ ثم التذكر ومذاكرة العلماء أقرب إلى فهم السنة والتأثر بها ثم العمل بها، فالنصوص التي تُكتب ولا تحفظ يقل تذكرها ومذاكرتها مع العلماء.

من أخبار علي بن المديني رحمه الله:

من ذلك ما أخرجه الخطيب البغدادي من طريق يعقوب بن سفيان الفسوي قال: حدثني أبو بشر بكر بن خلف قال: قدمت مكة وبها شاب حافظ فكان يذاكرني المسند بطُرقه فقلت له: من أين لك هذا؟ قال: أُخْبِرُك، طلبت إلى علي[3] أيام سفيان أن يحدثني بالمسند[4] فقال: قد عرفتُ أنك إنما تريد بما تطلب المذاكرة فإن ضمنتَ لي أنك تذاكر ولا تسمِّيني فعلت، قال: فضمنت له واختلفت إليه، فجعل يحدثني بذا الذي أذاكرك به حفظا.

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٨٦. .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣٤٣.
(٣) يعني الإمام علي بن المديني.
(٤) هو مسند علي بن المديني كما يتبين من آخر هذا الخبر.

قال أبو يوسف يعقوب: فذكرت هذا لبعض ولد جويرية بن أسماء ممن كان يلزم عليّا فقال: سمعت عليا يقول: غبت عن البصرة في مخرجي إلى اليمن - أظنه ذكر ثلاث سنين- وأمي حية، قال: فلما قدمت عليها جعلتْ تقول: يا بُنيَّ فلان لك صديق وفلان لك عدو، فقلت لها: من أين علمت يا أمَّهْ؟ قالت: كان فلان وفلان -فذكرت فيهم يحيى بن سعيد- يجيئون مسلِّمين فيعزونني ويقولون: اصبري فلو قد قدم عليك سرَّك الله بما ترين، فعلمت أن هؤلاء محبوك وأصدقاؤك، وفلان وفلان إذا جاؤوا يقولون لي: اكتبي إليه وضيِّقي عليه وحرِّجي عليه ليقدم عليك.

قال: فأخبرني العباس بن عبد العظيم، أو هذا الذي من ولد جويرية قال: قال لي علي: كنت صنفت المسند على الطُّرق مستقصى، وكتبته في قراطيس وصيَّرته في قِمَطْر[1] كبيرة، وخلفته في المنزل وغبت هذه الغيبة، فلما قدمت ذهبت يومًا لأطالع ما كنت كتبت، قال: فحركت القمطر فإذا هى ثقيلة رزينة بخلاف ما كانت ففتحتها فإذا الأرضة قد خالطت الكتب فصارت طينا فلم أنشط بَعْدُ لجمعه[2].

ففي هذا الخبر بيان قوة حفظ الإمام علي بن المديني وجودة ذاكرته، حيث ألف مسندا في حديث رسول الله ﷺ وكتبه على الأوراق في الوقت الذي وعاه في ذاكرته، فلما سافر وأكَلتْ دابَّة الأرض كتابه لم يفقد مسنده لأنه قد اختزنه في ذاكرته، وقام بمذاكرة ذلك الشاب من حفظه، وهذا يبين لنا الجهد الكبير الذي بذله في حفظ ذلك المسند والاحتفاظ به في ذاكرته، حيث يحتاج ذلك إلى مراجعة دائمة.

وفى هذا الخبر مواقف:

أولاً: ما كان من الإمام علي بن المديني حينما اشترط على الشاب الذي طلب منه المذاكرة أن لا يذكر اسمه، وهذا مثل في التواضع والتجرد من حظ النفس والبعد عن الرياء، حيث إن الحفظ القوي مزلة قدم نحو الإعجاب بالنفس والرياء.

(١) والقممطر الصندوق المصنوع من القصب.

(٢) تاريخ بغداد ١١/ ٤٦٢.

ثانيًا: موقف جليل لأصحاب علي بن المديني الذين كانوا يعزُّون أمه في حال غيبته ويُشيدون بهدفه من تلك الرحلة ويبشرونها بالعاقبة الحسنى من سفره، ومنهم الإمام يحيى بن سعيد القطان رحمهم الله تعالى، وهذا هو المظنون بالعلماء المتقين الذين يعملون بمقاصد علمهم.

ثالثًا: صبر جميل من تلك المرأة الصالحة والدة الإمام علي بن المديني، حيث صبرت على فراق ولدها تلك المدة الطويلة، وفهمٌ ثاقب منها حيث قدَّمت مصلحة ابنها ومصلحة المسلمين على مشاعرها وعواطفها نحو ابنها، وذلك حيث فهمت أن الذين يعزَّونها في سفر ابنها بما سيحصل عليه من العلم النافع هم الأصدقاء المخلصون لولدها، وأن الذين يضخمون مصيبتها ويحثونها على استقدام ولدها ليسوا له بأصدقاء وإن أظهروا النصح والإخلاص.

من أخبار إسحاق بن راهويه رحمه الله:

ومن العلماء الذين اشتهروا بجودة الحفظ وسرعة التذكر الإمام الحافظ إسحاق ابن إبراهيم بن مَخْلَد الحنظلي التميمي المروزي المشهور بابن راهويه[1].

ذكر الإمام الذهبي عن أبي داود الخفاف أنه قال: سمعت إسحاق ابن راهويه يقول: لكأني أنظر إلى مئة ألف حديث في كتبي، وثلاثين ألفًا أسردها، قال: وأملى علينا إسحاق أحد عشر ألف حديث من حفظه، ثم قرأها علينا، فما زاد حرفًا ولا نقص حرفا.

قال الذهبي: هذه الحكاية رواها الحافظ ابن عدي عن يحيى بن زكريا بن حيّويَه، سمع أبا داود فذكرها، فهذا والله الحفظ[2].

من أخبار أبي عبد الله البخاري رحمه الله:

من الحفاظ الذين قل أن يوجد لهم نظير الإمام أبو عبد الله البخاري رحمه الله تعالى، ومن أخباره في ذلك ما رواه الحافظ الخطيب البغدادي من حديث أبي جعفر محمد بن أبي حاتم الوراق النحوي قال قلت لأبي عبد الله محمد بن

(١) لُقِّب بذلك لأن أباه ولد في طريق مكة فقالت المراوزة راهوية لأنه ولد في الطريق.
(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٧٣.

إسماعيل البخاري: كيف كان بدء أمرك في طلب الحديث؟ قال: أُلهمت حفظ الحديث وأنا في الكُتَّاب، قال: وكم أتَى عليك إذ ذاك؟ قال: عشرُ سنين أو أقل، ثم خرجت من الكتاب بعد العشر فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره، وقال يومًا فيما يقرأ للناس: سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم، فقلت له: يا أبا فلان إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم، فانتهرني فقلت له: ارجع إلى الأصل إن كان عندك، فدخل ونظر فيه ثم خرج فقال لي: كيف هو يا غلام؟ قلت: هو الزبير بن عدى عن إبراهيم، فأخذ القلم مني وأحكم كتابه، فقال: صدقت، فقال له بعض أصحابه: ابن كم كنت إذ رددت عليه؟ فقال: ابن إحدى عشرة، فلما طعنت في ست عشرة سنة حفظت كتب ابن المبارك ووكيع، وعرفت كلام هؤلاء[1]، ثم خرجت مع أمي وأخي أحمد إلى مكة، فلما حججت رجع أخي بها وتخلفت في طلب الحديث، فلما طعنت في ثماني عشرة جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم، وذلك أيام عبيد الله بن موسى، قال: وصنَّفت كتاب التاريخ إذ ذاك عند قبر الرسول ﷺ في الليالي المقمرة، وقال: قلَّ اسم في التاريخ إلا وله عندي قصة إلا أني كرهت تطويل الكتاب[2].

ففي هذا الخبر بيان لعدد من مواقف أبي عبد الله البخاري العلمية وذلك في خدمة سنة رسول الله ﷺ.

ومما يبين قوة حفظه ودقة فهمه ما رواه الخطيب البغدادي من خبر أبي أحمد بن عدي قال: سمعت عدة مشايخ يحكون أن محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد فسمع به أصحاب الحديث فاجتمعوا وعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر وإسناد هذا المتن لمتن آخر، ودفعوا إلى عشرة أنفس إلى كل رجل عشرة أحاديث وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يُلقوا ذلك على البخاري، وأخذوا الموعد للمجلس، فحضر المجلس جماعة أصحاب الحديث من الغرباء من أهل خراسان وغيرها ومن البغداديين، فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب إليه رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث

(١) قال الحافظ ابن حجر: يعني أصحاب الرأي- مقدمة الفتح / ٤٧٩.
(٢) تاريخ بغداد ٢/٦ - ٧.

فقال البـخاري: لا أعرفه، فـسأله عن آخر فقـال: لا أعرفه، فمـا زال يلقى عليه واحدًا بعد واحد حتى فرغ من عشرته، والبـخاري يقول: لا أعرفه، فكان الفقهاء ممن حضـر المجلس يلتفت بـعضهم إلى بعـض ويقولون: الرجل فـهم، ومن كان منهم غيرَ ذلك يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلة الفهم.

ثم انتدب رجل آخـر من العشرة فـسأله عن حديث من تـلك الأحاديث المقلوبة فقال البـخاري: لا أعرفه، فسـأله عن آخر فقال: لا أعرفـه، فلم يزل يلقي عليه واحدا بعد آخر حتى فرغ من عشرته، والبخاري يقول: لا أعرفه.

ثم انتدب إليه الثـالث والرابع إلى تمام العشرة حتى فـرغوا كلهم من الأحاديث المقلوبة، والبخاري لايزيدهم علـى: لا أعرفه، فلما علم البخاري أنهم قـد فرغوا التفت إلى الأول منهم فقال: أما حديثك الأول فهـو كذا وحديثك الثاني فهو كذا والثالـث والرابع على الولاء حتى أتم على تمام العـشرة، فـرد كل متن إلى إسناده وكل إسناد إلى متنه، وفـعل بالآخرين مثل ذلك، ورد متون الأحـاديث كلها إلى أسانيدها، وأسانيدها إلى متونها، فأقر الناس له بالحفظ وأذعنوا له بالفضل، وكان ابن صاعد إذا ذكر محمد بن إسماعيل يقول: الكبش النطَّاح[1].

ومن المواقف التي تبين تفـوق الإمام البـخاري في الحـفظ والفهـم ما أخـرجه الخطيب البغدادي من خـبر حاشد بن إسمـاعيل قال: كان أبو عبد الله مـحمد بن إسماعـيل يختلف معنا إلى مشـايخ البصرة وهو غلام فـلا يكتب، حتى أتى على ذلك أيام، وكنا نقول له: إنك تختلف معنا ولا تكتب فما معناك فيما تصنع؟ فقال لنا بعد ستة عشر يومـا: إنكما قد أكثرتما علي وألححتما فاعرضا علـي ما كتبتما، فأخرجنا ما كـان عندنا فزاد على خمسة عشر ألف حديث، فـقرأها كلها عن ظهر قلب، حـتى جعلنا نُحْكم كُـتُبَنَا على حـفظه، ثم قال: أترون أني أخـتلف هدرًا وأضيع أيامي؟ فعرفنا أنه لا يتقدمه أحد.

قال: وكـان أهل المعرفة من أهل البـصرة يَعْدون خلفـه في طلب الحديث وهو شاب حـتى يغلبوه على نفـسه ويُجلسـوه في بعض الطريق فيـجتمع عـليه ألوف

(١) تاريخ بغـداد ٢/ ٢٠ - ٢١، سير أعـلام النبلاء ١٢/ ٤٠٨ - ٤٠٩، والمقـصود بقـوله «الكبش النطاح» العالم المتفوق على غيره في العلم.

أكـثـرهم ممن يكتب عنه، قـال: وكـان أبو عـبـد الله عند ذلك شـابا لم يخـرج وجهه[1].

فهذا حافظ الدنـيا وإمام أهل الحديث في عصره الإمام البـخاري يحفظ في أيام قلائل خمسة عشر ألف حديث، ولقد كان إلى جانب ما وهبه الله سبحانه من قوة الحافظة وسرعة التذكر يشغل ليله ونهاره في استذكار الأحاديث كما جاء في رواية أخرجها الحـافظ الخطيب البغدادي من خبر محمـد بن يوسف الفرَبْري قال: كنت عند محمد ابن إسماعيل البخـاري بمنزله ذات ليلة فأحصيت عليه أنه قام وأسرج، يستذكر أشياء يعلقها في ليلةٍ ثمانى عشرة مرة[2].

وقد ذكر أبو عبد الله في رواية عنه أفضل طريقة للحفظ وذلك فيما رواه محمد ابن أبي حاتم عن النجم بن الفـضيل أنه قال للإمام البخـاري: هل من دواء يشربه الرجل فينتفع به للحفظ؟ فقال: لا أعـلم، ثم أقبل عليّ وقال: لا أعلم شيئًا أنفع للحفظ من نهمة الرجل ومداومة النظر.

قال: وذاك أنِّي كنت بـنيسابور مـقيـما فكان تَرِدُ إليّ من بخـاري كُتُب، وكنَّ قراباتٌ لي يُـقرئن سلامـهن في الكتب فكنت أكـتـب كتابا إلـى بخاري وأردت أن أقرئهن سلامي فذهب عليَّ أسـاميهن حين كتبت كتـابي ولم أقرئهن سلامي، وما أقل ما يذهب عني العلم [3].

فقد تـبين من كلام الإمام البخـاري أن أهم أسباب النجاح في العلم أن يـتوجه المتعلم إليـه بكليته فـيكون هو الذي يشغل باله فيـفكر فيه حـتى وهو على فراش النوم، فبـذلك يثبت في الذاكرة، ويتـفتق الفكر عن المعاني الكثـيرة التي تَرِد على الذهن من تركيز الفكر على القضايا العلمية.

وفي حفظ الإمام محـمد بن إسماعيل البخاري رحـمه الله تعالى يقول أبو بكر الكلْوذاني: مـا رأيت مثل محـمد بن إسمـاعيل، كـان يأخذ الكتاب مـن العلماء فيطلع اطلاعة فيحفظ عامة أطراف الأحاديث بمرة[4].

---

(١) تاريخ بغداد ٢/ ١٤ - ١٥، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٠٨.

(٢) تاريخ بغداد ٢/ ١٤، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٠٤.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٠٦.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤١٦

وقال سليم بن مجاهد: سمعت أبا الأزهر يقول: كان بسمرقند أربع مئة ممن يطلبون الحديث، فاجتمعوا سبعة أيام وأحبوا مغالطة محمد بن إسماعيل، فأدخلوا إسناد الشام في إسناد العراق وإسناد اليمن في إسناد الحرمين، فما تعلقوا منه بسقطة لا في الإسناد ولا في المتن[1].

وهكذا فليكن العلم والحفظ، وإلى علم هذا الإمام وأمثاله يرجع المحققون.

وأخرج الخطيب البغدادي بإسناده عن سليم بن مجاهد قال: كنت عند محمد ابن سلام البيكندي فقال لي: لو جئت قبلُ لرأيت صبيا يحفظ سبعين ألف حديث قال: فخرجت في طلبه حتى لقيته فقلت: أنت الذي تقول: أنا أحفظ سبعين ألف حديث؟ قال: نعم وأكثر منه، ولا أجيئك بحديث من الصحابة أو التابعين إلا عرفت مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم، ولست أروي حديثًا من حديث الصحابة أو التابعين إلا ولي في ذلك أصل أحفظه حفظًا من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ[2].

وقال محمد بن أبي حاتم: سمعت محمد بن إسماعيل يقول: قال لي محمد ابن سلام: انظر في كتبي فما وجدت فيها من خطأٍ فاضرب عليه، كي لا أرويه، ففعلت ذلك.

وكان محمد بن سلام كتب عند الأحاديث التي أحكمها محمد بن إسماعيل: رضي الفتى، وفي الأحاديث الضعيفة، لم يرض الفتى، فقال له بعض أصحابه: من هذا الفتى؟ فقال: هو الذي ليس مثله، محمد بن إسماعيل[3].

من أخبار أبي بكر الأثرم رحمه الله:

من ذلك ما ذُكر عنه أنه كان قوي الحفظ سريع التذكر، قال الخلال: وأخبرني أبو بكر بن صدقة: سمعت أبا القاسم بن الخُتَّلى قال: قام رجل فقال: أريد من يكتب لي من كتاب الصلاة ما ليس في كتب أبي بكر بن أبي شيبة، فقلنا له: ليس لك إلا أبو بكر الأثرم، قال: فوجَّهوا إليه ورقا، فكتب ستمائة ورقة من كتاب الصلاة، قال: فنظرنا فإذا ليس في كتاب ابن أبي شيبة منه شيء[4].

---

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤١١..
(٣) تاريخ بغداد ٢/ ٢٤ - ٢٥.
(٤) تاريخ بغداد ٢/ ٢٤.
(٤) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٦٢٥.

فهذا مثل على البـراعة الفائقة في الحفظ والتذكـر، حيث حفظ الحافظ أبو بكر أحمد بن محمد الأثرم هذه الكمية الكثـيرة من الأحاديث في كتاب الصلاة وميَّزها عما رواه شيخه أبو بكر ابن أبي شيبة.

من أخبار إسحاق بن بهلول رحمه الله:

ومن الحفاظ الكبار الحافظ أبو يعقوب إسـحاق بن بهلول، ومن أخبار حفظه ما ذكر الخطيب البغـدادي عن ابن الأزرق قال: حدثني القاضي أبو طالب مـحمد بن أحمد بن إسـحاق بن البُهلول، قال: تذاكـرت يومًا أنا وأبو محمد بن صـاعد ما حدَّث به جدِّي ببغداد -من حفظه- بأربعين ألف حـديث، فقال لي أبو محمد بن صاعد: لا يَدري أُنَيس ما قال: حدث إسحـاق بن البهلول من حفظه ببغداد بأكثر من خمسين ألف حديث.

وقد ذكـر في خـبر آخـر سبب ذلك وهو أنه لما خـاف من الأتراك أن يكبسـوا الأنبار انحدر إلى بغـداد عَجِلاً ولم يحمل معه شـيئًا مِنْ كتبه، فطالبـه محمد بن عبدالله بـن طاهر أن يحدث، فحدث ببـغداد من حفظه بخمـسين ألف حديث لم يخطئ في شيء منها[1].

فهـذا مثل من الحفظ القـوي والذاكرة الجيـدة، فقد أُلزِم هذا العـالم الحافظ أن يحدث بعيدا عن كتبه فـحدَّث بخمسين ألف حديث من حفظه لم يخطئ في شيء منها.

من أخبار أبي عيسى الترمذي رحمه الله:

من الحفاظ الكبار الإمام أبو عيسى محـمد بن عيسى السلمي الترمذي، مصنف «الجامع» أحد الكتب الستة.

قال الحافظ الذهبي: نقل أبو سعـد الإدريسي بإسناد له أن أبا عيسى قال: كنت في طريق مكة فكتـبت جزأين من حـديث شيخ، فـوجدته فـسألتـه وأنا أظن أن الجزأين معي، فسـألته فأجابني فإذا معي جزآن بيـاض، فبقي يقرأ عليَّ من لفظه، فنظر فرأى في يدي ورقا بياضـا، فقال: أما تستحي مني؟ فـأعلمته بأمري وقلت:

(١) تاريخ بغداد ٦/ ٣٦٨.

أحفظه كله، قال: اقرأ، فقرأته عليه فلم يصدقني وقال: استظهرت قبل أن تجيء، فقلت: حدثني بغيره، قال: فحدثني بأربعين حديثا، ثم قال: هات، فأعدتها عليه ما أخطأت في حرف[1].

وقال أبو سعد الإدريسي: كان أبو عيسى يُضرب به المثل في الحفظ.

وقال الحاكم: سمعت عمر بن عَلَّك يقول: مات البخاري فلم يخلف بخراسان مثلَ أبي عيسى في العلم والحفظ والورع والزهد وبكى حتى عمي، وبقي ضريراً سنين[2].

وإذا علمنا ما كان عليه الإمام الحافظ أبو عيسى الترمذي من هذا المستوى الرفيع من الحفظ فليس بمستغرب منه أن يؤلف كتابا في الحديث حاز على إعجاب علماء الحديث حتى جعلوه من الكتب الستة الأمهات في هذا العلم، وأن يؤلف كتابًا مهما في أعقد باب من أبواب علوم الحديث، ألا وهو علل الحديث.

من أخبار الحسن بن سفيان رحمه الله:

ممن اشتهر بالحفظ العالم الحافظ الحسن بن سفيان الشيباني، ومن أخبار ذكائه وحفظه الجيد ما ذكره أبو عبد الله الحاكم قال: سمعت محمد بن داود بن سليمان يقول: كنا عند الحسن بن سفيان فدخل ابن خزيمة وأبو عمرو الحيري وأحمد بن علي الرازي، وهم متوجهون إلى فُراوة، فقال الرازي: كتبت هذا الطبق من حديثك، قال: هات، فقرأ عليه، ثم أدخل إسناداً في إسناد، فردَّه الحسن، ثم بعد قليل فعل ذلك فردَّه الحسن، فلما كان في الثالثة قال له الحسن: ما هذا؟! قد احتملتك مرتين وأنا ابن تسعين سنة فاتق الله في المشايخ فربما استجيبَتْ فيك دعوة، فقال له ابن خزيمة: مَهْ، لا تؤذ الشيخ، قال: إنما أردت أن تعلم أن أبا العباس يعرف حديثه[3].

من أخبار الحسين النيسابوري وأحمد بن جوصا رحمهما الله:

لقد كان العلماء الحفاظ لقوة حافظتهم وجودة ذاكرتهم يعمرون مجالسهم بالمذاكرة من الذاكرة، ومن أمثلة ذلك ما ذكر أبو عمرو النيسابوريُّ الصغير قال:

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٧٣

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٧٣.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٤/ ١٥٩.

نزلنا خـانًا بدمشق العصـر، ونحن على أن نبكِّر إلى ابن جـوصا[1]، فإذا الخاني يصيح: أين أبو علي الحافظ؟[2] فقلت: ها هنا، قـال: قد حضـره الشيخ زائرًا، فإذا بأبي الحسن بن جوصا على بغلة فنزل عنهـا، ثم صعد إلى غرفتنا وسلم على أبي علي ورحب به، وأخذ في المذاكـرة معه إلى قرب العـتمة[3]، ثم قال: يا أبا علي جمـعتَ حديث عبد الله بن دينار؟ قـال: نعم، قال: أخرجْه إلي، فـأخرجه فأخذه الشيخ في كمه وقام.

فلما أصبـحنا جاءنا رسوله وحملنا إلى منزله فذاكـره أبو علي وانتخب عليه إلى المساء، ثم انصرفنا إلى رحلنا، وجماعـةٌ من الرحالة ينتظرون أبا علي فسلموا عليه، ثم ذكروا شـأن ابن جوصا وما نـقموا عليه من الأحـاديث التي أنكروها، وأبو علي يسكِّتهم ويقول: لا تفعلوا، هذا إمام من أئمة المسلمين، وقد جاز القنطرة[4].

فهذا اجتماع علمي مهم بين حافظين كبيرين، ولا شك أن هذا الاجتماع وأمثاله يَنُتج عنه تثبيت المعلومات وإضافة معلومات جديدة.

ولقد كان اعتماد العلماء في تلك العصـور على الحفظ عاملاً في حصر الشهرة العلمية في النوابغ الذين يشتهرون بقوة الحفظ وسرعة التذكر، كما كان عاملا على توجه المتفوقين في الذكاء نحو هذا العلم.

ونظرًا لكون العلماء يعـتمدون على الحـفظ والذاكرة كانت مـجالسهم معـمورة بالعلم الذي يُستـخرج بالمذاكرة، أما الذين يعـتمدون على التدوين فـقط فإنهم لا يستطيعون أن يعمروا مجالس المذاكرة.

من أخبار عبد الرحمن ابن الخُتَّلى رحمه الله:

ومن العلماء المشـهورين بقوة الحفظ وجـودة الذاكرة العالم الحافظ أبـو عبد الله عبـد الرحمن بن أحـمد البـغدادي ابن الخُتَّلِـي، قال عن حفظه علـي بن المحسن

(١) هو العالم الحافظ أبو الحسن أحمد بن عمير بن يوسف ابن جوصا، محدث الشام.

(٢) يعني العالم الحافظ أبا علي الحسين بن علي النيسابوري.

(٣) أي صلاة العشاء.

(٤) سير أعلام النبـلاء ١٥/ ١٧، والمقصود بقوله «جاز القنطرة» أنه قد ارتفع عن مجـال النقد وحاز على ثقة العلماء.

التنوخي: أخبرني أبي قال: دخل إلينا أبو عبد الله الختلي إلى البصرة، وهو صاحب حديث جَلْد، وكان مشهوراً بالحفظ، فجاء وليس معه شيء من كتبه فحدث شهوراً إلى أن لحقته كتبه، فسمعته يقول: حدثت بخمسين ألف حديث من حفظي إلى أن لحقتني كتبي[1].

من أخبار محمد العقيلي رحمه الله:

ومن الحفاظ المشهورين العالم الحافظ أبو جعفر محمد بن عمرو العقيلي، يقول عن حفظه مسلمة بن القاسم الأندلسي: كان العقيلي جليل القدر عظيم الخطر، ما رأيت مثله، وكان كثير التصانيف، فكان من أتاه من المحدثين قال: اقرأ من كتابك ولا يُخرجُ أصله، قال: فتكلمنا في ذلك وقلنا: إما أن يكون من أحفظ الناس وإما أن يكون من أكذب الناس، فاجتمعنا فاتفقنا على أن نكتب له أحاديث من روايته ونزيدَ فيها وننقص، فأتيناه لنمتحنه فقال لي: اقرأ فقرأتها عليه، فلما أتيت بالزيادة والنقص فطن لذلك فأخذ مني الكتاب وأخذ القلم فأصلحها من حفظه، فانصرفنا عنه وقد طابت نفوسنا، وعلمنا أنه من أحفظ الناس[2].

فهذا مثل من اهتمام طلاب العلم بضبط ما يروونه من سنة رسول الله ﷺ، وقد دفعهم ذلك الاهتمام إلى الجرأة على اختبار الحافظ الناقد أبي جعفر العقيلي فظهر من هذا الاختبار جودة حفظه وإتقانُه، وبهذا الحفظ القوي المتقن بلغ ما بلغه من الشهرة العلمية في حفظ السنة إلى جانب علمه الدقيق في رواة الحديث.

من أخبار محمد بن المظفر رحمه الله:

ومن الحفاظ المشهورين الحافظ أبو الحسن محمد بن المظفر قال أبو ذر الهروي: سمعت ابن أبي الفوارس يقول: سألت ابن المظفر عن حديث عن الباغندي عن ابن زيد المُنادي عن عمرو بن عاصم عن شعبة، فقال: ليس هو عندي، قلت: لعله عندك؟ قال: لو كان عندي كنت أحفظه، وعندي عن الباغندي مائة ألف حديث ليس عندي هذا[3].

---

(١) تاريخ بغداد ١٠/ ٢٩٠.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٣٧.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٦/ ٤١٩.

فهذا مثـال على كثرة الحفظ والإتقان، فالحافظ ابن المظفـر يحفظ عن الباغندي مائة ألف حديث وهي مـعلومة لديه بدون رجوع إلى كتابه، فقـد أنكر نسبة ذلك الحديث إليـه عن الباغندي وبيَّن أنه ليس من جملة مـروياته عنه، وهذا دليل على القدرة الفائقة على الحفظ والتذكر.

من أخبار أحمد بن جوصا رحمه الله:

من الحفاظ محدث الشام أبو الحسن أحمد بن عمير بنُ جوصا، قال عنه أبو ذر الهروي: سمـعت أبا مسعود الدمـشقي يقول: جاء رجل بغـدادي يحفظ إلى ابن جوصا[1]، فقال لـه ابن جوصا: كلما أغـربت عليَّ حديثا من حديث الشـاميين أعطيتك درهما، فلم يزل الـرجل يلقى عليه ما شاء الله ولا يغرب عليـه، فاغتمَّ، فقال للرجل: لا تجزع، وأعطاه لكل حديث ذاكـره به درهما، وكان ابن جوصا ذا مال كثير[2].

وهكذا كان الحـافظ ابن جوصا يتـمتع بالحفـظ القوي والذاكرة السـيالة والكرم البالغ، فقد كانت كل تلك الأحاديث التي ألقاها ذلك العالم البغدادي معروفة عند الحافظ ابن جوصا، فلـم يكن البغدادي يستحق شيئًـا مما وعده به، ولكنَّ كرم ابن جوصا الفياض أبى عليه أن يرد ذلك البغدادي منكسر النفس، فأعطاه من الدارهم بعدد ما ذاكره به من الأحاديث:

من أخبار علي بن عمر الدارقطني رحمه الله:

ومن الحفاظ الكبار الإمام أبو الحـسن عليٌّ بن عمر الدارقطني صاحبُ المؤلفات النافعة في السنة، ومن أخـبار حفظه ما ذكر الخطيب البـغدادي عن الأزهري قال: بلغني أن الدارقطني حـضر في حداثتـه مجلس إسمـاعيل الصفـار، فجلس ينسخ جزءًا كـان معه وإسمـاعيل يُملي، فقـال له بعض الحاضرين: لا يصح سـماعك وأنت تنسخ، فقال له الدارقطني: فهمي للإملاء خلاف فهمك، ثم قال: تحفظ كم أملى الشيخ من حديث إلى الآن؟ فـقال: لا، فقال الدارقطني: أملى ثمانيـة عشر

---

(١) هو أبو الحسين أحمد بن عمير بن يوسف ابن جوصا.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٥/١٦.

حديثا، فعُدَّت الأحاديث فَوُجِدت كما قال: ثم قال أبو الحسن: الحديث الأول منها عن فلان عن فلان، ومتنه كذا، والحديث الثاني عن فلان عن فلان، ومتنه كذا، ولم يزل يذكر أسانيد الأحاديث ومتونها في الإملاء حتى أتى على آخرها[1].

وهكذا كان حفظ هذا العالم الكبير الذي أصبح من أعلام علماء السنة، فقد كان مشهورًا بقوة الحفظ وجودة الذاكرة، وقد ذكر أبو بكر البرقاني أنه أملى عليه كتاب «العلل» من حفظه.

ذكره الإمام الذهبي وقال: إن كان كتاب «العلل» الموجود قد أملاه الدارقطني من حفظه كما دلت عليه هذه الحكاية فهذا أمر عظيم يُقضَى به للدارقطني أنه أحفظ أهل الدنيا، وإن كان قد أملى بعضه من حفظه فهذا ممكن[2].

خبر الحاكم مع بديع الزمان الهمذاني رحمهما الله:

هذا وإن حفظ الأحاديث بأسانيدها المتعددة ليس بالأمر اليسير بل هو من أشق المواد وأصعبها، ومما يبين صعوبة هذه المادة ما ذكره الحافظ الذهبي عن سعد بن علي الزنجاني أنه سمع أبا نصر الوائليَّ يقول: لما ورد أبو الفضل الهمذاني نيسابور تعصبوا له ولقبوه بديع الزمان، فأُعجب بنفسه إذ كان يحفظ المائة بيت إذا أنشدت مرة، وينشدها من آخرها إلى أولها مقلوبة، فأنكر على الناس قولهم: فلان الحافظ في الحديث، ثم قال: وحِفظُ الحديث مما يُذكر؟! فسمع به الحاكم ابن البَيِّع[3] فوجه إليه بجزء، وأجَّل له جمعة في حفظه، فردَّ إليه الجزء بعد الجمعة وقال: من يحفظ هذا؟ محمد بن فلان وجعفر بن فلان عن فلان؟ أسامي مختلفة وألفاظٌ متباينة؟ فقال له الحاكم: فاعرف نفسك واعلم أن هذا الحديث أصعب مما أنت فيه[4].

فهذا دليل على أن حفظ الأسانيد صعب للغاية، ولا يماثله شيء في الصعوبة، فبديع الزمان الهمذاني الذي يحفظ القصيدة المكونَّة من مائة بيت بسماعها أول مرة

(١) تاريخ بغداد ٢/ ٣٦.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٦/ ٤٥٥.
(٣) هو أبو عبد الله الحاكم صاحب المستدرك.
(٤) سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٧٣.

ويعيدها مقلوبة لم يستطع أن يحفظ جزءًا في الحديث مع إمهال أبي عبد الله الحاكم له مدة أسبوع، ولقد كان الحاكم خبيرًا بهذا العلم حينما تحدى ذلك الأديب الذي استهان بحفظ الأحاديث، فأعلن بعد ذلك عجزه عن حفظ الأسانيد، وإذا كان قد عجز عن حفظ جزء واحد، والجزء كما هو معروف في الغالب عشرون ورقة، فكيف بالعلماء الذين يحفظون مئاتِ الأجزاء ومئات الألوف من الأحاديث؟!

ولا شك أن حفظ الأحاديث بأسانيدها في غاية الصعوبة، ولكنه يسهل على طالب العلم بمعونة الله تعالى مع إخلاص النية وصدق التوجه نحو العلم.

من أخبار أبي نصر علي بن ماكولا رحمه الله:

ومن الحفاظ الكبار الذين لهم إسهام في التأليف في علوم الحديث الأمير الحافظ أبو نصر علي بن هبة الله بن ماكولا وقد ذكر في حفظه هبة الله بن المبارك بن الدَّواتي قال: اجتمعتُ بالأمير ابن ماكولا فقال لي: خذ جزأين من الحديث فاجعل متون هذا لأَسانيد هذا ومتون الثاني لأسانيد الأول، حتى أردها إلى الحالة الأولى[1].

وهذا دليل على التمكن في الحفظ وسرعة التذكر.

من أخبار القاسم الشاطبي رحمه الله:

ومن كبار الحفاظ الذين اشتهروا بالتأليف في العلوم الإسلامية المتنوعة الإمام سيد القراء القاسم الشاطبي وقد ذكروا من قوة حفظه وجودة ذاكرته أنه إذا قرئ عليه «الموطأ» و«الصحيحان» يصحح النسخ من حفظه، حتى كان يقال: إنه يحفظ وقر بعير من العلوم[2].

من أخبار أبي زرعة الرازي وسليمان الشاذكوني رحمهما الله:

من ذلك ما أخرجه الخطيب البغدادي من حديث أبي عثمان سعيد بن عمرو قال: سمعت أبا زرعة الرازي يقول: دخلت البصرة فصرت إلى سليمان

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٥٧٥.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٦٤.

الشاذكونِّي يوم الجمعة وهو يحـدث، وهو أول مجلس جلست إليه، فقال: حدثنا يزيد بن زريع عن محمد بـن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتـادة عن محمود بن لبيد عن جابر عن النبي ﷺ «**ما من رجل يموت له ثلاثة من الولد فتمسَّه النار إلا تحلة القسم**» فقلـت للمستـملي: ليس هذا من حـديث عاصم بن عمـر، إنما هذا رواه محمد بن إبراهيم، فقال له، فرجع إلى محمد بن إبراهيم.

قال: وذكر في هذا المجلس أيضا فقال: حـدثنا ابن أبي غنية عن أبيه عن سعد ابن إبراهيم عن نافع بن جـبـير عن أبيـه أنه قـال: «لا حلف في الإسلام» قـال: فقلت: هذا وهم، وهم فيه إسحاق بن سليمان، وإنما هو سعد بن إبراهيم عن أبيه عن جبيـر، قال: فغضب ثم قال لي: مـا تقول فيمن جـعل الأذان مكان الإقامة؟ قلت: يعيد، قـال: من قال هذا؟ قلت: الشعبي، قـال: من عن الشعبي؟ قلت: حدثنا قـبيـصة عن سفـيان عن جـابر عن الشعـبي، قال: ومن غيـر هذا؟ قلت: إبراهيم، قـال: من عن إبراهيم؟ قلت: حـدثنا أبو نعـيم حـدثنا منصـور بن أبي الأسود عن مغيرة عن إبراهيم، قال: أخطأت، قلت: حدثنا أبو نعيم حدثنا جعفر الأحمر عن مـغيرة عن إبراهيم، قال: أخطأتَ، قلت: حدثنـا أبو نعيم حدثنا أبو كدينة عن مغيرة عن إبراهيم، قال: أصبت.

قال أبو زرعة: كتبت هذه الأحاديث الثلاثة عن أبي نعيم فما طالعتها منذ كتبتها فاشتبه عليَّ، ثم قال: وأي شيء غـير هذا؟ قلت: معاذ بن هشام عن أشعث عن الحسن، قـال: هذا سرقته مـني -وصدق- كان ذاكرني به رجل بـبغداد فحـفظته عنه[1].

فهـذا مثال على غزارة العلم وقـوة الحفظ، وسرعـة استحضـار المعلومات عند البارزين من علماء السلف، فقد كانوا يحفظون مـتون الأحاديث بأسانيدها المتعددة فـإذا سمع الحـافظ منهم المحـدِّث وأخطأ في اسم راوٍ من الرواة أدرك ذلك حـالاً واستـدركه عليه، وعلى هذا جـرت هذا المحاورة العلميـة بين هذين الحافظين أبي زرعة الرازي وسليمان الشاذكوني.

(١) تاريخ بغداد ١٠/ ٢٢٩ - ٢٣٠.

إن حفظ المتون وحدها يحتاج إلى جهد في الحفظ والاستذكار، فكيف بحفظ الأسانيد التي تتشابه كثيرا.

وبهذا الجهد العظيم حفظ العلماء رحمهم الله تعالى سنة رسول الله ﷺ وسيرته.

من أخبار محمد بن يحيى الذهلي رحمه الله:

من ذلك ما ذكره أبو العباس الدَّغولي سمعت صالح بن محمد الحافظ يقول: دخلت الريَّ، وكان فَضْلك[1] يذاكرني حديث شعبة، فألقى عليَّ لشعبة عن عبد الله ابن صُبيح عن ابن سيرين عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «**هذا خالي فَلْيُرني امرؤ خاله**»[2]، فلم أحفظ[3]، فقال فضلك: أنا أُفيدكَهْ، إذا دخلت نيسابور ترى شيخا حسن الشيب حسن الوجه راكبا حمارا مصريا حسن اللباس فإذا رأيته فاعلم أنه محمد بن يحيى فسلْه عن هذا، فهو عنده عن سعيد بن واصل عن شعبة، فلما دخلت نيسابور استقبلني شيخ بهذا الوصف، فقلت: يشبه أن يكون، فسألت عنه فقالوا: هو محمد بن يحيى فتبعته إلى أن نزل فسلمت عليه وأخبرته بقصدي إياه، فنزلت في مسجده وكتبت مجلسًا من أصوله، فلما خرج وصلَّى قرأته عليه، ثم قلت: حدثكم سعيد بن عامر عن شعبة، فذكرت الحديث فقال لي: يا فتى من ينتخب هذا الانتخاب ويقرأ هذه القراءة يعلم أن سعيد بن عامر لا يحدث عن شعبة بمثل هذا الحديث، فقلت: نعم أيها الشيخ حدثكم سعيد بن واصل؟ فقال: نعم[4].

فهذا مثال على حفظ الإمام محمد بن يحيى الذهلي ومعرفته برجال الحديث، فقد أدرك ذلك الخطأ في إسناد الحديث. كما أورده السائل.

وهكذا فليكن الحفظ والعلم.

---

(١) هو فضلك الصائغ واسمه الفضل بن العباس الرازي.

(٢) أخرجه الإمام الترمذي من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أقبل سعد فقال النبي ﷺ: «**هذا خالي فليرني أمرؤ خاله**» وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث مجالد -سنن الترمذي، المناقب، مناقب سعد بن أبي وقاص، رقم (٣٧٥٢) وقال الترمذي: وكان سعد بن أبي وقاص من بني زهرة، وكانت أم النبي ﷺ من بني زهرة، ولذلك قال النبي ﷺ: «**هذا خالي**».
وأخرجه الحاكم من حديث جابر رضي الله عنه وصححه وأقره الذهبي - المستدرك ٣/ ٤٩٨-.

(٣) يعني لم يحفظ إسناده.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٢٧٧.

وفي هذا الخبر بيان حرص طلاب العلم على حفظ الأحاديث بأسانيدها العالية، فقد رحل صالح بن محمد الحافظ إلى نيسابور من أجل أن يسمع هذا الحديث عاليا عن محمد بن يحيى.

من أخبار عبد الله بن بكير رحمه الله:

ومن ذلك ما أخرجه الخطيب البغدادي من حديث أبي القاسم الأزهري قال: كنت أحضر عند عبد الله بن بكير وبين يديه أجزاء كبار قد خرَّج فيها أحاديث، فأنظر في بعضها، فيقول لي: أيما أحب إليك تذكر لي متن ما تريد من هذه الأحاديث حتى أخبرك بإسناده أو تذكر إسناده حتى أخبرك بمتنه؟ فكنت أذكر له المتون فيحدثني بالأسانيد من حفظه كما هي في كتابه، وفعلت هذا معه مرارا كثيرة.

قال إسحاق بن يسار النصيبي: وقال لي الأزهري: كان أبو عبد الله بن بكير ثقة فحسدوه فتكلموا فيه فهذا الخبر يدل على قوة حفظ عبد الله بن بكير وجودة ذاكرته[1].

خبر في بيان أهمية المذاكرة:

ومن أسباب تمتع بعض العلماء بحفظهم واستمساكهم بما في ذاكرتهم كثرة مذاكرة العلم وتذكره، وفي ذلك يقول الحافظ أبو زرعة: إذا مرضت شهرًا أو شهرين تبين عليَّ في حفظ القرآن، وأما الحديث فإذا تركتَ أياما تبين عليك، ثم قال أبو زرعة: نرى أقوامًا من أصحابنا كتبوا الحديث تركوا المجالسة منذ عشرين سنة أو أقل، إذا جلسوا اليوم مع الأحداث كأنهم لا يعرفون أولا يحسنون الحديث[2].

فهذا خبر مهم في بيان سبب حفظ العلماء لعدد كبير من الأحاديث واحتفاظهم به طول عمرهم، فقد كانوا يتعاهدون حفظهم للسنة كما يتعاهدون حفظهم للقرآن، وإذا تصورنا أن الواحد من هؤلاء الحفاظ يحفظ عشرات الألوف من الأحاديث مع القرآن فأي جهد كانوا يبذلونه في الحفظ والاستذكار لتثبيت حفظهم!

(١) تاريخ بغداد ٨/ ١٣ - ١٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٧٩..

من أخبار أبي بكر الأنباري رحمه الله:

من أخبار سياسة العلماء أنفسهم بالحزم والجد حتى يبقوا على قوة الحفظ وجودة الذاكرة ما ذكره القاضي أبو يعلى عن محمد بن جعفر التميمي النحوي قال: قال أبو الحسن العروضي: اجتمعت أنا وأبو بكر بن الأنباري[1] عند الراضي على الطعام، وكان قد عرف الطباخ ما يأكل أبو بكر فكان يسوِّي له قليَّة يابسة، قال: فأكلنا نحن من ألوان الطعام وأطايبه وهو يعالج تلك القلية، ثم فرغنا وأُتينا بحلواء فلم يأكل منها شيئًا، وقام وقمنا إلى الحَيْس، وقمنا إلى حيس ماء نشربه، ولم يشرب إلى العصر فلما كان من العصر قال للغلام: الوظيفة، فجاءه بماء من الحِبّ[2]، وترك الماء المزمَّل بالثلج، فغاظني أمره فصحت صيحة، فأمر أمير المؤمنين بإحضارى وقال: ما قصتك؟ فأخبرته وقلت: هذا يا أمير المؤمنين يحتاج إلى أن يحال بينه وبين تدبير نفسه لأنه يقتلها ولا يحسن عِشْرتَها، قال: فضحك وقال: له في هذا لذة وقد جرت به العادة فصار إلفًا فلن يضره، ثم قلت: يا أبا بكر لِمَ تفعل هذا بنفسك؟ قال: أبقى على حفظى، فقلت له: قد أكثر الناس فى حفظك فكم تحفظ؟ قال: أحفظ ثلاثة عشر صندوقًا، قال محمد بن جعفر التميمي النحوي: وهذا ما لا يحفظ لأحد قبله ولا بعده، وكان أحفظ الناس لِلُغة ونحو وشعر وتفسير وقرآن، فحُدِّثت أنه كان يحفظ عشرين ومائة تفسير من تفاسير القرآن بأسانيدها[3].

ففي هذا الخبر دلالة على اهتمام العلماء بحفظ العلم والاحتفاظ به في الذاكرة، وإذا تعارض ذلك- في نظرهم- مع التمتع بأنواع الطعام فإنهم يقلِّلون من الطعام من أجل الاحتفاظ بقوة الحفظ وجودة الذاكرة، فهذا ابن الأنباري يتجنَّب أطايب الطعام والماء المثلج ليحتفظ بحفظه، وهذه النتيجة التي استظهرها من تصرفه هذا قد تكون مما نصح به بعض الأطباء وقد تكون مما عرفه العلماء بتجاربهم.

من أخبار أبي بكر بن أبي داود رحمه الله:

من ذلك ما أخرجه الخطيب البغدادي عن أبي القاسم الأزهري قال: سمعت أحمد بن إبراهيم بن شاذان يقول ـ في المذاكرة-: خرج أبو بكر بن أبي داود إلى

(١) هو محمد بن القاسم بن محمد الأنباري.

(٢) الحبُّ إناء من الفخار يبرد به الماء.

(٣) طبقات الحنابلة ٢/ ٧٠.

سجستان في أيام عمرو بن الليث، فاجتمع إليه أصحاب الحديث، وسألوه أن يحدثهم فأبى وقال: ليس معي كتاب، فقالوا له: ابن أبي داود وكتاب؟ قال أبو بكر: فأثاروني، فأمليت عليهم ثلاثين ألف حديث من حفظي، فلما قدمت بغداد قال البغداديون: مضى ابن أبي داود إلى سجستان ولعب بالناس، ثم فيَّجوا فَيْجًا[1] اكتروه بستة دنانير إلى سجستان ليكتب لهم النسخة فكُتِبت، وجئ بها إلى بغداد وعُرضت على الحفاظ بها فخطَّؤوني في ستة أحاديث، منها ثلاثة حدثت بها كما حُدِّثت وثلاثة أحاديث أخطأت فيها [2].

فهذا مثل من الحفظ القوي والذاكرة الحية، فقد أُجلِئ هذا الحافظ أبو بكر بن أبي داود إلى التحديث من حفظه فحدث بثلاثين ألف حديث، جاءت على الصواب ما عدا ثلاثة أحاديث أخطأ فيها وخالف كتابه.

وإذا نسبنا ثلاثة أحاديث إلى ثلاثين ألف حديث فإنها تُعدُّ لا شيء.

وما جاء في هذا الخبر من اهتمام الحفاظ ببغداد بهذا الأمر يدل على يقظة علماء الحديث وتحريهم البالغ للإتقان في أداء السنة النبوية، ورقابتهم الشديدة على معاصريهم حتى لا يكون هناك تهاون في الأداء يحمل على كثرة الوقوع في الخطأ، فقد بذل هؤلاء العلماء من أموالهم، وأرسلوا وفدًا من طلاب العلم لينسخوا الأحاديث التي أملاها الحافظ ابن أبي داود من حفظه حتى يعرضوها على كتابه الأصلي فيصححوا الخطأ للناس إن يوجد، ولكن لم يوجد خطأ منه إلا في هذا العدد القليل جدًا مع كثرة ما روى من حفظه، ونجح في الاختبار الصعب الذي فرضه عليه علماء الحديث.

إن هذا الاهتمام البالغ في ضمان الدقة في أداء الحديث النبوي يجعل ضعاف الإيمان يحجمون عن الدخول فيما لا يحسنون، والتقول بلا علم، أو التهاون في ضبط ما علموا، وهذا من أسباب ضبط السنة النبوية على مر العصور.

من أخبار أحمد بن عقدة رحمه الله:

من الحفاظ المشهورين الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد بن عقدة الكوفي، أخرج الخطيب البغدادي بإسناده عن أبي إسحاق الطبري قال: سمعت ابن الجعابي يقول: دخل ابن عقدة بغداد ثلاث دفعات، فسمع في الدفعة الأولى من إسماعيل

(١) أي أرسلوا جماعة من الناس.

(٢) تاريخ بغداد ٩/ ٤٦٦.

القاضي ونحـوه، ودخل الثانية في حيـاة ابن منيع، وطلب مني شيئًـا من حديث يحيى بن صاعـد وسألته أن يدفع إليَّ شيـئًا من حديثه لأحمله لابن عـقدة، فدفع إليَّ مسند علي بن أبي طالب، فتعجبت من ذلك وقلت في نفسي: كيف دفع إليّ هذا وابن عقدة أعرف الناس به مع اتساعه في حديث الكوفيين!

وحملته إلى ابن عقدة فنظر فيـه ثم ردَّه علي، فقلت: أيها الشيخ هل فيه شيء يُستـغرب؟ فـقال: نعم فـيه حـديث خطأ، فقلت: أخـبرني به، فـقال: والله لا أُعَرِّفنَّك ذلك حتى أجاوز قنطرة الياسرية، وكـان يخاف من أصحاب ابن صاعد ، فطالت عليّ الأيام انتظارًا لوعده، فلمـا خرج إلى الكوفة سرت مـعه، فلما أردت مفارقتـه قلت: وعدَك؟ فقال: نعم الحديث، عن أبي سعـيد الأشج عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، ومتى سمع منه؟ وإنما وُلد أبو سعـيد في الليلة التي مات فيها يحيى بن زكريا بن أبي زائـدة، فودَّعته وجئت إلى ابن صـاعد فقلت له: وُلد أبو سعيـد الأشج في الليلة التي مات فيـها يحيى بن زكريا بن أبي زائدة؟ فـقال: كذا يقولون: فـقلت له: في كتابك حديث عن الأشج عنه فـما حاله؟ فقـال: عرَّفك ذلك ابن عقدة؟ فقلت: نعم .

قال: ثم رجع يحيى إلى الأصول فوجد الحديث عنده على الصواب، أو كما قال[1].

فهذا مثل على قوة الحفظ وسرعة التذكر والخبرة الدقيقة في تاريخ الرجال وعلل الأسانيد، فالإسناد الذي انتقـده ابن عقدة فيه علة خفية وهي اسـتحالة سماع أبي سعيد الأشج من يحيى بن زكريا لكونه وُلد في الليلة التي توفي فيها يحيى، ومثل هذه العلة الخفية لا يدركها على البديهة إلا أفذاذ العلماء.

ولقد استفاد يحيى بن صاعد من هذا النـقد الجيد فأصلح كتابه، وكمَّل النقص الذي كان في الإسناد.

ومما ذُكر من أخـبار حفظ ابن عـقدة ما أخـرجه الخطيب البغـدادي من حديث القاضي أبي القاسم على بن المحسن التنوخي- من حفظه- قال: سمعت أبا الحسن محـمد بن عمـر العلوي يقول: كانت الرئاسـة بالكوفة في بني الفَـدَان قبلنا، ثم

(١) تاريخ بغداد ١٨/٥ -١٩.

فشت رئاسة بني عبيد الله ، فعزم أبي على قتالهم وجمع الجموع، فدخل إليه أبو العباس بن عقدة وقد جمع جزءًا فيه ست وثلاثون ورقة، فيها حديث كثير لا أحفظ قدره في صلة الرحم عن النبي ﷺ وعن أهل البيت وعن أصحاب الحديث، فاستعظم أبي ذلك واستنكره، فقال له: يا أبا العباس بلغني من حفظك للحديث ما استنكرته واستكثرته فكم تحفظ؟ فقال له: أنا أحفظ منسَّقًا من الحديث بالأسانيد والمتون خمسين ومائتي ألف حديث، وأذاكر بالأسانيد وبعض المتون والمراسيل والمقاطيع ستَّمائة ألف حديث[1].

فهذا مثال على قوة الحفظ وسعته، وقد قارب ابن عقدة كبار الحفاظ المشهورين من أمثال سفيان الثوري وأحمد بن حنبل والبخاريِّ وإسحاق بن راهوَيه.

وقد استفاد هذا الحافظ من سعة حفظه وأفاد طلاب العلم كثيرًا، وكان ممن استفاد منه رئيس العلويين بالكوفة في زمنه، حيث كان عازمًا على قتال الطائفة الذين نازعوهم رئاسة الكوفة، فتأثر بسماع الأحاديث والآثار الكثيرة التى أوردها عليه ابن عقدة في موضوع صلة الرحم، فكف عن عزمه ذلك وحقن دماء المسلمين.

وهكذا ينبغي للعالم أن يكون عنده في كل موضوع مادة كثيرة، وأن يحسن عرضها على من أراد دعوته، فإن في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ الشفاءَ من جميع أمراض القلوب.

من أخبار محمد بن عبد الواحد رحمه الله:

ممن اشتهروا بجودة الحفظ والذاكرة العلامة اللغوى المحدث أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد، ومن أخباره في ذلك ما ذكر الخطيب البغدادي: أنَّ أبا عمر الزاهد كان يؤدب ولد القاضي أبي عمر محمد بن يوسف، فأملي يومًا على الغلام نحوًا من ثلاثين مسألةً في اللغة وذكر غريبها وختمها ببيتين من الشعر، وحضر أبو بكر بن دريد وأبو بكر بن الأنباري، وأبو بكر بن مقسم عند أبي عمر القاضي، فعرض عليهم تلك المسائل فما عرفوا منها شيئًا وأنكروا الشعر فقال لهم القاضي:

(١) تاريخ بغداد ٥/ ١٧.

ما تقولون فيها؟ فقال له ابن الأنباري: أنا مشغول بتصنيف مشكل القرآن ولست أقول شيئًا، وقال ابن مقسم في ذلك، واحتج باشتغاله بالقراءات، وقال ابن دريد: هذه المسائل من موضوعات أبي عمر ولا أصل لشيء منها في اللغة، وانصرفوا.

وبلغ أبا عمر ذلك فاجتمع مع القاضي وسأله إحضار دواوين جماعة من قدماء الشعراء عيَّنهم له، ففتح القاضي خزانته وأخرج له تلك الدواوين، فلم يزل أبو عمر يعمد إلى كل مسألة ويخرج لها شاهدًا من بعض تلك الدواوين، ويعرضه على القاضي حتى استوفى جميعها، ثم قال: وهذان البيتان أنشدَناهما ثعلب بحضرة القاضي وكتبهما القاضي بخطه على ظهر الكتاب الفلاني، فأحضر القاضي الكتاب فوجد البيتين على ظهره بخطه كما ذكر أبو عمر، فانتهت القصة إلى ابن دريد فلم يذكر أبا عمر بلفظة حتى مات[1].

فهذا الخبر يدل على عمق أبي عمر الزاهد في اللغة والأدب وسرعة استحضار المعلومات، ومع ذلك لم يشتهر في التاريخ! فما أكثر العظماء في مختلف الفنون الذين طواهم التاريخ فلم يكن لهم ذكر إلا في عصرهم.

من أخبار الحافظين أبي عبد الله الحاكم والخليل بن عبد الله رحمهما الله:

من الحوار الجيد الذي يدل على اتساع المعرفة لدى الشيوخ والتلاميذ، الحوار الذي جرى بين أبي عبد الله الحاكم وتلميذه الخليل بن عبد الله الحافظ، قال الخليل بن عبدالله: وسألني -يعني شيخه الحاكم- في اليوم الثاني لما دخلت عليه، ويُقرأ عليه في فوائد العراقيين فقال: سفيان الثوري عن أبي سلمة عن الزهري عن سهل... حديث الاستئذان! فقال لى من أبو سلمة هذا؟ فقلت من وقتي: المغيرة بن مسلم السراج، قال: وكيف يروي المغيرة عن الزهري؟ فبقيت[2]، ثم قال لي: قد أمهلتك أسبوعًا حتى تتفكر فيه، قال: فتفكرت ليلتي حتى بقيت أكرر التفكر، فلما وقعت إلى أصحاب الجزيرة من أصحاب الزهري تذكرت محمد بن أبي حفصة فإذا كنيته أبو سلمة، فلما أصبحت حضرت مجلسه، ولم أذكر شيئًا حتى قرأت عليه نحو مائة حديث، قال: هل تفكرت فيما جرى؟ فقلت: نعم هو

(١) تاريخ بغداد ٢/٣٥٨.
(٢) أي انقطعت عن الكلام.

محمـد بن أبي حفصة، فتعـجب وقال لي: نظرت في حديث سفيـان لأبي عمرو البحيري؟ فقلت: لا، وذكرت له ما أمت في ذلك، فتحير وأثنى علي[1].

فهذا الخبر يدل على علم أبي عبد الله الحـاكم بالرواة، وفيه تعليم جيد لتلميذه الخليل بن عـبـد الله حيث جـرى الحوار بـينهمـا في اسم أبي سلمـة الراوي عن الزهري، فأمهله أسـبوعًا ليعرفـه بالدراسة والتأمل، وقد عرفـه الخليل بن عبد الله بطريقة تدل عـلى ذكاء وخبـرة علمية، حـيث بحث عن مواطن الشـيوخ فحـصر أسماء الرواة الذين يروون عن الإمام الزهرى من أهل الجزيرة فوجد محمد بن أبي حفصـة هو الذي يكنى بأبي سلمة فأخـبر به شيخـه الحاكم، وتعجب شيـخه من مقـدرته العلمية، حـيث عرف اسم الراوي بدون رجوع إلى الـكتب التي صرَّحَتْ باسم صاحب الكنيـة، وإنما عرف ذلك بتتبع أسـماء تلاميذ الزهري مـن أصحاب الجزيرة حتى عثر على من يكنى بهذه الكنية، وكـان ذلك باستعراض الذاكرة، كما يُفهم من الخبر.

من أخبار عبد الغني المقدسي رحمه الله:

ولقد كان العلمـاء حريصين على حفظ السنة النبوية ومعـرفة محتويات كتـبها، ومن أخبـارهم في ذلك ما ذكره الحـافظ ضياء الديـن المقدسي في ترجمـة الحافظ عبـدالغني المقدسي قـال: وسمعت شـيخنا الحافظ عـبد الغني يقـول: كنت يومًا بأصبهـان عند الحافظ أبي موسى[2] فجرى بيني وبين بعض الحـاضرين منازعة في حديث فقال: هو في صحيح البخـاري فقلت: ليس هو فيه، قال: فكتب الحديث في رقعة ورفـعها إلى الحافظ أبي مـوسى يسأله عنه، قال: فناولني الحـافظ الرقعة وقال: مـا تقول هل هذا الحـديث في البخـاري أم لا، قلت: لا، قال: فـخجل الرجل وسكت[3].

فهذا مثل لحـفظ السنة والخبرة بكتبها، كمـا أنه مثل على تواضع العلماء لأهل العلم وإن كـانوا بمنزلة التلامـيذ، فالحـافظ أبو موسى المديني لم يسـتنكف من أن

(١) سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٦٦-١٦٧.
(٢) يعني الحافظ المديني
(٣) ذكره الحافظ ابن رجب في طبقات الحنابلة ٤/ ٧.

يسأل تلميذه الحافظ عبد الغني عن الحديث المذكور، وفي سؤاله إياه أمام الناس رفع من شأن أهل التقدم في العلم، وقد كان يعلم تفوق الحافظ عبد الغني المقدسي في حفظ السنة.

ولقد كان الحافظ عبد الغني المقدسي يحفظ الأحاديث بأسانيدها ومتونها، قال عنه الضياء المقدسي: وشاهدت الحافظ غير مرة بجامع دمشق يسأله بعض الحاضرين وهو على المنبر: اقرأ لنا أحاديث من غير أجزاء فيقرأ الأحاديث بأسانيدها عن ظهر قلبه.

قال: وسمعت أبا طاهر ابن إسماعيل بن ظفر النابلسي يقول: جاء رجل إلى الحافظ - يعني عبد الغني- فقال: رجل حلف بالطلاق أنك تحفظ مائة ألف حديث، قال: لو قال أكثر لصدق[1].

وكان يحدث أحيانًا من حفظه، وأحيانًا يحدث من كتابه تورعًا خشية مداخلة العجب لنفسه، قال ابنه عبد الرحمن: سمعت بعض أهلنا يقول: إن الحافظ سئل: لِمَ لا تقرأ من غير كتاب؟ قال: أخاف العجب[2].

وهذا مثل من الحزم الرشيد في سياسة النفس وصيانتها عن مواطن الزلل، فإن الإعجاب بالنفس والتطلع إلى الجاه العلمي الرفيع والسمعة العالية مرض وبيل يحيل العمل من الصلاح إلى الفساد، فكان هذا الإمام حصيف الرأي سديد الفكر حينما التزم بالقراءة من كتابه مع كونه يحفظ ما فيه.

ومن أخبار محمد اليونيني رحمه الله:

ومن أمثلة استيعابهم دقائق ما في كتب السنة ما ذكره الحافظ ابن رجب نقلا عن الحافظ الذهبي قال: ولما قدم الملك الكامل على أخيه الأشرف جعل الأشرف يذكر للكامل محاسن الشيخ الفقيه[3] فقال: أشتهي أن أراه، فأرسل إليه إلى

---

(١) طبقات الحنابلة ٤/ ٧.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٤٩.
(٣) هو أبو عبد الله تقي الدين محمد بن أحمد اليونيني، والكامل هو محمد بن محمد الأيوبي، والأشرف هو موسى بن محمد الأيوبي.

بعلبك بطاقة فاستحضره، فوصل إلى دمشق، فنزل الكامل إليه وتحادثا بدار السعادة وتذاكرا شيئًا من العلم.

فذكروا مسألة القتل بالمثقَّل، وجرى ذكر حديث الجارية التي قتلها اليهودي فرضَّ رأسها بين حجرين فأمر رسول الله ﷺ بقتله، فقال الملك الكامل: إنه لم يعترف، فقال الشيخ الفقيه: في صحيح مسلم «فاعترف» فقال الكامل: أنا اختصرت صحيح مسلم ولم أجد هذا فيه، فقال: بلى، فأرسل الكامل فأحضر اختصاره لمسلم في خمسة مجلدات، فأخذ الكامل مجلدًا والأشرف آخر وعماد الدين بن موسك آخر، وأخذ الشيخ الفقيه مجلدًا، فأول ما فتحه وجد الحديث كما قال: فتعجب الكامل من سرعة استحضاره وسرعة كشفه، وأراد أن يأخذه معه إلى الديار المصرية، فأرسله الأشرف سريعًا إلى بعلبك، فقال الكامل: إنه لا يؤثر ببعلبك شيئًا، فأرسل الكامل إليه ذهبًا كثيراً[1].

فهذا مثال على اهتمام العلماء الكبير بالسنة، فقد كانوا يعلمون محتويات كتبها ومواضع الأحاديث فيها لكثرة اشتغالهم بها.

وموقف يُذكر للأمير الكامل وأخيه الأشرف لاهتمامهما بالعلماء، كما يُذكر للكامل اهتمامه بالسنة الذي دفعه إلى اختصار صحيح مسلم مما يدل على صلاحه.

***

(١) طبقات الحنابلة ٤/ ٢٧١.

معاناة العلماء
وتعرضهم للمشقة

هذا الموضوع يدور حول عرض صور من مواقف العلماء رحمهم الله تعالى في الصبر الجميل على ألوان الشدة والمعاناة التي واجهوها في أثناء طلب العلم.

موقف للحافظ أبي حاتم رحمه الله:

وذلك فيما ذكره الحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: سمعت أبي يقول: بقيتُ بالبصرة في سنة أربع وعشرين ومائتين ثمانية أشهر، وكان في نفسي أن أقيم سنة، فانقطعَتْ نفقتي فجعلت أبيع ثياب بدني شيئًا بعد شيء حتى بقيت بلا نفقة، ومضيت أطوف مع صديق لي إلى المشيخة، وأسمع منها إلى المساء، فانصرف رفيقي ورجعت إلى بيت خال، فجعلت أشرب الماء من الجوع، ثم أصبحت من الغد وغدا عليّ رفيقي فجعلت أطوف معه في سماع الحديث على جوع شديد، فانصرف عنى وانصرفت جائعًا، فلما كان من الغد غدا عليَّ فقال: مُرَّ بنا إلى المشايخ، قلت: أنا ضعيف لا يمكنني، قال: ما ضعفك؟ قلت: لا أكتمك أمري قد مضى عليَّ يومان ما طعمت فيهما شيئًا، فقال لي: قد بقي معي دينار فأنا أواسيك بنصفه ونجعل النصف الآخر في الكراء، فخرجنا من البصرة، وقبضت منه النصف دينار[1].

ففي هذا الخبر نجد أن الحافظ أبا حاتم محمد بن إدريس الرازي يصبر على حر الجوع من أجل طلب العلم، وقد كان بإمكانه أن يعمل بعض الوقت في طلب الرزق ولكنه لا يريد أن يصرف شيئًا من وقته في غير العلم.

ونجد في هذا الخبر صورة من التراحم والتعاطف والأخوّة الصادقة بين طلاب العلم، فقد كان صاحبه لا يملك غير دينار واحد فأعطاه نصفه وجعل النصف الآخر لأجرة انتقالهما إلى بغداد.

موقف آخر لأبي حاتم وصاحبيه رحمهما الله:

ومن صور هذه المعاناة ما ذُكر أيضًا عن عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: سمعت أبي يقول: لما خرجنا من المدينة من عند داود الجعفري صرنا إلى الجار[2] وركبنا

(١) الجرح والتعديل ١/ ٣٦٣- ٣٦٤.

(٢) يعني ما قرب من المنازل من الساحل (اللسان).

البحـر وكنا ثلاثة أنفس، أبو زهير المَرورَّوُذي -شـيخ- وآخر نيسابوري، فـركبنا البحر وكانت الريح في وجـوهنا فبقينا في البحر ثلاثة أشـهر، وضاقت صدورنا، وفني ما كان معنا من الزاد، وبقِيَتْ بقية، فخرجنا إلى البر فجعلنا نمشي أيامًا حتى فني ما كـان معنا من الزاد والماء، فمـشينا يومًا ولـيلة لم يأكل أحد منا شيـئًا ولا شربنا، واليوم الثانى كمثل، واليومَ الثالث، كل يوم نمشي إلى الليل فإذا جاء المساء صلينا وألقينا بأنفـسنا حيث كنا، وقد ضعفَتْ أبداننا من الجـوع والعطش والعياء، فلما أصبحنا اليوم الثالث جعلنا نمشي على قدر طاقتنا، فسقط الشيخ مغشيًا عليه، فجئنا نحركـه وهو لا يعقل فتركناه ومشينا أنا وصاحبي النيـسابوري قدر فرسخ أو فرسخين فـضعفتُ وسقطتُ مـغشيًا علي، ومضى صـاحبي وتركني، فلم يزل هو يمشي إذ بصر من بعـيد قومًا قـد قرَّبوا سفـينتهم من البر، ونزلوا على بئـر موسى ﷺ، فلما عاينهم لوَّح بثوبه إليهم فجاءوه معهم الماء في إداوة فسقوه وأخذوا بيده فقال لهم: الحقوا رفيقين لي قد ألقيا بأنفسهما مغشيًا عليهما.

فما شـعرت إلا برجل يصب الماء على وجهي فـفتحت عيني، فـقلت: اسقني فصب من الماء في ركـوة أو مشربة شـيئًا يسيـرًا فشربت ورجـعَتْ إليَّ نفسي ولـم يُرْوِنى ذلك القدر، فقلت: اسقنى فسقاني شـيئا يسيرا وأخذ بيدي، فقلت: ورائي شيخ مُلْقَى، قال: قد ذهب إلى ذاك جماعـة، فأخذ بيدي وأنا أمشي أجر رجلي، ويسقيني شـيئًا بعد شيء، حتـى إذا بلغت إلى عند سفينتهم وأتوا برفـيقي الثالث الشيخ، وأحسنوا إلينا، فبقينا أيامًا حتى رجعتْ إلينا أنفسنا.

ثم كتـبوا لنا كتابًا إلـى مدينة يقال لها «راية» إلـى واليهم، وزودونا من الكعك والسويق والماء، فلم نزل نمشي حـتى نفد ما كان مـعنا من الماء والسويق والكعك، فجعلنا نمشي جياعا عطاشا على شط البـحر، حتى وقعنا إلى سُلَحفاة قد رمى بها البحـر مثل الترس، فعـمدنا إلى حجر كـبير فضـربنا على ظهر السلحفـاة فانفلق ظهرها، وإذا فيها مثل صفرة البيض، فأخذنا من بعض الأصداف الملقى على شط البحر، فجعلنا نغترف من ذلك الأصفر فنتحسَّاه حتى سكن عنا الجوع والعطش.

(١) الجرح والتعديل ١/ ٣٦٤- ٣٦٦.

إلى أن ذكر وصولهم إلى مدينة الراية، وإكرام عاملها إياهم ثم وصولهم إلى مصر[1].

وهكذا تعرَّض أبو حاتم وصاحباه للموت مرتين وتحملوا تلك الشدائد والأهوال من أجل طلب العلم، وإن علمًا يحصل بسببه هذا البلاء الكبير لابد أن يرسخ في الأذهان، وأن يهتمَّ به أصحابه اهتمامًا بالغًا، فقد كان ثمنه باهظًا، بخلاف العلم الذي تُيَسَّر أسبابه فقد يهون على أصحابه.

موقف لمحمد بن طاهر رحمه الله:

ومن أخبار المعاناة في طلب العلم ما رُوي عن الحافظ محمد بن طاهر أنه قال: أقمت بِتنِّيس مدة على أبي محمد بن الحداد ونظرائه[2] فضاق بي فلم يبق معي غيرُ درهم، وكنت أحتاج إلى حبر وكاغد[3]، فترددت في صرفه في الحبر أو الكاغد أو الخبز، ومضى على هذا ثلاثة أيام لم أُطعم فيها، فلما كان بكرة اليوم الرابع قلت في نفسي: لو كان لي اليوم كاغد لم يمكني أن أكتب من الجوع، فجعلت الدرهم في فمي وخرجت لأشتري خبزًا فبلعته، ووقع عليَّ الضحك، فلقيني صديق وأنا أضحك، فقال: ما أضحكك؟ قلت: خير، فألحَّ عليّ وأبيت أن أخبره، فحلف بالطلاق لتصدقنِّي، فأخبرته فأدخلني منزله وتكلف أطعمة، فلما خرجنا لصلاة الظهر اجتمع به بعض وكلاء عامل تِنيِّس ابن قادوس، فسأله عني، فقال: هو هذا، فقال: إن صاحبي منذ شهر أمر بي أن أوصل إليك كل يوم عشرة دراهم قيمتها ربع دينار، وسهوت عنه، فأخذ منه ثلاثَمائةٍ وجاء بها[4].

فهذا مثل من المعاناة الشديدة من أجل مواصلة التعلم، وصورة مشرقة من التكافل بين الإخوة، والشعور البالغ بمشاعر الأصدقاء والإسراع في نجدة المعوزين ممن أخذ العلم كل أوقاتهم وحال بينهم وبين القوت الضروري فضلا عن لذيذ العيش. وفيه صورة من صورة الفرج بعد الشدة، وما أحلى وقع ذلك على نفس المهموم الذي تنازع قلبَه طموحٌ مهيمن نحو بلوغ الكمال في العلم، وضرورة ملحة نحو تلبية الاحتياجات الضرورية.

---

(١) الجرح والتعديل ١/ ٣٦٤-٣٦٦.
(٢) يعني ليتعلم منهم العلم
(٣) أي ورق.
(٤) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٦٧.

موقف للإمام أبي القاسم الطبراني رحمه الله:

ومن أمثلة المعاناة التي مر بهـا العلماء أثناء طلب العلم ما ذكره أبو بكر بن أبي علي قال: سـأل أبي أبا القاسم الطبـراني عن كثرة حـديثه فقـال: كنت أنام على البواري ثلاثين سنة[1].

وهكذا يكون طلب العلم، ثلاثون سنة ينام الإمام أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني علـى الحُصُر الصلبـة بدون فراش، ويجتـزئ بالقليل من الطعام كـما هو المعتاد في حياتهم.

وبهذا الصبر الطويل نالوا تلك الدرجة من الحفظ والإتقان والعلم الغزير.

من مواقف الحافظ ابن منده رحمه الله:

ومن الصعوبات التي كان يواجهها أهل العلم مـشقة نقل كتبهم من بلد لآخر، ومما رُوي في هذا الموضوع مـا ذكره الحافظ يحيى بن عبـد الوهاب قال: كنت مع عمي عبيـد الله في طريق نيسابور، فلما بلغنا بئر مَجَنَّة قـال عمي: كنت ههنا مرة فعرض لي شيخ جمَّال، فقال: كنت قافلا من خراسان مع أبى فلما وصلنا إلى ها هنا إذا نحن بأربعين وقـرًا من الأحمال، فظننا أنهـا منسوج الثـياب، وإذا خيـمة صغيرة فيها شيخ فإذا هو والدك[2]، فسأله بعضنا عن تلك الأحمال، فقال: هذا متاع قلَّ من يرغب فيه في هذا الزمان هذا حديث رسول الله ﷺ[3].

وهكذا كان العلمـاء في كل زمن يتكلفون حمل كتبـهم من بلد لآخر، وإن مما يضاعف مسئوليـتهم أن بضاعتهم ثقيلة المحمل، وتحتـاج إلى صيانة دائمة من الماء والآفات.

ولقد كان غالب مـا يحمله العلماء هو من كتبهم التي جمعـوا مادتها ورتبوها، وليست من الكتب التي اقتنوها فقط كما هو الحال في العصور المتأخرة التي شغف بعض أهل العلم فيها بجمع الكتب واقتنائها، وقلَّما يستوعبون القليل منها.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٢٢، والبوارى هي الحصر المنسوجة من القصب.

(٢) يعني الحافظ محمد بن إسحاق بن منده والد عبد الوهاب وعبيد الله.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٧/ ٣٧.

موقف للإمام أبي المظفر السمعاني رحمه الله:

ومن ذلك ما رُوي عن الإمام أبي المظفر السمعاني أنه حج على البَرِّية أيام انقطع الركب، فأُخِذ هو وجماعة، فصبر إلى أن خلَّصه الله من الأعراب، وحج وصحب الزنجاني، كان يقول: أسرونا، فكنت أرعى جمالهم فاتَّفق أن أميرهم أراد أن يزوج بنته فقالوا: نحتاج إلى أن نرحل إلى الحضر لأجل من يعقد لنا، فقال رجل منا: هذا الذي يرعى جمالكم فقيه خراسان، فسألوني عن أشياء فأجبتهم وكلمتهم بالعربية فخجلوا واعتذروا، فعقدت لهم العقد وقلت الخطبة ففرحوا، وسألوني أن أقبل منهم شيئًا فامتنعت، فحملوني إلى مكة وسط العام[1].

وهكذا تكون الأحوال العجيبة، فأناس يهبون أنفسهم لنفع الأمة وإصلاحها بجمع العلم النافع ونشره.. وأناس يعتدون على هؤلاء المصلحين فيسترقُّونهم ويحولونهم إلى خدم لهم، ويَحُولُون بينهم وبين إكمال رسالة الإصلاح التي وهبوا أنفسهم لها وتحملوا من أجلها المشاقّ والأخطار والمهالك.. ولله فى خلقه شؤون.

ويشاء الله تعالى أن يُحوِج أولئك الأعراب إلى فقيه يعقد لهم الزواج.. ويكتشفون أن من ولَّوه رعي جمالهم هو فقيه خراسان أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني ويكون ذلك سبب خلاصه منهم بعدما صيَّروه عبدًا لهم وصبر واحتسب أجره عند الله تعالى.

موقف للإمام أبى عبدالله البخاري رحمه الله:

ومن هذه الأمثلة ما ذكره محمد بن أبي حاتم قال: سمعت البخاري يقول: خرجت إلى آدم بن أبي إياس فتخلفَتْ عني نفقتي حتى جعلت أتناول الحشيش، ولا أخبر بذلك أحدًا، فلما كان اليوم الثالث أتاني آتٍ لم أعرفه فناولني صرة دنانير، وقال: أنفق على نفسك[2].

لقد كان بإمكان أبي عبد الله البخاري أن يشغل نفسه بأمور الدنيا، ولو فعل ذلك لبلغ فيها حد التفوق لفرط ذكائه وقوة حافظته، ولم يضطر نفسه إلى أكل طعام البهائم لتفرغه لطلب العلم.

(١) سير أعلام النبلاء ١٩/ ١١٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٤٨.

ولقد منَّ الله تعالى عليه بمَنْ واساه من غير أن يعلم من هو، وهو خير ساقه الله سبحانه إليه ليستمر في طلب العلم.

من مواقف الإمام محمد بن يحيى الذهلي رحمه الله:

ولقد كان أهل اليسار من طلاب العلم ينفقون أموالا كثيرة على طلب العلم، يقول الإمام محمد بن يحيى الذهلي حافظ خراسان: ارتحلت ثلاث رحلات، وأنفقت على العلم مائة وخمسين ألفًا[1].

وهكذا كانوا ينفقون أموالهم في طلب العلم لأنهم يعلمون أنهم - وهم في طلب العلم - في عمل صالح إذا صلحت النية، ثم يستمرون في اكتساب العمل الصالح عند نشر العلم.

من مواقف حجاج بن يوسف رحمه الله:

ومن أمثلة اكتفائهم بالقليل من الطعام والتفرغ لطلب العلم ماروي عن حجاج ابن يوسف المعروف بابن الشاعر أنه قال: جمعَتْ لي أمي مائة رغيف فجعلتُها في جراب، وانحدرتُ إلى «شبَّابة» بالمدائن فأقمت ببابه مائة يوم، كل يوم أجيء برغيف فأغمسه في دجلة فآكله، فلما نفد خرجت[2].

فهذا الخبر يحكي لنا صورة من التقشف والزهد الذي كان فيه طلاب العلم في العصور الأولى، فهذا العالم كان طوال تلك المدة التي كان يأخذ فيها الحديث في المدائن ليس له زاد إلا ذلك الخبز الذي يكتفي منه بمرة واحدة في اليوم، وليس له إدام إلا ماء نهر دجلة.

إن هذا اللون من الزهد هو الذي منح أولئك العظماء فراغ البال وصفاء الذهن والاستعداد الجيد للاستيعاب وسرعة التذكر، فالواحد منهم لا يفكر في أمر المعاش وإنما يحصر فكره كاملاً فيما يتلقاه من علم.

وبهذا الفراغ الذهني الكبير حصل عظماء العلماء على ما حصلوا عليه من العلم الواسع والفهم الثاقب.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٢٨٣.

(٢) تاريخ بغداد ٨/ ٢٤٠.

خبر المحمدين الأربعة في مصر رحمهم الله:

ومن الأمثلة الرائعة لصبر طلاب العلم على الشدائد ما رُوي عن أبي العباس البكري قال: جمَعَتْ الرحلة بين محمد بن جرير، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة، ومحمد بن نصر المروزي، ومحمد بن هارون الرويَّاني بمصر، فأرملوا ولم يبق عندهم ما يقوتهم، وأضرَّ بهم الجوع، فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون إليه، فاتفق رأيهم على أن يستَهِموا ويضربوا القرعة، فمن خرجت عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام، فخرجت القرعة على محمد بن إسحاق بن خزيمة، فقال لأصحابه: أمهلوني حتى أتوضأ وأصلي صلاة الخيرة، قال: فاندفع في الصلاة فإذا هم بالشموع، وخَصِيٌّ من قِبَل والي مصر يدقُّ الباب، ففتحوا الباب فنزل عن دابته، فقال: أيكم محمد بن نصر؟ فقيل: هو هذا، فأخرج صرة فيها خمسون دينارًا فدفعها إليه، ثم قال: أيكم محمد بن جرير؟ فقالوا: هو ذا، فأخرج صرة فيها خمسون دينارًا فدفعها إليه، ثم قال: أيكم محمد بن هارون؟ فقالوا: هو ذا، فأخرج صرة فيها خمسون دينارًا فدفعها إليه، ثم قال: أيكم محمد بن إسحاق بن خزيمة؟ فقالوا: هو ذا يصلى، فلما فرغ دفع إليه الصرة وفيها خمسون دينارًا.

ثم قال: إن الأمير كان قائلاً بالأمس فرأى في المنام خيَّالاً قال: إن المحامد طوَوْا كشْحَهم جياعًا، فأنفذ إليكم هذه الصِّرار، وأَقسَم عليكم إذا نفدَتْ فابعثوا إليَّ أمدَّكم[1].

وهكذا كانت حياة هؤلاء العلماء الكبار أيام الطلب، يجوعون مرة ويشبعون أخرى، ويكون آخر همهم الطعام، ولذلك لم يكونوا يدخرون منه ما يكفيهم لمدة طويلة.

ولقد كان اجتماع همهم على العلم من أكبر العوامل المساعدة في حصولهم على ذلك الكم الكبير من المرويات في العلم مع الإتقان.

ولقد اشتمل هذا الخبر على كرامة من الله تعالى لأولئك العلماء الأولياء حيث رأى أمير مصر في المنام من يخبره بشأنهم.

---

(١) تاريخ بغداد ٢/ ١٦٤ - ١٦٥.

موقف لأبي الفضل العجلي رحمه الله:

ومن أمثلة ذلك ما ذكره الخـلاَّل قال: كان أبو الفضل[1] في طريق ومعـه خبز وفانيذ[2] فأراد قُطَّاع الطريق أخذه منه فدفعهم بعـصاه، فقيل له في ذلك، فقال: لأنه كان حلالاً وربما كنت لا أجد مثله.

ودخل «كرمـان» في هيئة رثَّـة وعليه أخلاق وأسـمال[3]، فحُمِل إلى الملك، وقالوا: جاسوس، فـقال الملك: ما الخبر؟ قال: تسألني عن خـبر الأرض أو خبر السماء؟ فإن كنت تسألني عن خبر السماء فـ﴿ **كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** ﴾ [الرحمن: ٢٩] وإن كنت تسألني عن خبر الأرض فـ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ** ﴾ [الرحمن: ٢٦] فتعجب الملك من كلامه وأكرمه وعرض عليه مالاً فلم يقبله[4].

وهكذا تعرض أبو الفضل العجلي رحمه الله تعالى لهجوم اللصوص فدافع عمَّا معه من الطعام خشية أن لا يجد طعامًـا خاليًا من الشبهات، وكانوا عادة يتزودون بالخبز اليابس من بلادهم، وهذا دليل على ورعـه البالغ، وقد لامه بعض من علم بذلك لأن دفاعه عن ذلك الطعام قد يوهم اللصوص بأنه شيء غالي الثمن، وربما لو علم اللصوص بحقيـقة ذلك لزهدوا فيه كثيرًا، ولكن هؤلاء جمـيعًا لا يدركون المعنى الكبيـر الذي أحال ذلك الطعام الذي لا يلفت انتـباههم إلى شيء ذي قيـمة كبرى عند الشيخ وفي غاية الأهمية.

وقد جلب عليه زهده في اللباس بعض المتاعب، حيث اتُّهم بالجاسوسية وقُبض عليـه، وتعرض لمسـاءلة ذلك الملك الذي كـان عاقـلاً أريبًا فـعرف منزلة الشـيخ فأكرمه.

وموقف أخـير في العفـة والقناعة حـيث لم يقبل هذا الشيـخ هبة ذلك الملك، فأبان له ولغيره أن بساطة مظهره ليست لفقره وإنما هي لزهده في الدنيا.

---

(١) يعني الإمام عبد الرحمن بن أحمد العجلي (ابن بندار).

(٢) نوع من الحلواء يعمل بالنشاء.

(٣) الأخلاق هنا الثياب القديمة، والأسمال الثياب البالية.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٣٨/١٨.

من مواقف الحافظ ابن عساكر رحمه الله:

ومن أمثلة الجد والدأب في طلب العلم وتحصيله ما ذكره ابن القزويني عن والده مدرس النِّظَامية قال: حكى لنا الفَراويُّ قال: قدم علينا ابن عساكر فقرأ عليَّ في ثلاثة أيام فأكثر فأضجرني وآليت أن أغلق بابي وأمتنع، جرى هذا الخاطر لي بالليل، فقدم من الغد شخص فقال: أنا رسول رسول الله إليك، رأيته في النوم فقال: امض إلى الفَراوي وقل له: إنْ قَدِمَ بلدكم رجل من أهل الشام أسمر يطلب حديثي فلا يأخذْك منه ضجر ولا ملل، قال: فما كان الفراوي يقوم حتى يقوم الحافظ أولاً[1].

فهذا مثل على جد الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن ابن عساكر واجتهاده في تحصيل العلم وجمعه من أقطار الدنيا، فهو لا يمل ولا يسأم من طلب العلم وتدوينه لأنه وهب نفسه للعلم وجعله قضيته الكبرى التي تشغل باله ووقته، فهو لا يستريح إلا إذا قرأ أو سمع أو كتب.

ولقد كانت تلك الرؤيا الصالحة أقوى مساعد لهذا الحافظ الكبير على استخراج ما عند شيخه الفراوي، فما أعظم قدر الحافظ ابن عساكر الذي يوصي به رسول الله ﷺ!

وكان عظيم الفرح بإنتاجه العلمي في خدمة سنة رسول الله ﷺ وآثار السلف الصالح، يقول ولده أبو محمد القاسم بعد أن ذكر رحلات أبيه ورحلات زملائه الذين اعتمد عليهم في تحصيل ما لم يستطع الرحلة إليه.. يقول ولده: وأقبل على تلك الكتب فنسخ واستنسخ وقابل، وبقي من مسموعاته أجزاء نحو الثلاثمائة فأعانه عليها أبو سعد السمعاني، فنقل إليه منها جملة حتى لم يبق عليه أكثر من عشرين جزءًا، وكان كلما حصل له جزء منها كأنه قد حصل على ملك الدنيا[2].

وهكذا تكون فرحة العالم بالحصول على ما يريده من العلم وما يقدمه من إنتاج علمي.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٦٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٦٦.

لقد ظل هذا العالم الجليل أكثر عمره يجمع العلم حتى استطاع أن يحدث به وأن يدونه في كتبه التي أبرزها «تاريخ دمشق» الذي يُعدُّ من أعظم دواوين الإسلام.

موقف لحنبل بن عبد الله رحمه الله:

ومن أمثلة تضحيات العلماء فى سبيل العلم ابتغاء وجه الله تعالى ما ذكره ابن الأنماطي من أنه لما سمع مسند الإمام أحمد من الشيخ حنبل بن عبد الله أشار عليه[1] بالسفر إلى الشام وقال له: يحصل لك مال ويُقبل عليك وجوه الناس ورؤساؤهم، فقال: دعني، فو الله ما أسافر لأجلهم ولا لما يحصل منهم، وإنما أسافر خدمة لرسول الله ﷺ أروي أحاديثه في بلد لا تُروَى فيه.

وكان حنبل فقيرًا جدًا كما ذكر أبو شامة[2].

وهكذا أَبْدَى هذا العالم الجليل استعداده للسفر من العراق إلى الشام من أجل رواية سنة رسول الله ﷺ وهو لا يريد من وراء ذلك مالا ولاجاها مع شدة فقره، وإن هذا لهو شرف الدنيا والآخرة.

وكان حنبل قد سمع مسند الإمام أحمد كاملاً، يقول عن نفسه: لما وُلِدْتُ مضى أبي إلى الشيخ عبد القادر الجِيلِيّ وقال له: قد ولد لي ابن ما أسميه؟ قال: سمِّه حنبل، وإذا كبر سمِّعْه مسند أحمد بن حنبل، قال: فسمَّاني كما أمره، فلما كبرت سمَّعني المسند وكان هذا من بركة مشورة الشيخ[3].

ومن هذا نستفيد أنه ينبغي إعداد الأبناء منذ صغرهم للطموح نحو معالي الأمور، والإيحاء إليهم بذلك شيئًا فشيئًا حتى يستقر ذلك في أذهانهم.

فهذا عبد الله والد حنبل قد أخذ بمشورة العالم الرباني عبد القادر الجيلاني فسمى ابنه حنبلاً، وحمل في ذهنه الوصية الثانية وهي أن يسمِّعه إذا كبر مسند الإمام أحمد بن حنبل.

ومن الطبيعى أنه كلما سئل عن سبب التسمية ذكر ذلك حتى استقر في ذهن الغلام ومن حوله أنه سيصل إلى ذلك الشرف الكبير، وقد كان ذلك دافعًا قويًا له للوصول إلى هذا الهدف العالي.

---

(١) أي أشار ابن الأنماطي على حنبل.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٣٢ - ٤٣٣.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٣٢.

ومما هو غني عن البيان أن الوصول إلى هذا الهدف يحتاج إلى المقدمات المعروفة من إتقان القرآن واللغة العربية، والدخول في سلك أهل العلم والتخلق بأخلاقهم.

وهكذا ينبغي اختيار التسمية بأسماء العظماء المشاهير، وتركيز التربية من الصغر على الاقتداء بهم، ومحاولة القيام بوجوه الإصلاح التي قاموا بها.

من مواقف أبي الوقت عبد الأول السجزي رحمه الله:

من ذلك ما ذكره يوسف بن أحمد الشيرازي قال: لما رحلت إلى شيخنا رَحْلَةَ الدنيا[1] ومسند العصر أبي الوقت[2] قَدَّر الله لي الوصول إليه في آخر بلاد كرمانَ فسلمت عليه وقبَّلته وجلست بين يديه، فقال لي: ما أقدمك هذه البلاد؟ قلت: كان قصدي إليك، ومُعَوَّلي بعد الله عليك وقد كتبت ما وقع إليَّ من حديثك بقلمي، وسعيت إليك بقدمي لأدرك بركة أنفاسك، وأُحْظَى بعلو إسنادك.

فقال: وفقك الله وإيانا لمرضاته وجعل سعينا له وقصْدَنا إليه، لو كنتَ عرفتني حق معرفتي لما سلَّمت عليّ، ولا جلست بين يدي، ثم بكى بكاء طويلاً، وأبكى من حضر، ثم قال: اللهم سترنا بسترك الجميل، واجعل تحت الستر ما ترضى به عنا، يا ولدي تَعْلَمُ أني رحلت أيضًا لسماع الصحيح ماشيا مع والدي من «هراة» إلى الداوودي ببوشنج ولي دون عشر سنين، فكان والدي يضع على يديَّ حجرين، ويقول: احملهما، فكنت من خوفه أحفظهما بيديّ، وأمشي وهو يتأملني فإذا رآني قد عييت أمرني أن ألقي حجرًا واحدا، فألقي ويخفُّ عني، فأمشي إلى أن يتبين له تعبي فيقول لى: هل عييت؟ فأخافه وأقول: لا، فيقول: لِمَ تقصِّر في المشي؟ فأسرع بين يديه ساعة ثم أعجز، فيأخذ الآخر فيلقيه، فأمشي حتى أعطب، فحينئذ كان يأخذني ويحملني، وكنا نلتقي جماعة الفلاحين وغيرَهم فيقولون: يا شيخ عيسى ادفع إلينا هذا الطفل نركبه وإياك إلى بوشنج، فيقول: معاذ الله أن نركب في طلب أحاديث رسول الله ﷺ، بل نمشي وإذا عجز أركبته على رأسي إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ ورجاء ثوابه، فكان ثمرة ذلك من حسن نيته أني انتفعت بسماع هذا الكتاب وغيره، ولم يبق مِنْ أَقراني أحد سواي حتى صارت الوفود ترحل إلي من الأمصار.

---

(١) يعني كثير الرحلات.

(٢) هو الإمام الزاهد عبد الأول بن المحدث أبي عبد الله عيسى السجزي.

ثم أشار إلى صاحبنا عبد الباقي بن عبد الجبار الهروي أن يُقدِّم لي حلواء فقلت: يا سيدي قراءتي لجزء أبي الجهم أحب إليَّ من أكل الحلواء، فتبسم وقال: إذا دخل الطعام خرج الكلام وقدم لنا صحنا فيه حلواء الفانيذ، فأكلنا.

وأخرجت الجزء وسألته إحضار الأصل فأحضره وقال: لا تَخَفْ ولا تحرص فإني قد قَبرتُ ممن سمع عليَّ خلقًا كثيرًا، فسلِ الله السلامة، فقرأت الجزء وسررت به، ويسَّر الله سماع الصحيح وغيره مرارًا، ولم أزل في صحبته وخدمته إلى أن توفي ببغداد في ليلة الثلاثاء من ذي الحجة ودفناه بالشونيزية، قال لي: تدفنني تحت أقدام مشايخنا بالشونيزية.

ولما احتُضر سندته إلى صدري وكان مُسْتَهْتَرًا بالذكر[1] فدخل عليه محمد بن القاسم الصوفي، وأكبَّ عليه وقال: يا سيدي قال النبي ﷺ «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**» فرفع طرفه إليه وتلا ﴿**يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ**﴾ [يس: ٢٦، ٢٧] فدهش إليه هو ومن حضر من الأصحاب، ولم يزل يقرأ حتى ختم السورة، وقال: الله الله، وتوفي وهو جالس على السجادة[2].

في هذا الخبر الجليل مواقف:

أولها: ذلك الإحساس المرهف من هذا العالم الرباني، فحينما أثنى عليه يوسف الشيرازي وأظهر له الاحترام البالغ والتقدير الكبير بكى من خشية الله تعالى وأظهر التواضع بلوم النفس وتحقيرها.

إن العبد الذي يرزقه الله تعالى البصيرة واليقين يتذكر حال سماع الثناء عليه ورؤية مظاهر احترامه عظمة الله سبحانه، ووقوف العباد بين يديه يوم القيامة، وعرض الأعمال عليه، فيتجسَّمُ في خاطره ما يُخَيَّل إليه أنه جنوح نحو معصية أو تقصير في طاعة، وتتضاءل لديه كل أعماله الصالحة، فيعبِّر عن ذلك بالبكاء الذي يُعدُّ مظهرًا للضغوط الداخلية، التي مبعثها الخوف من الله تعالى وخشيته.

وهكذا بكى هذا الشيخ الجليل وأبكى من حوله، وأعطى ببكائه درسًا بليغًا في التواضع واتهام النفس وحضور القلب مع الله تعالى وتعظيمه وتقديره حق قدره.

(١) أي مولعًا به.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/٣٠٧ - ٣٠٩.

وقد ذكر أبو الوقت شيئًا مما مر عليه من المعاناة أثناء طلب العلم، وكيف كان أبوه يأخذه بذلك التدريب الرياضي الصعب، وقد كان أبوه الشيخ عيسى السجزي مربيًا حكيمًا صارمًا في تربيته، وكان من آثار تلك التربية الرياضية الصارمة أن ابنه تعوَّد من صغره على الخشونة وتحمُّل الشدائد، كما أنه قد شعر بأهمية ذلك الأمر العظيم الذي توجه إليه، ألا وهو تعلم السنة النبوية، لأنه إنما حمل هذه السنة الشريفة بألوان من المشقة والمعاناة، وما يحصل للإنسان بصعوبة بالغة فإنه جديرٌ به أن يحتفظ به، حتى لو كان من أمر الدنيا، فكيف به وهو من أمر الآخرة.

ولفتة كريمة من الشيخ عيسى السجزي حيث استعاذ بالله تعالى من أن يركب وهو ذاهب لسماع حديث رسول الله ﷺ، وهذا يدل على اهتمامه البالغ بتعظيم السنة النبوية وتقدير قيمتها، وبهذا الشعور القوى استفاد هو وأمثاله من السنة النبوية فوائد عظيمة، في سلامة الفكر والاستقامة في العمل.

من مواقف ابن طاهر القيسراني رحمه الله:

ومن أمثلة المعاناة في طلب العلم ما ذكره أبو مسعود عبد الرحيم الحاجي قال: سمعت ابن طاهر يقول: بُلْتُ الدم في طلب الحديث مرتين، مرةً ببغداد ومرة بمكة، كنت أمشي حافيًا في الحر فلحقني ذلك، وما ركبتُ دابة قط في طلب الحديث وكنت أحمل كتبي على ظهري، وما سألت في حال الطلب أحدًا، كنت أعيش على ما يأتي[1].

فهذا مثل من التضحية بالراحة وأخذ النفس بركوب الصعاب وتحمل الشدائد من أجل طلب العلم، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم.

فلقد أصبح محمد بن طاهر بن القيسراني من كبار العلماء المحدثين.

من مواقف الإمام عبد القادر الجيلاني رحمه الله:

ومن أخبار المعاناة التي مر بها العلماء في مرحلة طلب العلم ما ذكره ابن النجار قال: قرأت بخط أبي بكر عبد الله بن نصر بن حمزة التيمي: سمعت الشيخ

(١) تذكرة الحفاظ ص ١٢٤٣ ج ٤.

عبدالقادر[1] يقول: بلغَتْ بي الضائقة في الغلاء إلى أن بقيت أيامًا لا آكل طعامًا، بل اتبع المنبوذات، فخرجت يومًا إلى الشط فوجدت قد سبقني الفقراء، فضعفت وعجزت عن التماسك فدخلت مسجدًا وقعدت وكدت أصافح الموت، ودخل شاب أعجمي ومعه خبز وشواء وجلس يأكل، فكنت أكاد كلما رفع لقمة أن أفتح فمي، فالتفت فرآني فقال: بسم الله، فأبيت، فأقسم علي، فأكلت مقصِّرًا، وأحذ يسألني، ما شُغْلك ومن أين أنت؟ فقلت: متفقِّه من جيلان، قال: وأنا من جيلان، فهل تعرف لي شابًا جيلانيًا اسمه عبد القادر يُعرف بسبط أبي عبد الله الصومعي الزاهد؟ فقلت: أنا هو، فاضطرب لذلك وتغير وجهه، وقال: والله يا أخي لقد وصلت إلى بغداد ومعي بقية نفقة لي، فسألت عنك فلم يرشدني أحد إلى أن نفدَتْ نفقتي، وبقيت بعدها ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي إلا من مالك، فلما كان هذا اليوم الرابع قلت: قد تجاوزتني ثلاثة أيام وحلَّت لي الميتة، فأخذت من وديعتك ثمن هذا الخبز والشواء، فكل طيبًا فإنما هو لك وأنا ضيفك الآن، فقلت: وماذاك؟ قال: أمك وجَّهَتْ معي ثمانية دنانير والله ما خنتك فيها إلى اليوم، فسكَّنته وطيَّبتُ نفسه، ودفعت إليه شيئًا منها[2].

وهكذا تَعَرَّض هذا العالم الرباني للجوع الشديد أثناء طلب العلم، وحصلَتْ له هذه القصة العجيبة مع ذلك الشاب الجيلاني الذي ساقه الله تعالى إليه في وقت اشتداد الأزمة، وكان ذلك الشاب أمينًا حينما صبر على الجوع ثلاثة أيام ولم ينفق من الأمانة التي معه، كما كان الشيخ عبد القادر الجيلاني كريمًا سمحًا حينما طيَّب نفس ذلك الشاب الذى حمل له تلك الأمانة وأعطاه منها.

وفي هذا الخبر مثل من لطف الله تعالى بعباده الصالحين حيث قدَّر وصول ذلك المبلغ بعدما أشرف صاحبه على الموت من غير أن يعلم به ولا أن يبحث عنه.

***

(١) هو الإمام أبو محمد عبد القادر الجيلاني.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٤٤ - ٤٤٥.

توجيهات ومواقف
في
الأدب العلمى

لقد بلغ علماء الإسلام القمة في الأدب العلمي، وذلك في المعاملة بين العلماء أنفسهم، وبين العلماء وتلاميذهم.

ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم قدوة الأمة في هذا الجانب وغيره من معالي الأمور.

من مواقف عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

من مواقف الصحابة رضي الله عنهم في الأدب العلمي ما كان من حبر الأمة وعالمها المدقق المفسر الفقيه المحدث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وذلك في موقفه مع النبي ﷺ حينما صلى خلفه في الليل، يقول رضي الله عنه: صليت خلف النبي ﷺ من آخر الليل، فجعلني حذاءه، فلما انصرف قلت: وينبغي لأحد أن يصلى حذاءك وأنت رسول الله؟ فدعا الله أن يزيدني فهمًا وعلما[1].

وهذا مثل من الأدب الذي كان يتصف به ابن عباس، حيث وصل بهذا الأدب إلى مراحل عالية من العلم بعد ذلك.

من أخبار طلاب العلم من التابعين رحمهم الله:

وكان العلماء يحافظون على آداب العلم ويهتمون بالتربية الخلقية، فكانوا يُعلِّمون العلم والتربية في وقت واحد، فكان طلاب العلم آنذاك في غاية الأدب والأخلاق الحميدة.

ومن الأخبار في ذلك ما رُوي عن أبي حازم الأعرج سلمة بن دينار المدني قال: لقد رأيتنا في مجلس زيد بن أسلم أربعين فقيهًا، أدنى خصلة فينا التواسي بما في أيدينا، وما رأيت في مجلسه متماريين ولا متنازعين في حديث لا ينفعنا[2].

وإذا كان أدنى خصلة في هؤلاء الفقهاء أنهم قد ترفَّعوا عن الدنيا فأصبحوا متواسين بما في أيديهم منها فكيف بالخصال التي هي أعلى من هذه الخصلة العظيمة؟

إنها ثمرات العلم النافع تظهر في التربية القائمة على الأخلاق الحميدة.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٣٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣١٦.

من مواقف القاسم بن محمد رحمه الله:

من ذلك ما رَوى يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال: رأيت القاسم بن محمد يصلي فجاء أعرابي فقال: أيما أعلم أنت أم سالم؟[1].

فقال: سبحان الله كل سيخبرك بما علم، فقال: أيكما أعلم؟ قال: سبحان الله، فأعاد، فقال: ذاك سالم، انطلق فسَلْه، فقام عنه، قال ابن إسحاق: كره أن يقول: أنا أعلم، فيكون تزكيـة، وكره أن يقول: سالم أعلم مني فـيكذب، وكان القاسم أعلمهما[2].

والقاسم هو ابن محمد بن أبي بكر الصديق من أكابر العلماء في عصره، وأحد الفقهاء السبعة في المدينة.

وهذا الخبر يدل على ورعه وتواضعه وأدبه العلمي رحمه الله تعالى.

من مواقف الإمام مالك رحمه الله:

فالإمام مالك بن أنس رحمه الله على عظمته وشهرته الواسعة في العلم يرفض ما عرضه عليه أمير المؤمنين أبو جـعفر المنصور من حمل الناس على مذهبه، وفي ذلك يقـول محمـد بن عمـر الواقدي رحـمه الله: سمـعت مالكًا يقـول: لما حج المنصور دعاني فدخلت عليه فحادثته، وسـألني فأجبته، فقال: عزمت على أن آمر بكتبـك هذه - يعني الموطأ - فتنسخ نسـخًا، ثم أبعث إلى كل مـصر من أمـصار المسلمين بنسـخة، وآمـرَهم أن يعملوا بما فـيها ويـدَعوا ما سـوى ذلك من العلم المحـدث، فإني رأيت أنَّ أصلَ العلـم روايةُ أهل المدينة وعلمُـهم، قلت: يا أميـر المؤمنين لا تفـعل فإن الناس قـد سبقت إليـهم أقاويل وسـمعـوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سيق إليهم، وعملوا به ودانوا به، من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وإنَّ ردهم عما اعتـقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم، فقال: لعمرى لو طاوعتني لأمرت بذلك[3].

---

(١) يعني سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أحد الفقهاء السبعة في المدينة.

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٥٦.

(٣) سير أعلام النبلاء ٨/ ٧٠.

وهذا دليل على فقه مـالك الدقيق ومعرفتـه البالغة بطبائع النفـوس وما جبلت عليه من القناعة بما نشأت عليه من المفاهيم العلـمية، كما يدل على سعة نظره في تقدير آراء العلماء الاجتهادية وإن خالفت ما تقرر عنده.

ولِسَعة إدراكه وتجرده من حظ النفس لم يسـارع إلى اغتنام فرصة إقبال السلطان عليه لِيـحمل الناس على مذهبـه، بل أبدى العذر لمخالفـيه بما سبق من اخـتلاف الصحابة رضي الله عنهم في الاجتهاد وانتشار فتاويهم في بلاد الإسلام.

ومن الوصايا النافـعة في آداب العلم ما رواه ابن وهب رحمـه الله تعالى قال: سمعت مالكًا يقول: حقٌّ على من طلب الـعلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، والعلم حسن لمن رُزِق خيره، وهو قَسْم من الله تعالى، ولكن انظر ما يلزمك حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه، ولا تمكِّن الناس من نفـسك، فإن مِنْ سعادة المرء أن يوفَّق للخيـر، وإن مِنْ شقوة المـرء أن لا يزال يخطئ، وذلٌّ وإهانة للعلم أن يتكلم الرجل بالعلم عند من لا يطيعه[1].

وهذا تنبيـه من الإمام مـالك إلى ثمرة العلم في الدنيـا، وهي أن يكون طالب العلم متمـيزًا بسلوكه القويم الذي يقـوم على خشية الله تعـالى فى السر والعلن، ويَظهرُ في تعامله مـع الناس بمظهر الوقار والسكينة.. يتكلم حينمـا يحتاج الناس إلى كـلامه، ويزن كلمـاته قبل أن ينطـق بها، ويصـمت حينمـا يكون الخيـر في الصمت، لا يتـسرع مع المتسرعين، ولا تسـتهويه الإشاعات والغـرائب، إذا سمع خـبرًا وزنه بميـزان علمه الذي تعلمـه قبل أن يـشيـعه أو يبني عليـه الأحكام التي تلابسه، وأصبح بثمرات علمه نورًا يَهتدِي به أفراد مجتمعه ممن لم يبلغوا علمه.

فالعلم خيـر لمن رُزق الإخلاص لله تعالى، وأصبح مـدركًا أن العلم نور يضىء لصاحبه دربه في هذه الحياة، ويقوده لسعادة الآخرة.

والمرء العـاقل قد يخطئ، ولكن الوقـوع في الخطأ يدفعـه إلى الندامـة، وأخذ العبرة، وتلمُّس مواقع الخطو قبل أن يخطو على الطريق، ولكنه حينما يتابع الخطأ ولا يَعتبر فإن ذلك من علامات الشقاء.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٩٦، ترتيب المدارك ١/ ١٨٥.

ومن كلام الإمام مالك يتبين لنا أن من الأدب العلمي إظهار عزة العلم، وذلك بأن لا يضعه صاحبه إلا عند من يقدره ويستفيد منه.

فهذه كلمات رصينة، وتوجيهات حكيمة من هذا الإمام الجليل، ولله در مصعب بن عبد الله حينما قال في الإمام مالك:

يدَعُ الجواب فلا يراجَع هيبةً والسائلون نواكس الأذقان
عِزُّ الوقار ونور سلطان التُّقَى فهو المَهيبُ وليس ذا سلطان[1]

موقف للإمام ابن عيينة رحمه الله:

ومن أمثلة الأدب العلمي الرفيع ما رُوي عن سفيان بن عيينة رحمه الله أنه ذُكِر له حديث فقالوا: يخالفك فيه مالك، قال: أتقرنني بمالك؟ ما أنا وهو إلا كما قال جرير:

وابن اللَّبون إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ لم يستطع صولة البُزْل القناعيس[2]

يعني أنه ليس بمنزلة مالك في العلم كما أن البعير الصغير إذا قرن بالجمل الكبير الشديد القوة فلن يستطيع مسايرته.

موقف للحافظ يحيى بن معين رحمه الله:

ومن مواقف العلماء العلمية تواضعهم لمن يرونه أعلم منهم، ومن أمثلة ذلك ما رواه أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت يحيى بن معين يقول: ما رأيت منذ خرجت من بلادي أحدًا أشبه بالمشيخة الذين أدركت من أبي مسهر، والذي يحدث وفي البلاد من هو أولى بالتحديث منه فهو أحمق[3].

فهذا مثال على التواضع والأدب المتبادل بين العلماء، حيث بين يحيى بن معين أن من الأدب تقديم من هو أولى بالتعليم في البلد وعدم التقدم عليه.

ولابد أن يقيد ذلك فيما إذا لم تَدْعُ الحاجة إلى مشاركة أكثر من عالم في التعليم، أو كان لدى بعض العلماء من العلم ما ليس عند الآخرين الذين هم أقدم

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٠١.
(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ٦٦.
(٣) الجرح والتعديل ٦/ ٢٩، تاريخ بغداد ١١/ ٧٤.

منهم في علوم أخرى، فإنه والحالة هذه لابد من تعـدد المعلمين، وإن كان بعضهم أقل علما، ولكن مع مـراعاة الأدب مع العلماء الكبار والتـواضع لهم وأخذ رأيهم في الأمور المشكلة أو الجديدة.

موقف لأبي عبيد بن سلاَّم رحمه الله:

ومن أمثلة اهتمام العلماء بالآداب والفوائد العلمية ما رواه أبو بكر بن أبي الدنيا قال قال أبو عبيد القاسم بن سلام: زرت أحمد بن حنبل فلما دخلت عليه بيته قام فاعتنقني وأجلسني في صدر مجلسـه، فقلت: يا أبا عبد الله أليس يقال: صاحب البيت - أو المجلس - أحق بصدر بيته - أو مجلسه -؟ قال: نعم يقعُد ويُقعِد من يريد، قال: فقلت في نفسي: خذ إليك أبا عبيد فائدة، ثم قلت: يا أبا عبد الله لو كنتُ آتيك على حق ما تستحق لأتيتك كل يوم، فقال: لا تقل ذاك فإن لي إخوانا مـا ألقاهم في كل سـنة إلا مرة، أنا أوثق في مـودتهم ممن ألقى كل يوم، قـال: قلت: هذه أخرى يا أبا عبـيد، فلما أردت القيام قـام معي، قلت: لا تفعل يا أبا عبـد الله، قال فقـال: قال الشعـبي: مِنْ تمام زيارة الزائر أن يُمشَى مـعه إلى باب الدار يؤخذَ بركابه، قال قلت: يا أبا عبد الله مَن عن الشعبي؟ قال: ابن أبي زائدة عن مجالد عن الشعبي، قال قلت: يا أبا عبيد هذه ثالثة[1].

فهذا مـثل من الآداب المرعية عند العلمـاء والاحترام المتبادل بينـهم، وحرصهم على الفوائد العلمية والتربوية.

من مواقف الإمامين عبد الله الأنصاري وناصر المروزي رحمهما الله:

ومن ذلك ما رُوي عن الإمام أبي إسماعيل عبد الله الأنصاري قال: دخلت على الإمام ناصر المروزي بنيـسابور، وكان مجلسه غـاصا بتلامذته، واحتفَّ به الفـقهاء وكـان يُدرِّس ويقول: رُوي عن أبي بـكر الصديق رضي الله عنـه أنه كان يقـرأ في الركعة الثالثة من صلاة المغرب ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾ [طه: ١١٤] - قال: فقلت - أيَّد الله الشيخ الإمام - أحـديثُ عهد أنت بهذا الحـديث وهو على ذُكْرِك؟[2] فقال: لا، فقلت:

(١) طبقات الحنابلة ١/ ٢٥٩.

(٢) أي مازلت تذكره.

كان يقرأ في الركعة الثالثة من صلاة المغرب ﴿**رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**﴾ [آل عمران: ٨]، فقال: صدقت ورجع إلى قولي، وحث القوم على إثباته وتعليقه، ثم بكَّرت إليه من غد هذا اليوم فرحب بي وأعلى محلِّي، وأجلسني فوق جماعة زهاء سبعين، كنت بالأمس جالسًا دونهم، ومدحته بقصيدة، وواظبت على الاختلاف إليه وأخذت الفقه عنه مدة[١].

ففي هذا الخبر مثل من الأدب العلمي يقدمه الإمام أبو إسماعيل الأنصاري يوم أن كان طالبا، فحينما أنكر على شيخه ذلك الأثر تلطَّف في تنبيهه بهذا الأسلوب المهذب.

وفى هذا الخبر تواضعٌ جليل من شيخه الإمام ناصرِ المروزي حيث رجع إلى كلام تلميذه ولم يتعصب لرأيه، وهذا مثل من صلاح الشيوخ والتلاميذ ودليل على سمو التربية التي كانوا يتلقونها في أيام دراستهم.

من مواقف الإمامين عبد الله بن المبارك وحماد بن زيد رحمهما الله:

من ذلك ما رواه إسماعيل الخطبِي قال: بلغني عن ابن المبارك أنه حضر عند حماد بن زيد، فقال أصحاب الحديث لحماد: سَلْ أبا عبد الرحمن أن يحدثنا، فقال: يا أبا عبد الرحمن، تحدثهم فإنهم قد سألوني قال: سبحان الله يا أبا إسماعيل أُحدِّث وأنت حاضر؟ قال: أقسمت عليك لتفعلَنّ، فقال: خذوا، حدثنا أبو إسماعيل حماد بن زيد، فما حدَّث بحرف إلا عن حماد[٢].

فهذا مثل من أمثلة الأدب العلمي الرفيع بين الشيوخ والتلاميذ حيث يحترم التلاميذ شيوخهم ويستصغرون أنفسهم أمامهم وإن بلغوا مرتبة عالية من العلم.

موقف للإمام عطاء بن أبي رباح رحمه الله:

ومن آداب علماء السلف التي كانوا يراعونها، الإنصات إلى المحدث وإن كان أصغر من السامع، وفي ذلك يقول عطاء بن أبي رباح رحمه الله تعالى: إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كأني لم أسمعه وقد سمعته قبل أن يولد[٣].

---

(١) طبقات الحنابلة ٣/ ٦١ - ٦٢.
(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٣٩.
(٣) سير أعلام النبلاء ٥/ ٨٦.

توجيهات ومواقف
في
النقد العلمى

النقد العلمي فَنٌّ رفيع لا ينبغي الإقدام عليه إلا من المتقدمين في العلم، لأن الناقد يتعرض بفكره لفكر الآخرين لنصر قضايا وإبطال قضايا أخرى، فإذا لم يكن متمكنا في العلم فشل في أثناء الطريق وأحدث آثارًا سيئة في الحياة العلمية، لكنه إذا كان متمكنا في العلم مخلصا في مقصده وأحسن العرض في نصر القضية التي يريد نجاحها فإنه يسهم في تصحيح المفاهيم الفكرية التي قد يداخلها شيء من الخطأ، وبالتالي يسهم في تقويم التوجهات السياسية والاجتماعية.

وإن من أهم مجالات النقد العلمي مجال المناظرات، ولقد كان للمناظرات أثر كبير في تقريب وجهات النظر بين المختلفين، وإقرار الصواب وإزالة الخطأ، ونصر الحق وخذلان الباطل، لأنها مواجهة صريحة أمام الملأ، فلا يمكن معها استغفال العقول ولا تلبيس الحق بالباطل.

من مواقف حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

إن من أبرز المناظرات في المجال العلمي والسياسي ما قام به حبر الأمة عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما من مناظرة الخوارج، وقد أخرج خبر ذلك الإمام عبدالرزاق الصنعاني عن عكرمة بن عمار قال: حدثنا أبو زميَل الحنفي قال: حدثنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما اعتزلت الحرورية[1] فكانوا في دار على حِدَتِهم قلت لعلي: يا أمير المؤمنين أبْرِدْ عن الصلاة[2] لعلي آتي هؤلاء القوم فأكلمهم، قال: إني أتخوفهم عليك، قلت: كلا إن شاء الله.

قال: فلبست أحسن ما أقدر عليه من هذه اليمانية، قال: ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة، قال: فدخلت على قوم لم أر قط أشد اجتهادا منهم، أيديهم كأنها ثَفَن الإبل[3] ووجوههم مُعْلَمة من آثار السجود.

قال: فدخلت فقالوا: مرحبًا بك يا ابن عباس: ما جاء بك؟ قلت: جئت أحدثكم عن أصحاب رسول الله ﷺ، عليهم نزل الوحي، وهم أعلم بتأويله، فقال بعضهم: لا تحدثوه، وقال بعضهم: والله لنحدثنَّه.

(١) الحرورية هم الخوارج الذين خرجوا على أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه.

(٢) أي أخر صلاة الظهر.

(٣) أي كأنها رُكب الإبل من الخشونة.

قال: قلت: أخبـرونى ما تنقمون على ابن عـم رسول الله ﷺ وختنه[1] وأول من آمن به، وأصحـابُ رسول الله ﷺ معـه؟ قالوا: ننقم عليـه ثلاثا، قال: قلت وما هن؟ قالوا: أولهن أنه حكَّم الرجال في دين الله وقد قال الله: ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ**﴾ [الأنعام: ٥٧، يوسف: ٤٠, ٦٧] قال: قلت وماذا؟ قالوا: وقاتل ولم يسْبِ ولم يغنم، لئن كانوا كفارا لقد حلَّت له أمـوالهم، ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم، قال: قلت وماذا؟ قالوا: مَحـا نفسه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين.

قال: قلت: أرأيتم إن قـرأت عليكم من كتاب الله المحْكَـم، وحدثتكم من سنة نبيه ﷺ ما لا تنكرون أترجعون؟ قالوا: نعم.

قال: قلت: أما قولكم حكَّم الرجال في دين الله فإن الله تعالى يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ**﴾ [المائدة: ٩٤، ٩٥] وقال في المرأة وزوجها ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا**﴾ [النساء ٣٥] أنشدكم الله أحكم الرجال في حقن دمائهم وأنفسهم وإصلاح ذات بينهم أحق أم في أرنب ثمنها ربع درهم؟ قالوا: اللهم بل في حقن دمائـهم وإصلاح ذات بينهم، قال: أخَرَجْتُ من هذه؟ قالوا: اللهم نعم.

قـال: وأما قـولكم إنه قاتل ولم يَسْب ولـم يغنم، أتَسْبُـون أمكم عائشـة؟ أم تستـحلون منها ما تسـتحلون من غيـرها فقد كفـرتم؟ وإن زعمتم أنهـا ليست أم المؤمنين فقد كفرتم وخرجتم من الإسلام، إن الله يقول: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**﴾ [الأحزاب: ٦] فأنتـم مترددون بين ضلالتين فـاختاروا أيتهما شئتم، أَخَرَجْتُ من هذه؟ قالوا: اللهم نعم.

---

(١) أي زوج بنته.

قال: وأما قـولكم مَحَا نفسه من أمـير المؤمنين فإن رسول الله ﷺ دعـا قريشًا يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتابًا، فقال: «**اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله**»، فقـالوا: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله مـا صددناك عن البـيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، «**فقال: والله إني لرسول الله حقـا وإن كذَّبتموني، اكتب يا علي محمـد بن عبد الله**» فرسول الله ﷺ كـان أفضل من علي رضي الله عنه، أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم، فرجع منهم عشرون ألفا وبقي منهم أربعة آلاف فقُتِلوا[1].

فهـذا الخبر العظيم يدل أولا عـلى جرأة عبـد الله بن عباس رضي الله عنهـما الفائقة وشجاعته الفذة، فقد أقدم على الخروج إلى الخوارج ومناظرتهم وحده، مع أن هناك احتمالاً أن يعتدوا عليه بالقتل أو بما دون ذلك، ولقد بلغ منتهى الشجاعة والإقدام حينما وصفهم أثناء المناظرة بالضلال.

ثم إن هذا الخبر دليل على غـزارة علم ابن عباس وعمق فهمـه، فقد أدرك من عرض الخوارج لعقـيدتهم أنهم على ضلال، واستحضر حـالاً من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ما ينقض قولهم، ويبطل رأيهم، وكان موفقًا في عرض تلك الأدلة وإلزام المخاصمين بما يترتب عليها من أحكام.

ولما كان ابن عباس يعرض الحق الذي لا يمكن نقضه فإن المخدوعين من الخوارج الذين كـانوا يظنون أنهم عـلى الحق وليس لهم هَوًى في الشـذوذ والانحـراف لما سمعوا ذلك الحق رجـعوا إليه وعرفوا أنهم على باطل، وكان عـددهم كبيرا، فلله در حبر الأمة، ما أبلغ حجته، وما أنصع بيانه، وما أقوى جنانه!!

وبهذا الحوار الناجح رجع أكثر الخوارج ولم يبق منهم إلا القليل الذين قتلوا يوم النهروان، وكانوا بقيادة عبد الله بن وهب الراسبي.

فكم وفَّر ابن عـباس على الأمة من جـهد! وكم حقن لهـا من دماء. إن أولئك الخوارج الذين رجعوا إلى الحق لو ظلوا على ضلالهم وعلى تبعية رؤسائهم لتسلَّطوا على الأمة، وإن قتل هؤلاء أو هزيمتهم لا بد أن يقدِّم فيـها أهل الحق عددا كبيرا من

(١) مصنف عـبد الرزاق ١٠/ ١٥٧ رقم ١٨٦٧٨، وقال الهيـثمي: رواه الطبراني وأحمـد ببعضه ورجـالهما رجال الصحيح -مجمع الزوائد ٦/ ٢٣٩-. وما جاء في هذا الخبر من أن عددهم أربعة وعشرون ألفا فيه مبالغة، والصـواب ما جاء في روايات أخرى من أن عددهم كان أربعة آلاف ثم زادوا حـتى صاروا ستة آلاف أو ثمانية آلاف كما تقدم في موضوع الخوارج.

الشهداء، إضافة إلى أن هلاكهم وهم على ضلالتهم يُقدِّمهم إلى النار، فبذلك يكون ابن عباس سببًا في إنقاذهم من النار، وفي إنقاذ الأمة من شرهم وبلائهم.

ولقد كانت محاورة ابن عباس مع قادتهم، لأنه لن يتمكن من حوارهم جميعا، ولقد انقسم قادتهم قبل بدء الحوار فتميز أصحاب الهوى المنحرف بمشورتهم على بقية القادة أن لا يحاوروه، وتميز المضلِّلُون الذين يريدون اتباع الحق وأخطؤوا بإصرارهم على الحوار، فكان مجرد وصول ابن عباس إليهم سببًا في تفرق رأيهم، مما يدل على ضحالة معتقدهم وغلبة العواطف عليهم.

ومن براعة ابن عباس التي ظهرت في ذلك الحوار أنه لم يُجبْ على كل سؤال لهم بمفرده، بل استوعب اعتراضاتهم الثلاثة، ثم قام بنقضها، ولو أنه أجاب على الاعتراض الأول لربما توقفوا وأمسكوا عن بيان الاعتراضين الأخيرين، ولم يتوصل إلى إقناعهم بما يريد.

وهكذا كان دور العلم بارزا ورائدا في ذلك الصراع الذي نشب بين الخوارج من جهة والخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه من جهة أخرى، فكان العلم النافع الذي حمله ابن عباس ومَثَّله أبلغ تمثيل أمضى في الأعداء من جميع الأسلحة، وأهدى للحيارى المخدوعين من طلاسم الجهل وشعارات أنصاف المتعلمين.

ومن مواقف عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في سداد الرأي والنظر إلى النتائج ما رواه يزيد بن الأصم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قدم على عمر رجل فجعل عمر يسأله عن الناس، فقال: يا أمير المؤمنين قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا، فقلت: والله ما أحب أن يتسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المسارعة.

قال: فزبرني عمر[1]، ثم قال: مه، فانطلقت إلى منزلي مكتئبًا حزينا، فقلت: قد كنت نزلت من هذا الرجل منزلة، فلا أراني إلا قد سقطت من نفسه، قال: فرجعت إلى منزلي فاضطجعت على فراشي حتى عادنى نسوة أهلي وما بي وجع وما هو إلا الذي تقبَّلني به عمر.

قال: فبينما أنا على ذلك أتاني رجل فقال: أجب أمير المؤمنين، قال: فخرجت فإذا هو قائم ينتظرني، قال: فأخذ بيدي، ثم خلا بي فقال: ما الذي كرهت مما

(١) يعنى نهرني.

قال الرجل آنفـا؟ قال: فقلت: يا أمـير المؤمنين إن كنت أسأت فـإني أستغـفر الله وأتوب إليه وأنزل حـيث أحبـبت، قال: لتـحدثني بالذي كرهت ممـا قال الرجل: فقلت: يـا أمير المؤمنين مـتى تسارعـوا هذه المسارعـة يحيفـوا ومتى مـا يحيـفوا يختصموا، ومتى ما يختصموا يختلفـوا، ومتى ما يختلفوا يقتتلوا، فقال عمر: لله أبوك لقد كنت أكاتمها الناس حتى جئت بها[1].

ففي هذا الخبر بيان دقة فقه ابن عـباس وسداد رأيه حيث وافق رأيه ما كان يجول في خاطر أميـر المؤمنين عمر وهو الرجل الملهم، فإن مسارعـة الناس في أخذ القرآن من غيـر تفهم لأحـكامه ولا تأثر بمواعظه وعِـبره يبـعث على التنافس في مبـلغ ما حفظوه من القرآن من غير تدبر ولاَ وعي بمقاصِـده، فينمو في أفكارهم مقدار الحفظ بسرعة بينمـا ينمو في قلوبهم مقدار الإيمان والتقـوى ببطء، فعند ذلك تبرز حظوظ النفس ويكثر التفاخر، وتتعدد الآراء التي لا ترتبط بأصول من الكتاب والسنة، فيقع الاختلاف لكثرة الآراء وقلة الورع مما قد يؤدي إلى حدوث القتال بين طلاب العلم.

أما أهل الفقه الذين يسيرون على الأصول المرعية في أخذ القرآن فإنهم كانوا لا يتجاوزون آية في الحفظ حتى يفقهوا مقـاصدها كما قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يعلموننا القرآن أنهم ما كانوا يتـجاوزون عشر آيات حتى يفقهوا معانيها ويعـملوا بها، قال فتعلمنا العلم والعمل، أو كمـا قال: وقال الإمام مالك ابن أنس رحـمه الله: بلغني أن ابن عـمر مكـث على سورة البـقرة ثمـاني سنين يتعلمـها[2]، وإنما ظل هذه المدة الطويلة لاشـتغاله بـفهم مقـاصد القـرآن وتطبيق أحكامه ومواعظه.

من مواقف الإمام الشافعي رحمه الله:

من ذلك ما رواه أبو العـباس الأصم عن الربيع بن سليمـان قال: دخلت على الشافـعي وهو مريض فسـألني عن أصحابنا، فـقلت: إنهم يتكلمون، فقـال: ما ناظرت أحدًا على الغلبة، وبودِّي أن جميع الخلق تعلموا هذا الكتاب -يعني كتبه- على أن لا يُنسب إليّ منه شيء[3].

---

(١) مصنف عبد الرزاق ١١ رقم ٢٠٣٦٨.

(٢) الموطأ ١/ ٢٠٥، كتاب القرآن، باب ما جاء في سجود القرآن.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٧٦.

فهذا مثال لما كان يتصف به الإمام الشافعي من الإخلاص لله تعالى والتجرد من حظ النفس، والعمل من أجل الوصول إلى الحق وخدمة الإسلام، فهو حينما يناظر مخالفيه لا يحمل في فكره حب الغلبة والانتصار عليهم، وإنما الذي يكون ماثلا أمامه هو الرغبة في ظهور الحق سواء كان معه أو مع مخالفه.

ولا شك أن هذا الإخلاص والتجرد كان له الأثر البالغ في تفوقه في مجال المناظرة، لأنه قد أحضر قلبه مع الله تعالى، واستصحب رقابته عليه، فهو بذلك يكون مؤيَّدًا بتوفيق الله سبحانه وإلهامه.

وأبلغ من ذلك ما رُوي عنه أنه قال: «ما ناظرت أحدًا إلا أحببت أن تكون الحجة معه» فإن هذا يبين تجرده الكامل للحق ورغبته في الوصول إليه ولو على لسان المخالفين، فهو قد بذل وسعه في معرفة الحق عن طريق العلم، والمناظراتُ طريق من طرق العلم، فإذا أوصلَتْه إلى معرفة الحق الذي كان يجهله فهذا عنده مكسب كبير.

فهذا الفرق كبير بين من يناظر ليعرف الحق ثم يلزمه سواء كان معه أو مع مخالفه، ومن يناظر للانتصار لرأيه أو رأي إمامه أو مذهبه سواء كان ذلك صوابًا أو خطأ.

وفى بيان آداب المناظرة يقول يونس الصدفي: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يومًا في مسألة، ثم افترقنا ولقيني فأخذ بيدي ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نتفق في مسألة؟!

ذكره الذهبي وقال: هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام وفقه نفسه، فمازال النظراء يختلفون[1].

ففي هذا الخبر يبين لنا الإمام الشافعي أمرا مهمًا، وهو أن لا يكون الخلاف في الرأي والمناظرةُ على ذلك سببًا في إضعاف الأخوة الإسلامية بين المختلفين، فالأخوة الإسلامية ثابتة بأدلتها الشرعية، ولا يجوز أن يؤثر عليها الخلاف في القضايا العلمية، فالدافع إلى الخلاف هو الاجتهاد للوصول إلى الصواب، فإذا كان كل واحد من المتناظرين يريد حقًا الوصول إلى الصواب، فإن عثوره على ذلك عن طريق مُناظِره يزيده حبًّا له، وبالتالى فإن الأخوة الإسلامية لا تتأثر مع الخلاف والمناظرة إلاَ إذا كان المختلفون أو بعضهم من أصحاب الهوى المنحرف.

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/١٦

موقف للحافظ يحيى القطان رحمه الله:

إن من المواقف العلمية ما كان في مجال النقد الهادف الذي يدل على سعة العلم وإرادة تنقية سنة رسول الله ﷺ من الخطأ والتحريف.

فمن ذلك ما كان بين عفان بن مسلم ويحيى بن سعيد القطان، وقد أخرج خبر ذلك محمد بن الحسن بن علي بن بحر قال: حدثنا الفلاس قال: رأيت يحيى يومًا حدث بحديث فقال له عفان: ليس هو هكذا، فلما كان من الغد أتيت يحيى، فقال: هو كما قال عفان، ولقد سألت الله أن لا يكون عندي على خلاف ما قال عفان.

قال الإمام الذهبي: قلت: هكذا كان العلماء، فانظر يا مسكين كيف أنت عنهم بمعزل[1].

فهذا موقف جليل من يحيى القطان يدل على تجرده من حظ النفس وتخلقه بخلق الإيثار، فالإيثار كما أنه يكون في المال ومتاع الدنيا فإنه يكون في السمعة والجاه، وقد يسخو الإنسان بالمال ويؤثر به على نفسه، ولكنه لا يسخو بالجاه ولا يؤثر غيره به على نفسه، لأن تعلق نفوس البارزين به أقوى من تعلقهم بالمال.

وفي هذا الخبر نجد يحيى القطان قد آثر الحفاظ على جاه عفان بن مسلم أن يُخدش وعلى سمعته العلمية أن تُثلم، فسأل الله تعالى أن يكون الحديث المختلف عليه على ما قاله عفان، فكان على ما أحب يحيى، وحصل بذلك على أجر هذه النية الصادقة والإيثار الجميل.

ولقد كان إعجاب الإمام الذهبى بهذا الخبر كبيرا حيث قال: «هكذا كان العلماء فانظر يا مسكين كيف أنت عنهم بمعزل» وهو بهذا يُنحي باللائمة على من لم يبلغوا هذا المستوى الرفيع من العلماء الذين يخالفون الصواب وقد يلبِّسون الحق حفاظًا على سمعتهم العلمية وجاههم المكتسب من العلم.

من مواقف يحيى بن معين ونعيم بن حماد رحمهما الله:

من ذلك ما رواه الحسين بن عُلَيل قال: حدثنا يحيى بن معين قال: أخطأ عفان في نيف وعشرين حديثا، ما أعلمت بها أحدا وأعلمته سرًا.

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٤٨ - ٢٤٩، تاريخ بغداد ١٢/ ٢٧٥.

وكذلك قال: مـا رأيت على رجل خطأ إلا سترته وأحببت أن أزين أمره، وما استقبلت رجلا في وجهه بأمـر يكرهه ولكن أبين له خطأه فيما بيني وبينه فإن قبل ذلك وإلا تركته[1].

فهـذا دليل على غزارة علم يحيى بن مـعين، فهو قـد أحصى مرويات شيـخه عفان بن مـسلم فصوَّبه فيهـا ما عدا عشرين مـوضعًا خطأه فيهـا، فكيف بإحاطته بمرويات الشيوخ الآخرين!

ثم إن هذا الخبر مثل من أمثلة الأخلاق النبيلة، فقد أعلم يحيى بن معين شيخه بتلك الأخطاء سرا ولم ينشرها على الناس وكذلك في نقـده الشيوخ الآخرين كما ذكر، وهذا دليل على إخلاصه، وأنه لم يُرد الجاه والسمعة العلمية، وإنما أراد وجه الله تعالى، ولعله قال هذا الكلام بعد موت شيخه عفان رحمهما الله تعالى.

ولكن يحيى بن مـعين قد ينتـقد بعض الشيـوخ علنًا، وذلك فيمـا إذا كان في حلقـة علميـة والطلاب يكتبـون عن الشيخ، فـإنه والحال هذه يكون مـضطرّا إلى إعلان النقد حتى لا يكتب التلاميـذ خطأ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره الحافظ الذهبى من رواية ابن عبـاس الدوري قال: حدثنا يحـيى بن معين قال: حضـرت نعيم بن حماد بمصر، فجعل يقرأ كتابًا صنَّفه، فقال: حدثنا ابن المبارك عن ابن عون، وذكر أحاديث، فـقلت: ليس ذا عن ابن المبـارك، فغضب وقـال: تردُّ عليّ؟ قلت: إي والله أريد زينك، فأبى أن يرجع، فلمـا رأيته لا يرجع قلت: لا والله ما سـمعت هذه من ابن المبارك ولا سمعها هو من ابـن عون: فغضب وغضب من كان عنده، وقام فدخل، فـأخرج صحائف فجعل يقـول وهي في يده: أين الذين يزعمون أن يحيى بن معين ليس بأمير المؤمنين في الحديث؟ نعم يا أبا زكريا غلطت، وإنما هذه الأحاديث من غير ابن المبارك عن ابن عون[2].

وهذا الخبر يُعدُّ مـثلاً على علم يحيى بن معين وخبرته بالأسـانيد فقد ردَّ على البديهة على نعيم بـن حماد وخطَّأه في تلك الأسانيد وكان واثقًا من علمـه كثيرا، فلهـذا أقسم على أن تلك الأحـاديث لم يروها نعيم عن ابن المبـارك ولارواها ابن المبارك عن ابن عون.

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٨٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٨٩ - ٩٠.

وموقف جليل من نعيم بن حماد لما رجع إلى أصوله فأعلن خطأه وصواب ابن معين على الملأ، وأشاد بابن معين بإنكاره على من لم يعترف له بالإمارة في الحديث.

من مواقف الحافظين أبي حاتم وأبي زرعة رحمهما الله:

من المواقف العلمية الرائعة التي تبين عمق البارزين من علماء الحديث ومقدرتهم الفائقة على الحكم على النصوص وتمييز مقبولها من مردودها ما أخرجه الحافظ عبدالرحمن بن أبي حاتم قال: سمعت أبي رحمه الله يقول: جاءني رجل من جلة أصحاب الرأى[1] من أهل الفهم منهم، ومعه دفتر فعرضه علي فقلت في بعضها: هذا حديث خطأ قد دخل لصاحبه حديث في حديث، وقلت في بعضه: هذا حديث باطل، وقلت في بعضه: هذا حديث منكر، وقلت في بعضه: هذا حديث كذب، وسائر ذلك صحيح، فقال لي: من أين علمت أن هذا خطأ وأن هذا باطل وأن هذا كذب؟ أخبرك راوي هذا الكتاب بأني غلطت وأني كذبت في حديث كذا؟ فقلت: لا، ما أدري هذا الجزء من رواية من هو؟ غير أني أعلم أن هذا خطأ وأن هذا باطل، وأن هذا الحديث كذب، فقال: تدَّعي الغيب؟ قال قلت: ما هذا ادعاء الغيب، قال: فما الدليل على ما تقول؟ قلت: سل عما قلت من يحسن مثلما أحسن، فإن اتفقنا علمتَ أنا لم نجازف ولم نقلْه إلا بفهم.

قال: من هو الذي يحسن مثلما تحسن؟ قلت: أبو زرعة، قال: ويقول أبو زرعة مثلما قلت؟ قلت: نعم، قال: هذا عجب، فأخذ فكتب في كاغدٍ ألفاظى في تلك الأحاديث ثم رجع إليّ وقد كتب ألفاظ ما تكلم به أبو زرعة: هو كذب قلت: الكذب والباطل واحد، وما قلت أنه كذب قال أبو زرعة: إنه باطل، وما قلت إنه منكر قال أبو زرعة: هو منكر كما قلت، وما قلت إنه صحاح قال أبو زرعة: هو صحاح.

فقال: ما أعجب هذا تتفقان من غير مواطأة فيما بينكما، فقلت: فقد علمتَ عند ذلك أنا لم نجازف وإنما قلناه بعلم ومعرفة قد أوتيناهما، والدليل على صحة ما نقوله أن دينارًا بَهْرجًا يُحمل إلى الناقد فيقول: هذا دينار بَهْرج، ويقول لدينار: هو جيد، فإن قيل له من أين قلت إن هذا بهرج؟ هل كنت حاضرا حين بُهْرج هذا

(١) يعني من الفقهاء الذين ليس لهم اهتمام برواية الحديث وكانوا يسمونهم أهل الرأي.

الدينار؟ قال: لا، فإن قيل له: فأخبرك الرجل الذي بهرجه أني بهرجت هذا الدينار؟ قال: لا، قيل: فمن أين قلت إن هذا بهرج؟ قال: علمًا رزُقت، وكذلك نحن رزقنا معرفة ذلك.

وقلت له: فتحمل فص ياقوت إلى واحد من البصراء من الجوهريين فيقول: هذا زجاج، ويقول لمثله: هذا ياقوت، فإن قيل له: من أين علمت أن هذا زجاج وهذا ياقوت؟ هل حضرت الموضع الذي صنع فيه هذا الزجاج؟ قال: لا، قيل له: فهل أعلمك الذي صاغه بأنه صاغ هذا زجاجا؟ قال: لا، قال: فمن أين علمت؟ قال: هذا علم رُزِقت، وكذلك نحن رُزِقْنا علما، لا يتهيأ لنا أن نخبرك كيف علمنا بأن هذا الحديث كذب وهذا منكر إلا بما نعرفه.

قال أبو محمد -يعني ابن أبي حاتم- تُعرف جودة الدينار بالقياس إلى غيره فإن تخلف عنه في الحمرة والصفاء عُلم أنه مغشوش، ويُعلم جنس الجوهر بالقياس إلى غيره فإن خالفه في الماء والصلابة علم أنه زجاج، ويقاس صحة الحديث بعدالة ناقليه، وأن يكون كلامًا يصلح أن يكون من كلام النبوة، ويُعلَم سقمه وإنكاره بتفرد من لم تصح عدالته بروايته والله أعلم[1].

فهذا الحوار العلمي الرفيع يدل على تفوق البارزين من علماء الحديث في معرفة الأحاديث، أسانيدَ ومتونًا، والحكم عليها، فهذان الحافظان أبو حاتم وأبو زرعة يحكمان على مجموعة من الأحاديث على البديهة ثم يتفق حكمهما، وهذه النتيجة كما أذهلت ذلك العالم الفقيه فإنها تذهل الكثيرين ممن لم يخبروا هذا العلم، لكنها نتيجة طبيعية عند أرباب هذا الشأن.

وقد بين ابن أبي حاتم أن النقد يكون للإسناد ويكون للمتن، فيكون للإسناد بمعرفة عدالة ناقليه وتفردهم بروايته، ويكون في المتن بعدم صلاحيته أن يكون من كلام النبوة، وهذا هو الذي يحكمون عليه بالنكارة في المتن.

وأمثال هؤلاء العلماء المتبحرين في هذا العلم هم الذين يستحقون حقا أهلية الحكم على الأحاديث، وإذا حكموا على حديث فلا ينبغى لمن جاء بعدهم أن يخالفهم إلا إذا كان في مستواهم العلمي وحصل له بالدراسة علم زائد عما عندهم.

(١) الجرح والتعديل ١/ ٣٤٩ - ٣٥١، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٥٣ - ٢٥٤.

ومن النماذج الجـيدة التي جرت بين هذيـن الحافظين الكبيـرين أبي حاتم وأبي زرعة ما أخرجه ابن أبي حاتم قـال: سمعت أبي يقول: جرى بيني وبين أبي زرعة يومًا تمييز الحديث ومعرفته، فجعل يذكر أحاديث ويذكر عللها، وكذلك كنت أذكر أحاديث خطأ وعللها وخطأ الشيوخ، فـقال لي: يا أبا حاتم قلَّ من يفهم هذا، ما أعز هذا، إذا رفعت هذا من واحد أو اثنين فما أقل من تجد من يحسن هذا، وربما أشك في شيء أو يتـخالجني شيء في حـديث فإلى أن ألتـقي معك لا أجـد من يشفيني منه، قال أبي: وكذلك كان أمري[1].

فهذا مثال على ندرة المتأهلين للحـكم على الأحاديث مع كثرة الحفاظ في ذلك الزمن، وإذا كان المتـأهلون للحكم على الأحاديث قليـلا في ذلك الزمن الذي بلغ فيه الاتجـاه نحو جمع السنة ودراستهـا أقصى حد بلغه، فكيف بالعصـور المتأخرة التى ضعف نشاط طلاب العلم فيها في مجال جمع السنة ودراستها!

وإن في هذا المثل مع الأمـثلة السـابقة، بيـان خطورة الإقـدام على الحكم على الأحاديث، وأن ذلك ليس من شأن الطلاب المبـتدئين في هذا العلم، وإنما هو من اختصاص العلمـاء المنتهين الذين جمعوا أكبـر قدر ممكن من السنة وأحاطوا بطرق الروايات المتعددة، وعرفوا مرويات الرواة الذين اتهموا بالخطأ والوهم بحيث يميزون بين رواياتهم السليمة ورواياتهم المنتقدة، وأدركوا علل الأحاديث التي بينَّها جهابذة العلمـاء، فَلْيـخش الله تعـالى طلاب العلم الذين اتجـهوا لدراسـة علوم الحـديث وليعرفوا قدرهم، وليقتصروا على الموازنة بين حكم العلماء على الأحاديث لا على رجال الأسانيد، ولـيتركوا الحكم على الأحاديث المبني على دراسة الأسـانيد حتى يصلوا من العلم إلى مستوى أولئك العلماء الجهابذة المتبحرين في هذا العلم.

من مواقف الإمامين أحمد بن حنبل وأحمد بن صالح رحمهما الله:

من النماذج الجيدة في الحوار العلمي ما أخـرجه الخطيب البغدادي عن عبدالله ابن محمد بن عبدالعزيز قال: سمعت أبا بكر بن زنجوَيه يقول: قدمت مصر وأتيت أحمد ابن صالح، فسألني من أين أنت؟ قلت: من بغداد، قال: منزلك من منزل أحمد بن حنبل؟ قلت. أنا من أصحابه. قال: تكتب لي موضع منزلك فإني أريد أوافي العراق

(١) الجرح والتعديل ١/ ٢٥٦، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٥٢.

حتى تجمع بيني وبين أحـمد بن حنبل: فكتبت له فوافي أحـمد بن صالح سنة اثنتي عشرة[1] إلى عفان فسأل عني، فلقيني. فقال: الموعد الذي بيني وبينك؟

فذهبت به إلى أحمد بن حنبل واستأذنت له فقلت: أحمد بن صالح بالباب، فأذن له، فقام إليـه ورحّب به وقربه وقال له: بلغني أنك جمعت حديث الـزهري، فتعال نذاكر مـا روى الزهري عن أصحـاب رسول الله ﷺ، فـجعـلا يتذاكـران ولا يُغرب أحدهما عن الآخر حتى فرغا، قال وما رأيتُ أحسن من مذاكرتهما. ثم قال أحمد بن حنبل لأحمد بن صالح: تعال حـتى نذاكر ما روى الزهري عن أولاد أصحاب رسول الله ﷺ، فجعلا يتذاكران أحدهمـا على الآخر إلى أن قال أحمد بن حنبل لأحمد بن صالح: عند الزهري عن محمد بن جبيـر بن مطعم عن أبيه عن عبدالرحمن بن عوف قال النبي ﷺ: «**ما يسرني أن لي حُمْر النعم وأن لي حِلف المطَّيِّبين**»[2].

فقال أحمـد بن صالح لأحمد بن حنبل: أنت الأستاذ وتذكـر مثل هذا؟ فجعل أحـمد بن حـنبل يبتـسم ويقـول: رواه عن الزهري رجل مـقـبول، أو صـالح - عبدالرحمن بن إسـحاق- فقال: من رواه عن عبدالرحمن؟ فـقال: حدثناه رجلان تقيان -إسـماعيل بن علية، وبشر بن الفـضل- فقال أحمد بن صـالح لأحمد بن حنبل: سألتك بالله إلا أمليته عليّ، فقال أحـمد من الكتاب، فقام ودخل وأخرج الكتاب وأملى عليه، فقال أحمد بن صالح لأحمد بن حنبل: لو لم أستفد بالعراق إلا هذا الحديث كان كثيرا، ثم ودعه وخرج[3].

فهذا مجلس علمي مفيد بين الإمامين أحمد بن حنبل وأحمد بن صالح المقرئ، تذاكرا فيه أحـاديث كثيرة من أحاديث الإمام الزهري، وفي هذا الخبـر تظهر فرحة أحمـد بن صالح لما استـفاد حديثا لـيس عنده بذلك السند الذي رضيه أحـمد بن حنبل، فطلب في الحال أن يحدثه به.

وفيه مـوقف من مواقف الورع والاحتياط للديـن، فحينما كانا يتـذاكران كانت المذاكرة من حفظهما، ولما أراد الإمام أحـمد بن حنبل أن يحدث حديثا يُكتب عنه قام وجاء بكتابه.

---

(١) يعني ومائتين.

(٢) هو حلف تحالف فيـه بعض قريش على التناصر والأخذ للمظلوم من الظالم وسمى بذلك لأنـهم غمسوا أيديهم في جفنة فيها طيب.

(٣) تاريخ بغداد ٤/ ١٩٧.

ومن ذلك ما رُوي عن الحسين بن إسماعيل عن أبيه قال: كان يجتمع في مجلس أحمد[1] زهاء خمسة آلاف أو يزيدون، نحوُ خمسمائة يكتبون والباقون يتعلمون منه حسن الأدب والسمت[2].

ويقول أبو بكر بن المُطَّوِّعي: اختلفت إلى أبي عبدالله ثنتي عشرة سنة وهو يقرأ المسند على أولاده فما كتبت عنه حديثا واحدا، إنما كنت أنظر إلى هديه وأخلاقه[3].

في هذين الخبرين مثل من اهتمام أهل العلم بتعلم الأخلاق والأدب، وتلقي التربية الدينية من العلماء الربانيين.

وهكذا ينبغي لطلاب العلم أن يهتموا بتعلم الأدب ومكارم الأخلاق من العلماء كاهتمامهم بجمع العلم وتحصيله.

من مواقف ابن المنادي رحمه الله:

من أخبار العلماء في المجال التربوي ما ذكره القاضي أبو يعلى في ترجمة أبي الحسين أحمد بن جعفر بن المنادي حيث ذكر عن أبي الفضل عبدالله بن أحمد الصيرفي قال: وقال لي أبو الحسين بن الصلت: كنا نمضي مع ابن قاج الوراق إلى ابن المنادي لنسمع منه، فإذا وقفنا ببابه خرجت إلينا جارية له وقالت: كم أنتم؟ فنخبرها بعَدَدِنا ويؤذن لنا في الدخول فيحدثُنا، فدخل معنا مرة إنسان علوي وغلام له، فلما أستأذنا قالت الجارية: كم أنتم؟ فقلنا؟ نحو ثلاثة عشر، وما كنا حسبنا العلوي ولا غلامه في العدد، فدخلنا عليه، فلما رآنا خمسة عشر نفسًا قال: انصرفوا اليوم فلست أحدثكم، فانصرفنا وظننا أنه عرض له شغل، ثم عدنا إليه مجلسًا ثانيا فصرفَنَا ولم يحدثنا، فسألناه بعد ذلك عن السبب الذي أوجب ترك الحديث لنا فقال: كنتم تذكرون عددكم في كل مرة للجارية وتصدقون، ثم كذبتم في المرة الأخيرة، ومن كذب في هذا المقدار لم يؤمن من أن يكذب فيما هو أكبر منه، فاعتذرنا إليه وقلنا: نحن نتحفَّظ فيما بعد، فحدَّثنا، كما قال[4].

---

(١) يعني الإمام أحمد بن حنبل.
(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٣١٦.
(٣) المصدر السابق ١/ ٣١٦.
(٤) طبقات الحنابلة ٢/ ٣-٤.

فهذا مثل من حرص العلمـاء على تقويم أخلاق طلابهم وحملهم على الالتزام بالسلوك القويم والأخلاق الكريمة، فحينمـا لاحظ هذا الشيخ اختلاف كلام أولئك التلاميذ عن واقعهم الفـعلي رفض أن يحدثهم لأن من يستهين بالكذب في الأمور الصـغيـرة يُخشى منـه أن يكذب فيـما هو أكـبـر من ذلك، ومن أجل هذا المنهج التربوي الجاد أصبح مجتمع العلماء يكاد يكون نزيهًا من النفعيين والفساق.

موقف للحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله:

للحافظ أحـمد بن على الخطيب البـغدادي موقف علمـي جيد رد فـيه تزييف بعض اليهـود، وذلك فيما ذكـره محمد بن عـبدالملك الهَمذاني في تاريـخه قال: وأظهر بعض اليهـود كتابا ادَّعى أنه كتاب رسول الله ﷺ بإسـقاط الجزية عن أهل خيبر، وفيه شهادة الصحابة رضي الله عنهم، وذكروا أنه خط علي رضي الله عنه، وحُمل الكتاب إلى رئيس الرؤساء فعرضـه على الخطيب فتأمله وقال: هذا مزوَّر، قيل: من أين قلت؟ قال: فـيه شهادة معـاوية وهو أسلم عام الفتح وفُتِحَتْ خـيبر سنة سبع، وفـيه شهادة سـعد بن معاذ ومـات يوم بني قريظة قبل خيـبر بسنتين، فاستُحْسِنَ ذلك منه[1].

فهذا مثل من غـزارة علم الحافظ الخطيب البغدادي ومعرفـته بالتاريخ الإسلامي حيث أبطل ذلك الكتـاب المزور بمعرفته الدقـيقة بتاريخ إسلام الـصحابة رضي الله عنهم وتاريخ وفياتهم.

موقف للإمام موفق الدين بن قدامة رحمه الله:

ومن أمثلة اهتمام العلماء بأمر العدالة والحـفاظ على سمعة العلماء ما جرى من الإمام موفَّق الدين ابن قدامة وهو يجـيب علَى أحد العلماء الذين ردوا عليه حيث قال: إلى أن رأيت له فتاوى غيرهُ فيـها أسدُّ جوابًا وأكثر صوابا، وظننت أنه ابتلي بذلك لمحبـته تخطئة الناس واتبـاعه عيوبهم ولا يبـعد أن يعاقب الله العـبد بجنس ذنبه.. ثم قـال عن هذا العالم: وقـد شغل كـثيرا من زمـان بالرد على الناس في تصانيفـهم وكشف ما استتر مـن خطاياهم ومحبة بيان سقـطاتهم، ولا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفـسه، أفَتَراهُ يحب لنفسه بعد موته من

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٨٠.

ينتصب لكشف سقطاته وعيب تصانيفه وإظهار أخطائه؟ وكما لا يحب ذلك لنفسه ينبغى له أن لا يحبه لغيره، سيما الأئمة المتقدمين والعلماء المبرِّزين[1].

فهذه الكلمات من الإمام الموفق تحتوي على توجيه جيد نحو ما ينبغي أن يتحلى به أهل العلم من الأدب العلمى، فليس من الأدب أن يسارع أهل العلم في نقد العلماء، ولا أن يجعلوا ذلك من مقاصدهم التي يهتمون بها.

والمراد بهذا النقد المذموم ما قُصِدَ به النقد لذاته، أما إذا كان المقصود منه بيان الحق ولم يتمكن الناقد من البيان بغير ذلك فهو من النصيحة للمسلمين وليس من النقد المذموم.

من مواقف الشيخ محمد بن محمد الطيب المالكي رحمه الله:

قال عنه الشيخ محمد خليل المرادي وُلد بالمغرب الأقصى وحفظ القرآن وهو ابن ثمانى سنين، ثم اشتغل في حفظ المتون على والده وقرأ عليه الآجرومية وعلى الشيخ محمد السعديّ الجزائريّ السنوسيّة ومنظومة في العبادات مختصة في المسائل الفقهية، ودرّس السنوسيّة للطلاب قبل أوان الاحتلام ورحل من بلادهم في البرد إلى طرابلس الغرب وما وجبت عليه صلاة ولا صيام، ومن طرابلس ركب البحر إلى الجامع الأزهر فطلب العلم بمصر سنتين وثمانية أشهر.

ثم سافر لزيارة والدته في البحر فأسره الفرنج وذهبوا به إلى مالطة مركز الكفر ثم نجاه الله تعالى بعد سنتين وأيام، وناظرته رهبان النصارى مناظرة واسعة وكان فيهم راهب له دراية بالمسائل المنطقية والعربية ويزعم أن همته بارعة وكانت مدة المناظرة نحو ثمانية أيام فأخرسهم الله وأكبتهم ووقعوا في حَيْص بَيْص، فمن جملة مناظرتهم معه في ألوهية عيسى أن قال كبيرهم يا محمديّ: إن حقيقة عيسى امتزجت مع حقيقة الإله فصارتا حقيقة واحدة.

قال: فقلت له: لا يخلو الأمر فيهما قبل امتزاجهما أن تكونا قديمتين أو حادثتين أو إحداهما قديمة والأخرى حادثة وكل الاحتمالات باطلة، فالامتزاج على كل الاحتمالات باطل، أما على الأول فإن الامتزاج مُفْضٍ للحدوث قطعًا لأنه تركيب بعد إفراد وكل تركيب كذلك لا محالة حادث والحادث لا يصلح للألوهية،

(١) طبقات الحنابلة ٤/ ١٩٥ -١٩٦.

وأما الثانى فظاهر البطلان، وأما الثالث بوجهيه فباطل أيضا لأن القديمة منهما بعد الامتزاج يلزم حدوثها والحادثة منهما بعده يلزم قدمها فيؤدي إلى قلب الحقائق وقلبها محال، ويلزم أيضًا اجتماع الضدّين وهو باطل باتفاق العقول.

ولما سُقط في أيديهم ورأوْا أنهم قد ضلوا في هذا الطريق قال لي كبيرهم: عقولنا لا تصل لهذا الأمر الدقيق فقلت له: هذا عندنا من علوم أهل البداية لا من علوم أهل النهاية فبهت الذي كفر وعبس واكفهرّ، قلت لكبيرهم: بالله عليك: أعيسى كان يعبد الصليب؟ قال: لا وإنما ظهر الصليب بعد قتله -على زعمهم- ونحن نعبد شبيه الإله فقلت له: بالله عليك ألله شبيه؟ قال: لا، فقلت له: يجب عليكم حرق هذه الصلبان بالزفت والقطران فاستشاط غيظًا وقال لي: كنت أوقعك في المهالك وأجعلك عبرة لكن الله أمرنا بحب الأعداء، فقلت له: لكن الله أمرنا ببغض الأعداء، فقال لي: إذًا شريعتنا كاملة فقلت له على طريقة الاستهزاء: شريعتكم كاملة لأنها تعبد الأصنام والصلبان وشريعتنا ناقصة لأنها تعبد الله وحده لا شريك له؟ فاشتد غضبه حتى كاد أن يبطش بي ولكن الله سلم لمزيد اللطف بي.

ثم إن كبيرهم قال لي: يا محمديّ إني رأيت في كتبكم الحديثة أن نبيكم انشق له القمر نصفين فدخل نصفه من كم والنصف من الكم الآخر وخرج تمامًا من جيب صدره ومساحة البدر مثل الدنيا ثلاث مرات وثلث وهي ثلاثمائة وثلاث وثلاثون سنة وثلث فما هذه الخرافات؟ فقلت له: أما ورد أن إبليس جاء لسيدنا إدريس وهو يخيط بالإبرة وبيده قشرة بيضة وقال له: أيقدر ربك أن يجعل الدنيا في قشرة هذه البيضة؟ فقال لي: نعم ورد ذلك، فقلت له: كيف يقدر؟ فقال: إما أن يكبر القشرة أو يصغر الدنيا، فقلت له: سبحان الله تحلونه عامًا وتحرّمونه عامًا وإذا سلمت هذا فلم لا تسلمه لنبينا، فغص بريقه واصفر وعبس وتولّى فقتل كيف قدّر، وهذا الجواب مني من باب إرخاء العنان للإلزام وإلا فدخول نصفَي البدر في الكمين باطل عند جميع المحدّثين الأعلام، لكن كبيرهم لا يعرف اصطلاح علمائنا ذوي المقام العالي فلو أجبته ببطلانه لقال لي: رأيته في كتبكم فلا يصغي لمقالي فلذلك دافعته بالبرهان القطعيّ العقلي لأنه لا يمتثل بعد ما رآه للدليل النقليّ.

ثم إن كبيرهم في ميدان البحث أنكر نبوّة نبينا السيد الكامل وقال: إنه عندنا ملك عادل، فقلت له: ما المانع من نبوّته؟ فقال: نحن لا نقول بها وإنما نقول بشدّة

صولته، فقلت له: أليس النبيّ الذي أتي بالمعجزات وأخبر بالمغيبات؟ فقال كبيرهم: أيّ معجـزة أتي بها وأيّ مغيـبات أخبر بهـا فسردت له بعض المعجـزات وأعظمها القرآن وذكـرت له بعض المغيـبات، فـقال لي: رأيت البـخاريّ من علمـائكم ذكر بعضها، ثم قال لي: إنّما علّمه ذلك الغلام؛ يشير لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ**﴾ [النحل: ١٠٣] فـقلت له: بالله عليك لسان ذلـك الغلام مـاذا؟ قال: أعجـميّ، فقلت له: بالله عليك لسان نبينا ماذا؟ قـال: عربيّ، قلت له: بالله عليك نبينا يقرأ ويكتب أم أمي؟ قال: أمي لا يقـرأ ولا يكتب، فقلت له: بالله عليك هل سـمعت عربيًا يتعلم من عجمي، قال: لا، فأفحم في الجواب وانقطع عن الخطاب.

ثم قـال لي: كيف يـقول قـرآنكم: ﴿**يا أخت هارون**﴾؟ وبينه وبينهـا ألف من السنين؟ فقلـت له: أنت أعجميّ لا تعـرف لغة العرب كـيف مبناها، فـقال لي: وكـيف ذلك؟ فـقلت له: يُطلق الأخ فـي لغـتهم عـلى الأخ النِّسـبيّ وعلى الأخ الوصـفيّ والمراد هنا الثـاني ومعني الآية يا أيتـهـا المتصـفة عندنـا بالعفـة والديانة والعبودية مثل هارون الموصوف بتلك الصفات الكاملة وهذا المعنى في لسان العرب شائع وفي مجاراتهم ومجاري أساليبهم ذائع، فوقف حمار الشيخ في الطين.

ولما رآني صغير السن وكان سني إذ ذاك نحـو تسع عشرة سنة، قال لي: تصلح أن تكون مثل ولد ولدي فمن أين جاءتك هذه المعرفة التـامة؟ فقلت له: جميع ما سألتني عنه هو من علوم البـداية ولو خضت معي في مـقام النهاية لأسمـعتك ما يصم أذنيك وفي هذا القدر كفاية، فترك المناظرة ورجع القهقري، وشاع صيتي في مالطة بين الرهبـان والكبراء، وكنت إذا مررت في السـوق يحترموني ومـا خدمت كافرًا قط، وكان سبب خلاصي رؤيا مبشرة، من يومها ركبت سفينة النجاة متوجهًا لإسكندرية ثم منها لمصر القاهرة.

ثم سافـرت للحجاز مـرارًا ودخلت اليمن وعُمـان والبحرين والبـصرة وحلب ودمشق وتوجهت للروم ثم ألقـيت عصا التسيار في بيت المقدس، وجـاءتني الفتيا وأنا لها كاره. قال ومراسلاته وأشعاره كثيرة.

وكانت وفاته في القدس سنة إحدى وتسعين ومائة وألف، رحمه الله تعالى[1].

(١) المختار المصون للدكتور محمد بن حـسن بن عقيل/ ١٣٤٨ - ١٣٥١ نقلا عن سلك الدرر للشيخ محمد المرادي.

فهـذا الشاب الذي لم يبلغ العـشرين من عـمره جرت منه هذه المنـاظرة القوية العميقـة، وهى تدل على نبوغ مبكر، كما تدل على قوة الحـركة العلمية في ذلك العصر، حيث إن هذه المقدرة العلمية الفائقة كانت نتاج المدارس الإسلامية المنتشرة آنذاك في المساجد ودور العلم.

لقد أعـز هذا الشاب الصغيـر الإسلام، ورفع من ذكر علمـاء المسلمين، حيث أصبح أحبـار النصارى حيارى مخـذولين معه، ولسان حـالهم يقول: إذا كان هذا موقفنا مع هذا التلميذ فكيف لو ناظرنا شيوخه الذين تلقى عنهم العلم.

ولقد كان جريئًـا حينما خاطبهم بذلك الأسلوب القوي الـهجومي، مع أنه كان في موقف الضـعف وكانوا في موقف القـوة، وألغى التفكير في كل الاحتـمالات الممكنة التي منها أن يتعرض للقتل من أجل إعزاز الإسلام والدفاع عنه، وهذا يدل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه.

***

توجيهات ومواقف
في
إعزاز العلم وتكريم أهله

لقد كان لأعيـان السلف - رحمهم الله تعالى- مواقف مشـرفة في إعزاز العلم وتكريم أهله، سواء من العلماء أو الأمراء.

من مواقف عبدالله بن عباس رضى الله عنهما:

ذكر الإمام الذهـبى من خبر أبي العاليـة قال: كان ابن عباس رضي الله عـنهما يرفعني عـلى السرير وقريش أسـفل من السرير، فـتغامـزَتْ بي قريش فـقال ابن عباس: هكذا العلم يزيد الشريف شرفًا ويُجلس المملوك على الأسرة.

قال الإمام الذهبي: هذا كـان سرير دار الإمرة لما كان ابن عباس متـوليها لعلي رضي الله عنهم[1].

فـهذا مـوقف كريم من عـالم الأمة الكبـير في تـكريم حملة العلم الشـرعي، وتكريمُ العلماء يُعدُّ إعزازًا للعلم.

فلقد كـان أبو العاليـة رُفَيْع بن مهـران الرياحى رحمه الله تـعالى من الموالي، فاسـتكثر العـرب من قريش أن يرفـعه ابن عـباس فـوقهم وهم أصحـاب النسب الرفيع، فأبان لهم أن مؤهل الكرامـة والرفعة ليس في شرف النسب، وإنما هو في العلم الذي يوصل صاحبه إلى التقوي، وينفع الله به الأمة.

وعلى هذا المنهج ينبغـي أن يسير المسلمون في تكريم أهـل العلم ورفع مكانتهم بغض النظر عن أنسابهم ومواطنهم.

موقف من الإمام مكحول رحمه الله:

من ذلك ما رواه الوليد بن مسلم عن ابن جابر قال: أقبل يزيد بن عبدالملك إلى «مكحول» في أصـحابه، فلما رأيناه همـمنا بالتوسعـة له، فقال مكحـول: دعوه يجلس حيث أدرك يتعلم التواضع[2].

فهـذه ملاحظة مـهمـة من أبي عبـدالله مكحول الـشامي رحمـه الله في آداب التعلم، فمن أهم آدابه التواضع، وقد كان العلماء يحرصون على لزوم تحلِّي طالب

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٠٨، وذلك حينما كان ابن عباس أميرا على البصرة.
(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ١٦٢.

العلم بالتواضع، ويرون أن تميز بعض الطلاب بمزايا خاصة قد يفسدهم بما يتولد عن ذلك من اتصافهم بالكبرياء والغرور، وقد يفسد بعض الطلاب الآخرين بما يتربَّى في نفوسهم من الحقد والضغينة على هؤلاء الطلاب المميَّزين، كما أن ذلك يضعف من مكانة الشيخ عندهم ومن قوة ارتباطهم به، وبالتالي يضعف المستوى العلمي عند هؤلاء وهؤلاء.

من مواقف الإمام مالك رحمه الله:

من أمثلة مواقف العلماء في إعزاز العلم ما رواه عمر بن المحبِّر الرُّعيني قال: قدم المهدي المدينة فبعث إلى مالك فأتاه، فقال لهارون وموسى[1]: اسمعا منه، فبعثا إليه فلم يجبهما، فأعلما المهدي، فكلمه فقال: يا أمير المؤمنين العلم يُؤتَى أهله، فقال: صدق مالك، صِيَرا إليه، فلما صارا إليه قال له مؤدبهما: اقرأ علينا، فقال: إن أهل المدينة يقرؤون على العالم كما يقرأ الصبيان على المعلم، فإذا أخطأوا أفتاهم، فرجعوا إلى المهدي فبعث إلى مالك فكلمه، فقال: سمعت ابن شهاب يقول: جمعنا هذا العلم في الروضة من رجال وهم يا أمير المؤمنين سعيد بن المسيب وأبو سلمة، وعروة، والقاسم، وسالم، وخارجة بن يزيد، وسليمان بن يسار، ونافع، وابن هرمز. [قال مالك:] ومن بعدهم: أبو الزناد، وربيعة، ويحيى ابن سعيد، وابن شهاب، كل هؤلاء يُقرأ عليهم ولا يقرؤون، فقال: في هؤلاء قدوة، صيروا إليه فاقرؤوا، ففعلوا[2].

وهكذا أصر الإمام مالك بن أنس على الالتزام بالمنهج التعليمي الذي تعلمه من شيوخه لأن هذا المنهج يحمل طالب العلم على التواضع للعلماء واحترام العلم، فالعلم ليس مجرد معلومات يُحشَى بها الفكر والذاكرة، وإنما هو منهج حياة وعمل صالح وسلوك قويم يترتب على العلم النافع، فإذا أُخِذ العلم بالتعالي والترفع واعتبار المنزلة الاجتماعية فإنه يورث الكبر والغرور فيضر صاحبه أكثر مما ينفعه.

فالعلماء الربانيون كانوا يحرصون دائمًا مع نشر العلم على تربية الطلاب وتقويم سلوكهم، فإذا تهيأت الظروف المناسبة لطلب العلم عند الطالب قبلوه في حلقتهم

(١) يعنى قال المهدي لابنيه هارون وموسى.
(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ٦٣.

لثقتهم بأن غرسهم الطيب سيؤتي بإذن الله تعالى ثمراته الطيبة، أما إذا كانت بداية الطالب لا تناسب كـونه طالب علم فإنهم يرفـضونه من أول الأمـر حتى لا يكون طلبه للعلم وبالاً عليه وعلى مجتمعه.

ونجد الإمام مـالكا يركز على ملاحظة سـلامة الآثار المترتبة على التـعلم حيث يحرص على تهيئة الجو المناسب للانتفاع بالعلم قبل نشره، ومن أمثلة ذلك ما رواه هارون بن موسى الفروي قال: سمعت مصعـبًا الزبيري يقول: سأل هارون الرشيد مالكا وهو في منزله ومعه بنوه أن يقرأ عليـهم، قال: ما قرأت على أحد منذ زمان وإنما يُقرأ علـيّ، فقال: أَخَـرِج الناس حتى أقـرأ أنا عليك، فقال: إذا مُـنِع العام لبعض الخاص لم ينتفع الخاص، وأمر معنَ بن عيسى فقرأ عليه[1].

فهذه كانت فـرصة ثمينة أمام الإمام مالك ليقرأ علـى أمير المؤمنين وبنيه لعلهم يتأثرون بمواعظه، خاصة إذا اخـتار الموضوعات المناسبة للمـقام، ولكن مالكا كان يشـدد على ضمـان الانتفـاع بهذا العلـم ويرى أن التواضع بين يدي المعلم عـامل أساسي في حصول هذا النفع، ويرى أن أهم أسباب هذا التواضع أن يقوم الطالب بالقراءة بين يدي الشيخ.

وفي كلامـه ما يدل على أن تميز بعض الطلاب بخـصائص معينة يحـرمهم من الاستفـادة، لأن التميز مدخل من مـداخل الكبرياء وإذا دخل في النفس شيء من ذلك حُرم الطالب من التوفـيق والانتفاع، لأن القلوب بيد الرحـمن جل وعلا فإذا علم من عبـده أن قلبه متجرد للعـلم مشتاق إلى الانتفـاع بما تعلم لِيُتبعـه بالعمل الصالح وفقه إلى العلم النافع وسدد خطاه نحو العمل الصالح، وإذا علم أن قلب عبده قد تسربت إليه اعتبارات أخرى دفعته إلى التعلم حال بينه وبين العلم النافع، فلم يثمر علمه عملا صالحا.

ومن ذلك ما رُوي عن الإمـام مالك رحمـه الله من تعظيمه حـديث رسول الله ﷺ، وفي ذلك يقول ابن أبي أويس: كان مـالك إذا أراد أن يحدِّث توضأ وجلس على فراشه، وسرح لحـيته، وتمكن من الجلوس بوقار وهيبة، ثـم حدَّث، فقيل له في ذلك، فقـال: أحب أن أعظم حديث رسـول الله ﷺ، ولا أحدث به إلا على

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٦٦.

طهارة متمكنا، وكان يكره أن يحدث في الطريق وهو قائم أو يستعجل، فقال: أحب أن أتفهم ما أحدث به عن رسول الله ﷺ[1].

فهذا مثل من تعظيم الإمام مالك لحديث رسول الله ﷺ واهتمامه به، فهو لا يحدث به إلا على طهارة مع أن ذلك ليس واجبا عليه، ويكون متمكنا من جلوسه بوقار وهيبة، ولا يحدث به قائما أو ماشيا.

وهذا الاهتمام يدل على مبلغ توقيره لرسول الله ﷺ وتعظيمه للإسلام.

وقد ذكر من حكمة ذلك أن يكون مستجمعًا لفكره حتى يحدث بفهم واستيعاب لما يحدث به، ومن أجل ذلك نفع الله تعالى بعلمه، وطار صيته في مشارق الأرض ومغاربها، لأنه كان يحدث من قلبه، فكل من سمعه وصل حديثه إلى قلبه.

وإذا تصورنا أنه يعيد الحديث الواحد عشرات المرات كلما جاءه من يطلب سماعه منه كما فعل في الموطأ، وفي كل مرة يستجمع فكره ويتأمل معاني الأحاديث.. إذا تصورنا ذلك فما أعمق الفهم الذي سيخرج به! وما أغزر العلم الذي سيستنبطه من تلك الأحاديث!

من مواقف أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور رحمه الله:

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور، قال: وقد كان المنصور في شبيبته يطلب العلم من مظانه والحديث والفقه، فنال جانبًا جيدا وطرفًا صالحا، وقد قيل له يوما: يا أمير المؤمنين هل بقي شيء من اللَّذات لم تَنَله؟ قال: شيء واحد، قالوا: وما هو؟ قال: قول المحدث للشيخ من ذكرْتَ رحمك الله، فاجتمع وزراؤه وكتَّابه حوله وقالوا: لِيُمْلِ علينا أمير المؤمنين شيئًا من الحديث، قال: لستم بهم، إنما هم الدَّنِسَة ثيابهم المتشققة أرجلهم الطويلة شعورهم، رُوَّاد الآفاق وقُطَّاع المسافات، تارة بالعراق وتارة بالحجاز، وتارة بالشام وتارة باليمن، فهؤلاء نقلة الحديث[2].

(١) حلية الأولياء ٦/ ٣١٨.
(٢) البداية والنهاية ١٠/ ١٢٩.

فهذا تقـدير عظيم من أمير المؤمنين أبي جعفـر المنصور للعلم وأهله، ولا يقدِّر الأمور العظيمة إلا العظماء، فهو يرى أن كل ما هو فيه من متاع الدنيا.. من المال والجاه والسلطان لا يعـادل متعة الشيخ العـالم حينما يقول له تلمـيذه: مَنْ ذكَرْتَ رحمك الله.. وذلك لأن الاحترام الصادر من التلميـذ لشيخه لا يعادله أي احترام من أحد لأحد.

وأبو جعفر المنصور كان يفكِّر بالاحترام القلبي من التلاميذ لشيخهم، الذي تعبِّر عنه قَسَمَـاتُ وجوههم ونظرات التلهُّف والشوق إلى المزيد من السمـاع منه، فيرى أن هذا المشهد المؤثـر لا يتكرر وجوده في غير ذلك الجو الروحي المحـيط بحلقات العلم.

وحينما عرض عليه وزراؤه وكتَّـابه أن يوفروا له هذه المتعة بتحوُّلهم إلى طلاب علم وقـيامه بتـحديثـهم أبان لهم أن هذه الصورة المصطنـعة لا تُكَوِّن تلك المتـعة الروحية لأن أبطال هذا الميـدان ليسوا هم، وإنما هم طلاب العلم الحقيـقيون الذين ذكر صفتهم.

موقف للقاضي شريك النخعى رحمه الله:

مما كـان يلاحظه العلمـاء أن يكون الطالب على هيـئـة تضمن اتصـافـه بخلق التـواضع وبُعـدَه تمامـا عن مداخل الـكبر، يدل عـلى ذلك ما رواه حـمـدان بن الأصبـهاني قـال: كنت عند شَريك فـأتاه بعض ولد المهدي فـاستند، فـسأله عن حـديث فلم يلتفـت إليه وأقـبل علينا، ثم أعـاد فعـاد بمثل ذلك، فـقال: كـأنك تستخف بأولاد الخليفة، قال: لا ولكن العلم أزْيَن عند أهله من أن تضيعوه، قال: فجثا على ركبتيه، ثم سأله، فقال شريك: هكذا يطلب العلم[1].

وهذه لفتة جليلة من القاضي شريك بن عـبدالله النخعي رحمه الله تعالى يعلِّم بها طلاب العلم التواضع قـبل أن يعلمهم العلم، وذلك لضمان انتـفاعهم بالعلم، وعدم حصول القدوة السيئة بهم من الطلاب الآخرين.

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٠٧.

موقف للإمام ابن المبارك رحمه الله:

من مواقف الإمام عبدالله بن المبارك، ما رواه أحمد بن الحواري قال: جاء رجل من بني هاشم إلى عبدالله بن المبارك ليسمع منه، فأبى أن يحدثه، فقال الشريف لغلامه: قم فإن أبا عبدالرحمن لا يرى أن يحدثنا، فلما قام ليركب جاء ابن المبارك ليمسك بركابه، فقال: يا أبا عبدالرحمن تفعل هذا ولا ترى أن تحدثني! فقال: أُذِلُّ لك بدني ولا أذل لك الحديث[1].

فهذا الرجل الشريف قد أتى بهيئة تتسم بالترفع والكبرياء فتحرَّج الإمام ابن المبارك من أن يحدثه وهو على تلك الحال حتى لا يُذِلَّ حديث رسول الله ﷺ.

وهذه النظرة الجليلة وأمثالها كان فيها حمايةٌ للعلم من أن يحمله من ليسوا من أهله، ومع هذا فإن ابن المبارك كان داعية ناجحًا حينما تواضع لذلك الرجل وقام ليخدمه فأذل له نفسه في الوقت الذي أعز فيه علمه، فلله دره من إمام حكيم يضع الأمور في مواضعها.

من مواقف الإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله:

ذكر الحافظ الخطيب البغدادي من خبر بكر بن منير بن خليد بن عسكر قال: بعث الأمير خالد بن أحمد الذهلي والي بخاري إلى محمد بن إسماعيل: أن أحمل إلي كتاب «الجامع» و«التاريخ» وغيرهما لأسمع منك، فقال محمد بن إسماعيل لرسوله: أنا لا أذل العلم ولا أحمله إلى أبواب الناس، فإن كانت لك إلى شيء منه حاجة فاحضرني في مسجدي أو في داري، وإن لم يعجبك هذا فأنت سلطان فامنعني من المجلس ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة، لأني لا أكتم العلم، لقول النبي ﷺ: «**من سئل عن علم وكتمه ألجم بلجام من نار**»[2].

فهذا مثل جيد في إعزاز العلم، فقد فهم الإمام البخاري أن عدم حمل العلم سبب في عزة العالم ورفعة مكانته بين الناس ثم إنه يزل هذا العلم إلى أبواب

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٠٤.

(٢) تاريخ بغداد ٢/ ٣٣، والحديث المذكور أخرجه الأئمة أحمد في المسند ٢/ ٢٦٣، وأبو داود في سننه رقم ٣٦٥٨، (٤/ ٦٧)، والترمذي في سننه، رقم ٢٦٤٩ (٥/ ٢٩) وحسنه

الولاة يعدُّ إذلالاً له، وإن من العجائب الممقوتة أن يعتقد العالم أن عزَّته تكون بالتزلف إلى كبراء الناس وتمييز أبنائهم عن أبناء عامة المسلمين، أو الإفتاء بما يرضي أولئك الكبراء، ولقد وقع في ذلك بعض أهل العلم، وتجنبه وحذر منه العلماء الربانيون.

من مواقف أمير المؤمنين المأمون رحمه الله:

من مواقف الخلفاء في تقدير العلماء واحترامهم ما رُوي عن المأمون أنه قد وكل الفراء يُلقِّن ابنيه النحو، فلما كان يومًا أراد الفراء أن ينهض إلى بعض حوائجه فابتدرا إلى نعل الفراء يقدمانه له، فتنازعا أيهما يقدمه، ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فردًا، فقدماها.

وكان المأمون له على كل شيء صاحب، فرفع ذلك إليه الخبر، فوجه إلى الفراء فاستدعاه، فلما دخل عليه قال له: من أعز الناس؟ قال: ما أعرف أعز من أمير المؤمنين، قال: بلى من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليا عهد المسلمين، حتى رضى كل واحد أن يقدم له فردا، قال: يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما من ذلك ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها، أو أكسر نفوسهما عن شريفة حرصا عليها، وقد رُوي عن ابن عباس أنه أمسك للحسن والحسين ركابهما حين خرجا من عنده، فقال له بعض من حضر: أتمسك لهذين الحدثين ركابهما وأنت أسنُّ منهما؟ قال له: اسكت يا جاهل، لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل.

قال له المأمون: لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لومًا وعتبا وألزمتك ذنبا، وما وَضع ما فعلاه من شرفهما، بل رفع من قدرهما، وبيَّن عن جوهرهما، وقد ثبتت لي مَخِيلة الفراسة بفعلهما، فليس يكبر الرجل -وإن كان كبيرا- عن ثلاث: عن تواضعه لسلطانه، ووالده، ومعلمه العلم، وقد عوضتهما عما فعلاه عشرين ألف دينار، ولك عشرة آلاف درهم على حسن أدبك لهما[1].

فهذا مثل من أدب التلاميذ مع المعلمين يقدمه ولدا الخليفة المأمون، وإن هذا السلوك العالي لا يأتي عفوا وإنما هو نتاج تربية قويمة جادة تلقياها في البيت، وهذا

(١) تاريخ بغداد ١٤/ ١٥٠-١٥١. والفرَّاء هو يحيى بن زياد عالم اللغة.

مثل على عقل المأمون وحزمه وأدبه حيث ربَّى أولاده هذه التربية، وهو دليل على المستوى الرفيع الذى بلغه بعض الخلفاء في تربية أبنائهم على الأخلاق العالية، وإذا كان أبناء الكبراء يتصفون بهذا الخلق الرفيع فإن من دونهم سيتأسَّون بهم، وبهذا يصلح أبناء الأمة، ويتكوَّن منهم مستقبلاً المجتمعُ الصالح.

وجميل من أمير المؤمنين المأمون أن خاطب الفراء بذلك الخطاب الذي لفت انتباهه، حيث أورد المساءلة مورد المعاتبة وهو يريد في قرارة نفسه الإعزاز والإكبار، فإن صياغة المساءلة بقالب المعاتبة أنتجت ذلك الجواب التربوي الحكيم من الفراء، الذي أبان به عدم ارتياحه نفسيًا لما حدث من ولدي الخليفة، ولكنه أقرهما على ذلك الاحترام مخافة أن يصدهما عن فضيلة تنافسا عليها، وخليقة كريمة تسابقا إليها.

وبراعة علمية من الفراء أن استحضر حالاً خير ابن عباس مع الحسن والحسين رضي الله عنهم، فإن ذلك الخبر يدل على أن تواضع الكبير الشهير بالعلم لمن هم دونه في السنِّ والعلم لا يحط من قدره، بل يرفع من ذكره ويدل على رجاحة عقله، فكذلك تواضعُ من نشؤوا في بيوت العز والشرف وانتسبوا إلى أعلى مسؤول في الأمة لمعلميهم لا يحط من قدرهم بل يُعلي من شأنهم ويدل على أصالة معدنهم.

وموقف تربوي رفيع للمأمون يدل على رجاحة عقله وحلمه وأدبه حيث أيَّد الفراء على سلوكه التربوي مع ولديه بأسلوب يدل على عمق تأثره وفرط إعجابه بما حدث، ولا يقدر الفضائل إلا أهلها، ولا يعتز بالمكارم إلا من نشأ عليها.

موقفان للأميرين طاهر بن الحسين وابنه عبدالله رحمهما الله:

ومن مواقف الأمراء في تقدير العلماء وتكريمهم ما رواه الخطيب البغدادي بإسناده عن محمد بن جعفر بن هارون التميمي النحوي قال: كان طاهر بن الحسين -حين مضى إلى خراسان- نزل بمرو فطلب رجلا يحدثه ليلة، فقيل: ما ههنا إلا رجل مؤدب فأُدخل عليه أبو عبيد القاسم بن سلام فوجده أعلم الناس بأيام الناس والنحو واللغة والفقه، فقال له: مِنَ المظالم تركك أنت بهذا البلد،

فدفع إليه ألف دينار، وقال له: أنا متوجه إلى خراسان إلى حرب، وليس أحب استصحابك شفقا عليك، فأنفق هذا إلى أن أعود إليك، فألَّف أبو عبيد «غريب المصنف» إلى أن عاد طاهر بن الحسين من خراسان، فحمله معه إلى «سرَّ من رأى» وكان أبو عبيد دينا ورعا جوادا[1].

وكذلك قام بإكرامه وتقديره الأمير عبدالله بن طاهر، كما أخرج البغدادي من خبر حارث بن محمد بن أبي أسامة قال: حُمِل غريب حديث أبي عبيد إلى عبدالله بن طاهر فلما نظر فيه قال: هذا رجل عاقل دقيق النظر، فكتب إلى إسحاق بن إبراهيم بأن يجري عليه في كل شهر خمسمائة درهم[2].

ففي هذين الخبرين مثل من اهتمام الولاة بإكرام العلماء وتقديرهم، وإن ما يُحْظَى به العلماء من تقدير الأمراء وإكرامهم يُعدُّ أبلغ مشجع لهم على الإنتاج العلمي ونفع المسلمين، فهذا العالم الجليل أبو عبيد القاسم بن سلام لما يسر الله له من يفرغه من طلب الرزق تفرغ لتأليف الكتب النافعة التي استفاد منها طلاب العلم قرونا عديدة.

وهذا التقدير من الأميرين طاهر بن الحسين وابنه عبدالله يدل على ارتفاع مستواهما فى العلم والعقل والأدب.

من مواقف الوزير يحيى بن هبيرة رحمه الله:

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن رجب عن صاحب سيرة الوزير عون الدين يحيى ابن هبيرة قال: وكنا يومًا عنده والمجلس غاصٌّ بوُلاة الدين والدنيا، والأعيان الأماثل، وابنُ شافع يقرأ عليه الحديث إذ فجأنا من باب الستر وراء ظهر الوزير صراخ بَشِع وصياح يرتفع، فاضطرب المجلس وارتاع الحاضرون، والوزير ساكن ساكت، حتى أنهى ابن شافع قراءة الإسناد ومتنَه، ثم أشار الوزير إلى الجماعة: علَى رسلكم، ثم قام ودخل إلى الستر ولم يلبث أن خرج، فجلس وتقدم بالقراءة، فدعا له ابن شافع والحاضرون وقالوا: قد أزعَجنا ذلك الصياح، فإن رأى

(١) تاريخ بغداد ١٢/ ٤٠٥-٤٠٦، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٩٣.
(٢) تاريخ بغداد ٢/ ٤٠٦، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٩٥.

مولانا أن يعـرِّفنا سببه، فـقال الوزير: حتى ينتهي المجلس، وعـاد ابن شافع إلى القراءة حتى غابت الشمس وقـلوب الجماعة متعلقة بمعرفة الحـال، فعاودوه فقال: كان لي ابن صغير مات حين سمعتم الصياح ولولا تعيُّن الأمر بالمعروف في الإنكار عليهم ذلك الصيـاح لما قمت عن مجلس رسول الله ﷺ، فعـجب الحاضرون من صبره[1].

فهذا مثل في الصبر القوي الجميل يقدمه الوزير ابن هبيرة، فقد صبر على موت ابنه ولم يظهـر منه شيء من الجزع، وهـذا يدل على قوة إيمانه بقـضاء الله تعـالى وقدره، وصبره على بلائه.

وفي هذا الخبر موقف جلـيل لهذا الوزير في احترام السنة النبوية وتعظيمـها، فقد أبى أن يخبـر الحاضـرين بما حدث من مـوت ولده حتى انتـهى ذلك المجلس العلمي المخصص لأحاديث رسول الله ﷺ، وفي ذلك إعزاز للعلم الشرعي واحترام كبير له.

من مواقف القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني رحمه الله[2]:

من المواقف الرائعـة في إعـزاز العلم ما سـجله القـاضي علي بن عـبدالعـزيز الجرجاني رحمه الله في قصيدته الرائعة التى يقول فيها:

يقـولون لي فـيك انقـبـاض وإنما ... رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهمُ هان عندهم ... ومن أكـرمتْـه عـزة النفس أُكرمـا
ولم أقض حق العلم إن كـان كلما ... بدا طمـع صـيَّـرتُـه لي سُلَّمـا
ومـا كل برق لاح لي يسـتـفـزني ... ولا كل من لاقـيت أرضاهُ مُنعـما
إذا قـيل هذا منـهل قلت قـد أرى ... ولكن نفس الحـر تحـتـمل الظمـا
أُنَهْنِهُـهـا عن بعض مالا يـشينهـا ... مـخـافة أقـوال العـدا فـيمَ أو لِمَا
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخـدم من لاقيت لـكن لأُخدمـا

(١) طبقات الحنابلة ٣/ ٢٦٣.

(٢) هو القاضي أبو الحسـن علي بن عبدالعزيز بن الحسن الجـرجاني، تولى قضاء «جـرجان» ثم «الري» وقد جمع بين العلم والأدب، توفي عام ٣٩٢ هـ.

أأشقي به غرسا وأجنيه ذلة إذًا فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعُظِّما
ولكن أهانوه فهان ودنَّسوا مُحيَّاه بالأطماع حتى تجهما[1]

فهذا العالم الرباني يصور موقفه فيما يتصف به من الانقباض وعدم الانفتاح الواسع على المجتمع، ويُسوِّغ سلوكه هذا بأن الانفتاح الواسع الذي لا ينضبط بحدود معينة قد يوقع صاحبه فى الذل، وذلك فيما إذا احتاج إلى مداراة الكبراء ومجاملتهم.

وتبين أن من توسع في الاختلاط بالناس وجاراهم في مفاهيمهم الدنيوية فإنه يهون عندهم لأنه يكون مثلهم، ولكنه حينما يترفع عن هذه المفاهيم ويُعز نفسه عن حطام الدنيا الذي يسارع إليه أهلها فإنه يكون عزيزًا مكرمًا عند الناس.

وإذا كان كلما لاح له مجال من المجالات الدنيوية جعل ذلك سلمًا يتوصل به إلى التعرف على الأكابر وعقد الصداقة معهم فإن ذلك يتنافى مع مقاصد العلم والهدف السامي الذي من أجله عكف على تعلمه. فهو ثقيل الخُطَى في التعامل مع الدنيا وأهلها، لا يستخفه بَريقُها ولا رغبة بعض أبنائها في احتواء أهل العلم بالإنعام عليهم ثم الاستفادة منهم بعد ذلك في أمورهم الدنيوية.

فهو يعفُّ عن مناهل الدنيا المشبوهة، وتسمو نفسه عن ورود حياضها وإن كان محتاجًا إلى تلك المناهل لقلة ذات اليد.

حتى إنه ليمنع نفسه عن بعض الأمور الدنيوية التي لا تدنس شرفه العلمي من أجل أن لا يكون إقدامه عليه مطمعًا للحاقدين في الولوغ في عرضه وتشويه سمعته.

ويسمو بنفسه في إعزاز العلم عن أن يخدم أهل الدنيا، فهو لم يكدَّ في طلب العلم ويجتهد ليخدم هؤلاء، بل ليخدموه، فهل يشقى في طلب العلم ردحًا من الزمن ليخدم به أهل الدنيا فيجني ثمار غرسه ذلة ومهانة؟! فقد كان -والحالة

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي/ ٩٢.

هذه- سلوك طريق الجـهل أكثر حـزمًا وأسلم عـاقبة، فـإن الجاهل لا يُقـصَد من الكبراء لمحاولة إذلاله أو استغلاله لدنياهم.

ويبين أن العلم الديني حـصانة لأهلـه وصيـانة لهم من المثالب والنقـائص إذا صـانوا علمهم، وأعـزوه ولم يذلوه لأهل الدنيـا، وأن تعظيم العلم واحـترامـه مترتب على تعظيم أهـله له، فأما إذا أهانوه أمام الناس بتعـريض أنفسهم للإهانة وتدنيس وجـهه المشـرق بالأطماع الدنيـوية فإنه يهـون عند الناس ويقل أثره في التربية والإصلاح.

***

توجيهات ومواقف
في
الحكمة والفراسة وسرعة البديهة

من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه:

أخرج المؤرخ عمر بن شبة من خبر سعيد بن عبد العزيز: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أغزى جيشا فغزا فيهم فتًى كان يدنو من عمر رضي الله عنه ويألفه، فأوصى به عمر صاحب البعث خيرًا، فكان معه، فراودَتْه جارية لصاحب الجيش أو لرفيق له عن نفسها فامتنع منها، فأخذت نفقةً لسيدها فجعلتها في عيبة الفتى، فافتقدها صاحبها فوجدها في عيبة الفتى، فقطع يده، ثم أراد حسمها بالنار فامتنع عليهم فمات.

فلما قفل الجيش سأل عمر رضي الله عنه عن الفتى، فأخبروه بأمره، قال: وبِيَد عمر رضي الله عنه عصا، فجعل ينكت بها الأرض ويقول: والله ما زنى وما سرق، والله ما زنى وما سرق! هل كانت معكم جارية؟ قالوا: نعم، قال: إيتوني بها، فأتوه بها فسألها فاعترفت، فأمر بها عمر رضي الله عنه فقُتِلت به.

قال سعيد: فمِن يومئذ قال عمر رضي الله عنه: لا يقطع إلا إمام.

قال سعيد: وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من استعملناه منكم فليجعل الرفق -يعني العدل والأمانة-[1].

فهذه فراسة صادقة من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، حيث أدرك أوَّلاً أن دين ذلك الفتى يمنعه من ارتكاب الفواحش، ثم أدرك ثانيًا أنه قد وقع في حبائل امرأة شيطانة فكادت له حتى أوقعته في تهمة هو برىء منها.

وهكذا ظهرت لنا صفة من صفات أمير المؤمنين عمر التي تميز بها، فكم هي الصفات السامية والأخلاق العالية التي تفوق فيها!!

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر الأحنف بن قيس قال: ما سمع الناس بمثل عمر بن الخطاب في باب الدين والدنيا، كان منور القلب فطنا بجميع الأمور، بَيْناه يطوف ذات ليلة سمع امرأة تقول في الطواف وهي تنشد:

---

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٨٢٠ - ٨٢١.

فـمنهن من تُسـقى بعـذب مبـرد نُقـــاخ فـتـلكم عند ذلك قـــرّتِ
منه من تُـسـقى بـأخـضـــر آجن أجـاج ولولا خـشـيـة الله فـرَّتِ

ففطن رحمه الله إلى ما تشكو، فبعث إلى زوجـها، فقال لرجل: استنكه فمه، فوجده متغـير الفم فخيره بين خمسمـائة درهم وجارية من الفيء على أن يطلقها، فاختار خمسمائة والجارية فطلقها[1].

فهذا أسلوب بليغ في الشكوى من تلك المرأة، وفكر لماح وعاطفة جياشة ونظرة رحيمة حانية من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فقد فهم مشكلة تلك المرأة التي عبرت عنهـا بالتلميح، وحل مشكلتهـا بعدل وحزم، وهكذا تكون سيـاسة العدل والرحمة والشعور بالمسؤولية.

مثل من حكمته في علاج المشكلات:

من مواقف أمـير المؤمنين حُسْن تصرفـه في مواجهة المفـاجآت والنوائب، ومن أمثلة ذلك ما أخرجه الإمام البخاري ومـسلم وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسَرْغ لقيه أمراء الأجناد - أبو عـبيدة بن الجراح وأصحابه - فـأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام، قـال ابن عباس: فقال عـمر: ادع لي المهاجرين الأولـين - فدعاهم فاستـشارهم وأخبرهم أن الوباء قـد وقع في الشام، فاخـتلفوا فقال بعـضهم: قد خرجنا لأمـر ولا نرى أن نرجع عنه، وقال بعضـهم: معك بقية الناس وأصـحاب رسول الله ﷺ ولا نرى أن تُقدمهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادعوا لي الأنـصار، فدعـوتهم فاسـتشـارهم فسلكوا سـبيل المهـاجرين واختـلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من كان ههنا من مشيخة قريش من مهـاجرة الفتح، فـدعوتهم فلم يختلـف منهم عليه رجلان: فـقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: أني مُصْبِح على ظهر فأصبحـوا عليه، فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفرارًا من قـدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت إن كانت لك

(١) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣٥٥.

إبل هبطَتْ واديًا له عُدوتان: إحداهما خصيبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبدالرحمن بن عوف - وكان متغيبًا في بعض حاجته - فقال: إن عندي في هذا علمًا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فرارًا منه**».

قال: فحمد الله عمر، ثم انصرف[1].

ويمكن تلخيص المواقف التي تتجلى في هذا النص فيما يلي:

١- اهتمام عمر رضي الله عنه بتطبيق مبدأ الشورى في الأمور المهمة، ونجد أنه بدأ بالمهاجرين الأولين، ثم بالأنصار، ثم بالمهاجرين بعد فتح مكة، وذلك أن من كان في الإسلام أقدم كان به أعلم فهو أولى بأن يقدَّم في المشورة، فأمْر الشورى في الإسلام يدور دائمًا على العلماء بهذا الدين.

وقد أخذ عمر رضي الله عنه برأي الكثرة من أهل الرأي، قال الحافظ ابن حجر في بيان فوائد الحديث: وفيه الترجيح بالأكثر عددًا والأكثر تجربة لرجوع عمر لقول مشيخة قريش مع ما انضم إليهم ممن وافق رأيهم من المهاجرين والأنصار، فإن مجموع ذلك أكثر من عدد من خالفه من كل من المهاجرين والأنصار[2].

وهذا يفيد بأن الكثرة أمر ملحوظ في المشورة إذا كان المستشارون من أهل الدين والرأي السديد.

٢- فقه عمر وسعة تفكيره حينما قال: أفرُّ من قدر الله إلى قدر الله، قال الحافظ ابن حجر في بيان كلام عمر هذا: وأطلق عليه فرارًا لشبهه به في الصورة وإن كان ليس فرارًا شرعيًا، والمراد أن هجوم المرء على ما يهلكه منهي عنه، ولو فعل لكان من قدر الله، وتجنبه ما يؤذيه مشروع وقد يقدر الله وقوعه فيما فرَّ منه فلو فعله أو تركه لكان من قدر الله، فهما مقامان: مقام التوكل ومقام التمسك بالأسباب[3].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الطب رقم ٥٧٢٩ (الفتح ١٠/ ١٧٩). صحيح مسلم، كتاب السلام رقم ٢٢١٩. تاريخ الطبري ٤/ ٥٧.

(٢) الفتح ١٠/ ١٩٠.

(٣) الفتح ١٠/ ١٨٥.

وقد أكد عمر رضي الله عنه بيان اجتهاده هذا بضرب هذا المثل المقنع فيمن هبط بماشيته واديًا له عُدوتان، يعني جانبان مرتفعان، أحدهما خصيب والآخر جدب، فهو إن ساق ماشيته نحو الخصب ساقها بقدر الله، وإن ساقها نحو الجدب ساقها بقدر الله، وإذا كان راعي الماشية مسؤولاً عن أن يرتاد لها ما ينفعها وأن يحوزها عما يضرها فإن مسؤولية الولاية في الأمة أعظم من ذلك بكثير.

وقد كان من تمام التوفيق أن وافق اجتهاد عمر وما عزم عليه من الرجوع أمرَ النبي ﷺ الذي كان محفوظًا عند عبد الرحمن بن عوف وهو قوله في هذا الوباء **«إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه»**.

أما بيان هذا الحديث فقد أفاض فيه الحافظ ابن حجر حيث نقل عن الإمام الطحاوي قوله: والذي يظهر والله أعلم أن حكمة النهي عن القدوم عليه لئلا يصيب من قدم عليه بتقدير الله فيقول: لولا أني قدمت هذه الأرض لما أصابني، ولعله لو أقام في الموضع الذي كان فيه لأصابه، فأُمِر أن لا يقدم عليه حسمًا للمادة، ونُهي من وقع وهو بها أن يخرج من الأرض التي نزل بها لئلا يسلم فيقول مثلاً: لو أقمت في تلك الأرض لأصابني ما أصاب أهلها، ولعله لو كان أقام بها ما أصابه من ذلك شيء أ.هـ.

قال الحافظ: ويؤيده ما أخرجه الهيثم بن كليب والطحاوي والبيهقي بسند حسن عن أبي موسى - يعني الأشعري رضي الله عنه - أنه قال: «إن هذا الطاعون قد وقع، فمن أراد أن يتنزه عنه فليفعل، واحذروا اثنتين، أن يقول قائل: خرج خارج فسلم، وجلس جالس فأصيب فلو كنت خرجت لسلمت كما سلم فلان، أو لو كنت جلست أُصبت كما أصيب فلان» قال: لكن أبا موسى حمل النهي على من قصد الفرار محضًا، ولا شك أن الصور ثلاث، من خرج لقصد الفرار محضًا، فهذا يتناوله النهى لا محالة، ومن خرج لحاجة متمحضة لا لقصد الفرار أصلا، ويتصور ذلك فيمن تهيأ للرحيل من بلد كان بها إلى بلد إقامته مثلاً ولم يكن الطاعون وقع فاتفق وقوعه في أثناء تجهيزه فهذا لم يقصد الفرار أصلاً فلا يدخل في النهي، والثالث من عرضَتْ له حاجة فأراد الخروج إليها وانضم إلى ذلك أنه قصد الراحة من الإقامة بالبلد التي وقع بها الطاعون فهذا محل النزاع، ومن جملة

هذه الصورة الأخيرة أن تكون الأرض التي وقع بها وخمة، والأرض التي يريد التوجه إليها صحيحة فيتوجه بهذا القصد، فهذا جاء النقل فيه عن السلف مختلفًا، فمن منع نظر إلى صورة الفرار في الجملة، ومن أجاز نظر إلى أنه مستثنى من عموم الخروج فرارًا لأنه لم يتمحض للفرار وإنما هو لقصد التداوي، وعلى ذلك يحمل ما وقع في أثر أبي موسى المذكور «أن عمر كتب إلى أبي عبيدة: إنَّ لي إليك حاجة فلا تضع كتابي من يدك حتى تقبل إلي، فكتب إليه: إني قد عرفت حاجتك، وإني في جند من المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم، فكتب إليه: أما بعد فإنك نزلت بالمسلمين أرضًا غميقة فارفعهم إلى أرض نزهة، فدعا أبو عبيدة أبا موسى فقال: اخرج فارتَدْ للمسلمين منزلاً حتى أنتقل بهم.

قال: فذكر القصة في اشتغال أبي موسى بأهله [يعني لما أصيبت بالطاعون] ووقوع الطاعون بأبي عبيدة لما وضع رجله في الركاب متوجهًا، وأنه نزل بالناس في مكان آخر فارتفع الطاعون.

قال: وقوله «غميقة» أي قريبة من المياه والنزوز وذلك مما يَفسد غالبًا به الهواء لفساد المياه، والنَّزِهة الفسيحة البعيدة عن الوخم.

قال: فهذا يدل على أن عمر رأى أن النهي عن الخروج إنما هو لمن قصد الفرار متمحضًا، ولعله كانت له حاجة بأبي عبيدة في نفس الأمر فلذلك استدعاه، وظن أبو عبيدة أنه إنما طلبه ليسلم من وقوع الطاعون به فاعتذر عن إجابته لذلك، وقد كان أمْر عمر لأبي عبيدة بذلك بعد سماعهما للحديث المذكور من عبد الرحمن بن عوف فتأول عمر فيه ما تأول، واستمر أبو عبيدة على الأخذ بظاهره.

قال: وأيد الطحاوي صنيع عمر بقصة العرنيين فإن خروجهم من المدينة كان للعلاج لا للفرار[1].

هذا وقصة العرنيين كانت في عهد النبي ﷺ وكانوا قد وفدوا إلى المدينة فاستوخموها فأمرهم أن يخرجوا خارج المدينة وأن يشربوا من ألبان الإبل وأبوالها، كما جاء في رواية الإمام البخاري[2].

(١) فتح الباري ١٠/١٨٨ - ١٨٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الطب رقم ٥٧٢٧.

ونقل عن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد قوله: الذي يترجح عندي في الجمع بينهما - يعني عدم القدوم وعدم الخروج - أن في الإقدام عليه تعريض النفس للبلاء ولعلها لا تصبر عليه، وربما كان فيه ضرب من الدعوى لمقام الصبر أو التوكل فَمُنِع ذلك حذرًا من اغترار النفس ودعواها ما لا تثبت عليه عند الاختبار، وأما الفرار فقد يكون داخلاً في التوغل في الأسباب بصورة من يحاول النجاة بما قدر عليه، فأمرنا الشارع بترك التكلف في الحالتين، ومن هذه المادة قوله ﷺ «**لاتتمنوا لقاء العدو وإذا لقيتموهم فاصبروا**» فأمر بترك التمني لما فيه من التعرض للبلاء وخوف اغترار النفس إذ لا يُؤمن غدرها عند الوقوع، ثم أمرهم بالصبر عند الوقوع تسليمًا لأمر الله تعالى[1].

عام الرمادة ومواقف لعمر رضي الله عنه:

من صفات أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه التي تميز بها، مقدرته على الخروج من الشدائد، وسياسة الأمور في زمن النكبات والجوائح.

ومن أبرز الأمثلة في ذلك ما جرى في عام الرمادة حيث كان في العام الثامن عشر جدب شديد عم أرض الحجاز.

قال الحافظ ابن كثير: وسميت - يعني تلك السنة - عام الرمادة لأن الأرض اسودت من قلة المطر حتى عاد لونها شبيهًا بالرماد وقيل: لأنها تسفي الريح ترابًا كالرماد ويمكن أن تكون سميت لكل منهما والله أعلم[2].

وأخرج ابن جرير الطبري بإسناده عن عدد من الشيوخ قالوا: أصابت الناس في إمارة عمر رضي الله عنه سَنَةٌ بالمدينة وما حولها، فكانت تسفى إذا ريحت[3] ترابًا كالرماد، فسمّي ذلك العام عام الرمادة، فآلى عمر ألا يذوق سمنًا ولا لبنًا ولا لحمًا حتى يحيى الناس من أوّل الحيا، فكان بذلك حتى أحيى الناس من أول الحيا، فقدمت السوق عُكة من سمن ووطب من لبن فاشتراهما غلام لعمر بأربعين، ثم أتى عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، قد أبر الله يمينك، وعظّم أجرك، قدم السوق وطب من لبن وعُكة من سمن فابتعتهما بأربعين، فقال عمر: أغليت

(١) فتح الباري ١٠/ ١٩٠.
(٢) البداية والنهاية ٧/ ٩٠.
(٣) ريحت: أصابتها الريح.

بهما، فتصدق بهما، فإني أكره أن آكل إسرافًا. وقال عمر: كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسسني ما مسهم![1].

وأخرج محمد بن سعد من خبر عبد الله بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده قال: كان عمر يصوم الدهر[2] قال: فكان زمان الرمادة إذا أمسى أتى بخبز قد ثرد بالزيت إلى أن نحروا يومًا من الأيام جزورًا فأطعمها الناس، وغرفوا له طيبها فأتي به فإذا فدرٌ من سنامٍ ومن كبد، فقال: أنّى هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين من الجزور التي نحرنا اليوم، قال: بَخْ بَخْ بئس الوالي أنا إن أكلتُ طيبها وأطعمتُ الناس كراديسها، ارفَعْ هذه الجفنة، هات لنا غير هذا الطعام. قال فأُتي بخبز وزيت، قال فجعل يكسر بيده ويَثْرِدُ ذلك الخبز ثم قال: ويحك يا يرفأ! احملْ هذه الجفنة حتى تأتي بها أهل بيت بثَمْغ فإني لم آتِهم منذ ثلاثة أيام، وأحسبهم مُقفرين، فضعها بين أيديهم[3].

كما أخرج أيضًا من خبر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان عمر بن الخطاب أحدث في زمان الرمادة أمرًا ما كان يفعله، لقد كان يصلي بالناس العشاء ثم يخرج حتى يدخل بيته فلا يزال يصلي حتى يكون آخر الليل، ثم يخرج فيأتي الأنقاب فيطوف عليها وإني لأسمعه ليلة في السحر وهو يقول: اللهُم لا تجعل هلاك أمة محمد على يدي[4].

وأخرج الطبري من خبر عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: كانت في آخر سنة سبع عشرة وأول سنة ثماني عشرة، وكانت الرمادة جوعًا أصاب الناس بالمدينة وما حولها فأهلكهم حتى جعلت الوحش تأوي إلى الإنس، وحتى جعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها وإنه لمقفر[5].

وقال الحافظ ابن كثير: وقد روينا أن عمر عَسَّ المدينة ذات ليلة عام الرمادة فلم يجد أحدًا يضحك، ولا يتحدث الناس في منازلهم على العادة، ولم ير سائلاً يسأل، فسأل عن سبب ذلك فقيل له: يا أمير المؤمنين إن السُّؤَّال سألوا فلم يعطوا

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٩٨.

(٢) صوم الدهر غير مشروع ولم يعرف هذا عن عمر، فلعل المراد أنه يكثر من سرد الصوم.

(٣) طبقات ابن سعد ٣/٣١٢.

(٤) طبقات ابن سعد ٣/٣١٢.

(٥) تاريخ الطبري ٤/٩٨.

فقطعوا السؤال، والناس في همٍّ وضيق فهم لا يتحدثون ولا يضحكون، فكتب عمر إلى أبي موسى بالبصرة: أن يا غوثاه لأمة محمد، وكتب إلى عمرو بن العاص بمصر: أن يا غوثاه لأمة محمد، فبعث إليه كل واحد منهما بقافلة عظيمة تحمل البر وسائر الأطعمات، ووصلت ميرة عمرو في البحر إلى جدة ومن جدة إلى مكة.

قال الحافظ: وهذا الأثر جيد الإسناد، لكن ذكر عمرو بن العاص في عام الرمادة مشكل، فإن مصر لم تكن فتحت في سنة ثماني عشرة، فإما أن يكون عام الرمادة بعد سنة ثماني عشرة، أو يكون ذكر عمرو بن العاص في عام الرمادة وهمًا والله أعلم[1].

وأخرج ابن جرير الطبري من خبر عبد الرحمن بن كعب قال: كان ذلك - يعني حادث الرمادة - وعمر كالمحصور عن أهل الأمصار[2]، حتى أقبل بلال بن الحارث المزني فاستأذن عليه فقال: أنا رسول رسول الله إليك، يقول لك رسول الله ﷺ: لقد عهدتك كَيِّسًا ومازلت على ذلك[3] فما شأنك؟ فقال: متى رأيت هذا؟ قال: البارحة، فخرج فنادى في الناس فصلى بهم ركعتين، ثم قام فقال: أيها الناس أنشدكم الله هل تعلمون مني أمرًا غيرُه خير منه؟ قالوا: اللهم لا، قال: فإن بلال بن الحارث يزعم ذَيَّةَ وذية - يعني كذا وكذا - قالوا: صدق بلال فاستغث بالله ثم بالمسلمين، فبعث إليهم - وكان عمر عن ذلك محصورًا - فقال عمر: الله أكبر بلغ البلاء مدته فانكشف، ما أُذِنَ لقوم في الطلب إلا وقد رفع عنهم البلاء، فكتب إلى أمراء الأمصار: أغيثوا أهلَ المدينة ومن حولها، فإنه قد بلغ جهدهم.

وأخرج الناس إلى الاستسقاء، فخرج وخرج معه العباس ماشيًا، فخطب فأوجز ثم صلى، ثم جثا لركبتيه وقال: اللهم إياك نعبد وإياك نستعين، اللهم اغفر لنا وارحمنا وارض عنا، ثم انصرف، فما بلغوا المنزل راجعين حتى خاضوا في الغدران[4].

---

(١) البداية ٧/ ٩٠.

(٢) يعني أنه لم يطلب المدد منهم رجاء انكشاف الغمة.

(٣) جاء في الطبري: «ومازلت على رجل» والتصويب من البداية والنهاية.

(٤) تاريخ الطبري ٤/ ٩٨ - ٩٩.

وجاء في رواية سيف بن عمر عن شيوخه قالوا: كتب عمر إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها ويستمدهم، فكان أول من قدم عليه أبو عبيدة ابن الجراح في أربعة آلاف راحلة من طعام، فولاه قسمتها فيمن حول المدينة، فلما فرغ ورجع إليه أمَرَ له بأربعة آلاف درهم، فقال: لا حاجة لي فيها يا أمير المؤمنين، إنما أردت الله وما قِبَله، فلا تُدْخل عليَّ الدنيا، فقال: خذها فلا بأس بذلك إذ لم تطلبه، فأبى، فقال: خذها فإني قد وليت لرسول الله ﷺ مثل هذا فقال لي مثل ما قلت لك، فقلت له كما قلت لي، فأعطاني، فقبل أبو عبيدة وانصرف إلى عمله[1].

وقد استمر هذا الحال بالناس تسعة أشهر، ثم تحول الحال إلى الخصب والدعة، وانشمر الناس عن المدينة إلى أماكنهم[2].

قال الإمام الشافعي: بلغني أن رجلا من العرب قال لعمر حين ترحَّلَت الأحياء عن المدينة: لقد انجلَتْ عنك وَلأنَّك لابنُ حرة، أي واسيت الناس وأنصفتهم وأحسنت إليهم[3].

وأخرج ابن سعد من خبر زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما كان عام الرمادة تجلَّبت العرب من كل ناحية فقدموا المدينة فكان عمر بن الخطاب قد أمر رجالاً يقومون عليهم ويقسمون عليهم أطعمتهم وإدامهم فكان يزيد ابن أخت النمر، وكان المسور ابن مخرمة، وكان عبدالرحمن بن عبدالقارئ، وكان عبدالله بن عتبة بن مسعود، فكانوا إذا أمسوا اجتمعوا عند عمر فيخبرونه بكل ما كانوا فيه، وكان كل رجل منهم على ناحية من المدينة، وكان الأعراب حلولاً فيما بين رأس الثنية إلى راتج إلى بني حارثة إلى بني عبد الأشهل إلى البقيع إلى بني قريظة، ومنهم طائفة بناحية بني سلمة هم مُحدقون بالمدينة، فسمعتُ عمر يقول ليلةً وقد تعشى الناس عنده: أحْصوا من تعشى عندنا، فأحصوهم من القابلة فوجدوهم سبعة آلاف رجل، وقال أحصوا العيالات الذين لا يأتون والمرضى والصبيان، فأحصوا فوجدوهم أربعين ألفا ثم مكثنا ليالى فزاد الناس فأمر بهم فأحصوا فوجدوا من

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٠٠.
(٢، ٣) البداية والنهاية ٧/ ٩٠.

تعـشى عنده عشـرة آلاف والآخرين خـمسين ألفًـا، فمـا برحوا حـتى أرسل الله السـماء، فلمـا مطرت رأيتُ عـمر قـد وكل كل قومٍ من هؤلاء الـنفر بناحـيتـهم يخرجونهم إلى البادية ويعطونهم قوتًا وحُملانًا إلى باديتهم[1].

كما أخرج مـن خبر نافع مولى الزبير قال: سـمعت أبا هريرة يقول: يرحم الله ابن حنتمة[2] لقد رأيته عام الرمادة وإنه ليـحمل على ظهره جرابين وعكة زيت في يده، وإنه ليعتقب هو وأسلم، فلما رآني قال: من أين يا أبا هريرة؟ قلت: قريبًا، قال فأخذت أعقبـه فحملناه حتى انتهينا إلى صرار فإذا صِرٌم نحـوٌ من عشرين بيتًا من مُحارب فقال عـمر: ما أقدمكم؟ قالوا: الجهد، قال: فأخـرجوا لنا جلد الميتة مشويًا كانوا يأكلونه ورمة العظام مسحوقـة كانوا يسفونها، فرأيت عمر طرح رداءه ثم اتزر فمـا زال يطبخ لهم حتى شـبعـوا، وأرسل أَسْلم إلى المدينة فجـاء بأبعرة فحملهم عليها حتى أنزلهم الجبانـة، ثم كساهم. وكان يختلف إليهم وإلى غيرهم حتى رفع الله ذلك[3].

ومن روائع أقوال أميـر المؤمنين عمر رضي الله عنه في ذلك العام مـا أخرجه ابن سعد من خبر سليمان بن يسار قال: خطب عمر بن الخطاب الناس في زمان الرمادة فقـال: أيها الناس اتقـوا الله في أنفسكم وفـيما غـاب عن الناس من أمركم، فـقد ابتليتُ بكم وابتليتم بي فما أدري ألسُّخْطةُ عليّ دونكم أو عليكم دوني أو قد عمّتْني وعمْتكم، فهلموا فندعُ الله يُصلح قلوبنا وأن يرحمنا وأن يرفع عنّا المَحْلَ. قال فرُئي عمر يومئذ رافعًا يديه يدعو الله، ودعا الناس وبكى وبكى الناس مَليّا، ثم نزل.

وذكر ابن سعد عدة أخبار في استسقاء عمر والمسلمين، منها ما أخرجه من خبر عبـدالله بن نيار الأسلمي عن أبيه قـال: لما أجمع عمـر على أن يستسـقي ويخرج بالناس كتب إلى عمّاله أن يخرجوا يوم كـذا وكذا وأن يتضرعوا إلى ربهم ويطلبوا إليه أن يرفع هذا المَحْلَ عنهـم، قال وخرج لذلك اليوم عليـه بُرْدُ رسول الله ﷺ، حتى انتهى إلى المصلى فخطب الناس وتضرع، وجعل الـناس يُلحُّون فما كان أكثر دعائه إلا الاسـتغفار حـتى إذا قرب أن ينصرف رفع يديه مدّا وحـول رداءه وجعل

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٣١٦ - ٣١٧.
(٢) يعني عمر بن الخطاب نسبة لأمه.
(٣) طبقات ابن سعد ٣/ ٣١٤.

اليمين علـى اليسار ثم اليـسار على اليـمين، ثمّ مدّ يديه وجعل يُـلح في الدعاء، وبكي عمر بكاءً طويلاً حتى أخضل لحيته[1].

وكذلك ما أخرجه من خبـر السائب بن يزيد قال: نظرتُ إلى عمر بن الخطاب يومًـا في الرمادة غـدا متبـذلاً متـضرعًـا عليه بُرْدٌ لا يبلـغ ركبتـيه، يرفع صـوته بالاستغـفار وعيناه تُهراقان على خـديه، وعن يمينه العباس بن عبـدالمطلب. فدعا يومئذ وهو مسـتقبل القبلة رافعًا يديه إلى السمـاء وعَجّ إلى ربه، فدعا ودعا الناس معه، ثم أخـذ بيد العباس فقـال: اللهم إنا نستشفع بعمّ رسـولك إليك. فما زال العباس قائمًا إلى جنبه مليّا والعباس يدعو وعيناه تهمُلان[2].

فهذه الأخبار فيها مواقف وعبر منها:

١- ما قام به أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه من السـياسة الحكيمة الحازمة في احتواء تلك الأزمة الكبيرة، حيث تولى الإنفاق على القبائل العربية التي لجأت إلى المدينة، ورتب لهذا الأمر رجالا يحصون الناس ويقسمون الأرزاق بينهم.

ومع ما ذكر في الروايات المذكورة من شدة تلك الأزمـة وضراوتها فإنه لم يذكر حدوث وفـيات من الجوع، وذلك راجع إلى السـياسة الحازمـة الحكيمة من أمـير المؤمنين عـمر رضي الله عنه، وإلى قـوة الإيمان عند المسلمين آنذاك، حـيث ترتب عليه التراحم والمواساة بينهم.

وإن نجاح الصـحابة بقيـادة أمير المؤمنين رضي الله عنهم في عـلاج تلك الأزمة والخروج منها بنجاح ليُعدُّ درسًا بليغـا في الأعمال الإغاثية، حيث تجمع في المدينة وما حولها ستون ألفا من العرب وبقـوا عدة شهور ليس لهم طعام إلا ما يقدم لهم من مالية الدولة ومن أهل المدينة، إضـافة إلى الأعراب الذين لم يصلوا إلى المدينة وكانت تصل إليهم الإمدادات.

٢- أمثلة رائعة من زهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، ومواساته للفقراء من رعيته في المـعيشة، مع ما حصل له من ضـرر في بدنه، لكن أمر النظر إلى البدن عنده ثانوي، فـهو يريد أن يمسه مـا يمس الفقـراء من الجوع وشظف العـيش حتى

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٣٢٠ - ٣٢١.
(٢) المرجع السابق ٣/ ٣٢١.

يكون على ذكر دائم لهم، وقد تأسى به المسلمون من أهـل المدينة، حيث اقتصروا على الطعام الضروري وأنفقوا على إخوانهم القادمين.

٣- مثل من تواضع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، حيث يحمل المؤونة على ظهـره ليوصـلها إلى الأعـراب، ثم لا يكتـفي بذلك بل يتـولى الطبخ لهم حـتى يشبعوا، ثم يتردد علـى القبائل العربية بنفسه يتفقـد أحوالهم، فما الذي دفع أعلى حاكم في الأرض آنذاك إلى أن يجعل من نفسه حمَّالاً للمتاع طباخا للناس؟!

إنه الإيمان القوي، والعقل الكبير، حيث كان يشعر بمسؤوليته عن الأمة ويخشى أن لا تؤدَّى كما يريد إذا وكل غيره بذلك.

٤- أمثلة من خشية الله تعالى، حيث كان عمر يقول: اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يدي، وحيث يتساءل عن سبب البلاء الذي نزل بالمسلمين، فيخشى أن يكون عـقوبة على تقـصير مـنه أو من المسلمين، وهذا من العلم الراسخ بأسـباب المصائب التي تصـيب الأمم، وقد أمر المسلمين بدعـاء الله تعالى أن يصلح قلوبهم لتنزل رحـمته بهم فـيرفع عنهم البـلاء، وقد نفع الله تعـالى المسلمين بعلم عـمر والصحابة مـعه رضي الله عنهم ودعائهم لله تعالى بعد صـلاح قلوبهم وأعمالهم، فارتفع عنهم البلاء.

وحين يكون في الأمة علماء راسخون ربانيون فإنهم يذكِّرون الناس بأن من أهم أسباب المصائب وقـوع بعض أفراد الأمة بالمعاصي، كما جـاء في قول الله تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾ [الشورى: ٣٠]، وإذا عُرفت أسـباب المصـائب فإن انكشـاف البلاء بهـا يكون بمعالجـة أسبابـها، وذلك بالاستـقامة على طاعـة الله تعالى واجتناب مـعاصيـه، وشدة اللجوء إليـه ودعائه ليكشف البلاء عن الأمة.

٥- في قول عمر: أيها الناس أنشدكم الله هل تعلمـون مني أمرا غيره خير منه؟ قالوا: اللهم لا.. في هذا شهـادة عليا في العدل تصدر من قوم لا يعـرفون النفاق ولا المداهنة، وإنها لأعلى مثال لعاجل بشرى المؤمن وذلك بثناء الصالحين وتزكيتهم.

٦- الإشادة بموقف أبي عـبيدة بن الجـراح الزاهد حيث رفض قـبول المال الذي أعطاه إياه الخليـفـة عـمـر مقـابل عـمله في الدولة ولم يقـبل إلا بعـد الإلحـاح

والاستشهـاد بموقف النبي ﷺ المشابه مع عمر، وهذا نموذج فريد للعنـاصر الزكية من البشر التي ارتفعت عن ضغوط المطالب الدنيوية، وتجردت للعمل الأخروي.

موقف لكعب بن سور الأسدي رضي الله عنه:

ذكر أبو الحسن الماوردي من رواية الزبير بن بكار عن إبراهيـم الحرمي بن محمد ابن معن الفـغاري أن امرأة أتت عمـر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت: يا أمـير المؤمنين إن زوجي يصوم النهار ويقوم اللـيل وأنا أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله، فقـال لها: نِعْمَ الزوج زوجك، فجـعلتْ تكرر عليه القول وهو يكرر عليـها الجواب، فقال له كعب بن سور الأسـدي: يا أمير المؤمنين هذه امرأة تشكو زوجها في مباعـدته إياها في فراشه، فـقال له عمر رضي الله عنه: كـما فهمت كـلامها فاقض بينهـما، فقال كعب: عليَّ بـزوجها فأتي به، فقـال: إن امرأتك تشكوك، فقال أفي طعام أو شراب؟ قال لا في واحد منهما، فقالت المرأة:

يا أيهـا القـاضي الحكـيم رُشْـدُه ... ألهي خليلي عن فـراشي مسـجده
زهَّده في مـضـجـعي تعـبـده ... نهـاره وليلـهُ مـا يـرقـده
فلستُ في أمـر النسـاء أحـمـده ... فـاقض القضـا يا كـعب لا تُرده

قال الزوج:

زهَّدني في فـرشـها وفي الحَـجَلْ ... أنِّي امـرؤ أذهلني مـا قـد نزل
في سورة النحل وفي السبع الطُّوَل ... وفي كـتـاب الله تخـويفٌ جَلَل

فقال كعب:

إن لهـا حـقًـا عليـك يا رجل ... نصـيـبـهـا فى أربع لمن عَـقَل

فأعطها ذاك ودع عنك العلل

ثم قال له: إن الله قد أحل لك من النسـاء مثنى وثلاث ورباع، فلك ثلاثة أيام ولياليهن تعبد فيهن ربك ولها يوم وليلة، فقال عمر لكعب رضي الله عنه: والله ما أدري من أي أمريك أعجب، أمـن فهمك أمرهما؟ أم من حكمك بـينهما؟ اذهب فقد وليتك القضاء بالبصرة[1].

(١) الأحكام السلطانية/ ١١٥ - ١١٦.

ففي هذا الخبر فراسة جيدة من كعب بن سور الأسدي رضي الله عنه ونباهة عالية، حيث إن المرأة قد عرضتْ مشكلتها بأسلوب الكناية، وذلك من اللباقة وحسن الأدب، ففهم مرادها لأن تلك الأمور التي ذكرتها مما يُمدح بها الرجال لا مما يعابون بها، وقضى لها بقضاء عادل بتكليف من أمير المؤمنين.

وعمر رضي الله عنه مشهور بالفراسة والنباهة، وقد تقدم لنا أمثلة على ذلك، ولكن ربما كان فكره مشغولاً بشيء من الأمور العامة والمرأة تكلمه.

ولقد كان متجردا للحق بريئًا من حظ النفس حينما أثنى على كعب بن سور وولاه القضاء في تلك القضية.

من مواقف عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه:

من ذلك ما أخرجه أيضًا المؤرخ ابن شبة النميري من خبر الليث بن سعد: أن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه خرج إلى العمرة في خلافة عثمان رضي الله عنه، فاشتكي عثمان بعده[1] حتى خاف على نفسه، وأوصى ودعا مولاه حمران فكتب عهده في الناس، واستخلف عبدالرحمن بن عوف في عهده، وأمر حمران أن لا يذكر لبَشَر، فلم يرجع عبدالرحمن من العمرة حتى عُوفي عثمان رضي الله عنه، فانطلق حمران إلى ابن عوف حين قدم فرحب به، ثم أخبره بالذي كان من استخلافه إياه على الأمة واستكتمه، فقال عبدالرحمن: ما يسعني أن أكتم ذلك عنه، ومالي بُدٌّ أن أخبره إياه ليحذرك، قال: أهلكتني، قال: إني لن أفعل حتى أستأمن لك منه، فأتاه عبدالرحمن مسلِّما ودعا له فيما رزقه الله من العافية، ثم قال: إن لبعض الناس ذنبا لا إثم عليك في العفو عنه فهب ذلك لي، قال: ما أنا بفاعل حتى تخبرني ما هو، قال: ما أنا بمخبرك ولكن أعطني ذلك، فلم يزل به حتى فعل، فقال: قد عفوت عنه إذا كان شيئا لا إثم فيه، فذكر له أمر حمران، فقال: أخيِّره في العقوبة أو فراقي، فقال حمران: أفشيتَ سري! قال: قد كان ذلك، قال: [يعني عثمان] فاختر أيَّ ذلك شئت، إن شئت أن أجلدك مائة سوط، وإن شئت أن تخرج فلا أراك ولا تراني، فاختار الخروج إلى العراق، فأصاب هناك -لمكانته من عثمان- مالا وولدا، فلهم بالعراق عدد وشرف وأموال[2].

(١) أى مرض. (٢) تاريخ المدينة المنورة/ ١٠٢٩- ١٠٣٠.

فهذا مثل من التصرف الحكيم من عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، حيث لم يجامل حمران الذي أخبره بأمر كان يتوقع أنه يسرُّه، بل عزم على أن يخبر بذلك أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، ليكون على حذر من مولاه الذي أفشى سرَّه، لأن مصلحة الأمة الإسلامية وحماية دولتهم مما يجب تقديمه على المصالح الفردية، ومع عزمه ذلك فإنه سعى لحماية حمران الذي ما أراد بعمله ذلك إلا خيرًا، حيث طلب من عثمان أن لا يعاقب حمران على ما قام به.

ولكن مع تدخُّل عبد الرحمن بن عوف ووساطته لحمران فإن أمير المؤمنين عثمان لم يعْفُ عن مولاه الذي أفشى سره، بل عاقبه وإن كان قد خفف عنه العقوبة، وهذا مثل من حزم عثمان رضي الله عنه وحياطته الشديدة لأمور الأمة.

من مواقف المغيرة بن شعبة رضي الله عنه:

من ذلك ما روي عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر استعمل المغيرة بن شعبة على البحرين، فكرهوه، فعزله عمر، فخافوا أن يرده فقال دهقانهم[1]: إن فعلتم ما آمركم لم يردَّه علينا، قالوا: مُرْنا، قال: تَجمعون مائة ألف حتى أذهب بها إلى عمر، فأقول إن المغيرة اختان هذا فدفعه إليّ قال: فجمعوا له مائة ألف، وأتى عمر، فقال ذلك، فدعا المغيرة فسأله، قال: كذب أصلحك الله إنما كانت مئتي ألف، قال: فما حملك على هذا؟ قال: العيال والحاجة، فقال عمر للعلج: ما تقول؟ قال: لا والله لأصدقنَّك ما دفع إليّ قليلاً ولا كثيرًا، فقال عمر للمغيرة: ما أردت إلى هذا؟ قال: الخبيث كذب علي فأحببت أن أخزيه[2].

فهذا مثل على سرعة البديهة، وحسن التخلص من المآزق، فقد أراد أهل البحرين أن يوقعوا المغيرة في مشكلة مالية ليتخلصوا منه، وهم يعلمون صرامة عمر وشدته في هذا الجانب، ولكن المغيرة كان أدهى منهم، مع أنهم قد خططوا لهذا الأمر وكان هو على البديهة.

وقد صدق في وصفه قبيصة بن جابر حينما قال: صحبت المغيرة بن شعبة، فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب، لا يُخرَج من باب منها إلا بمكر لخرج من أبوابها كلِّها[3].

---

(١) يعني رئيسهم والمقدَّم فيهم.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٦.

(٣) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٠.

من مواقف معاوية رضي الله عنه في سرعة البديهة:

من أخبار معاوية رضي الله عنه في الدهاء وحسن البديهة، أنه لما قدم أمير المؤمنين عمر الشام تلقاه معاوية في موكب عظيم وهيئة، فلما دنا منه قال: أنت صاحب الموكب العظيم؟ قال: نعم، قال: مع ما بلغني عنك من طول وقوف ذوي الحاجات ببابك، قال: نعم، قال: ولِمَ تفعل ذلك؟ قال: نحن بأرضٍ جواسيسُ العدو بها كثير فيجب أن نُظهر لهم من عِزِّ السلطان ما يرهبهم، فإذا نهيتني انتهيت، قال: يا معاوية، ما أسألك عن شيء إلا تركتني في مثل رواجب الضَّرِس[1]، لئن كان ما قلت حقًا، إنه لرأي أريب، وإن كان باطلاً فإنه لخدعة أديب، قال: فمرني، قال: لا آمرك ولا أنهاك، فقيل: يا أمير المؤمنين ما أحسن ما صدر عما أوردته، قال: لِحُسنِ مصادره وموارده جشَّمناه ما جشمناه[2].

وهكذا كان معاوية بمجاورته لدولة عظمى آنذاك وهي دولة الروم ولكون جواسيسها قد خالطوا مجتمع المسلمين في الشام، فإنه رأى في مظاهر الأبهة والعظمة ما يخدم المسلمين في حربهم مع الأعداء حيث ينقل أولئك الجواسيس صورة عن المسلمين ترهب أعداءهم، ولذلك لم يُصِرَّ عمر على إنكاره عليه بل ترك الأمر لاختياره نظرًا لخبرته بأعدائه المجاورين له.

ويفهم من هذا الخبر وأخبار أخرى أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه كان معجبًا بمعاوية رضي الله عنه، وأهم شيء كان يقوم به معاوية ويرى عمر أن أحدًا لا يسدُّ فيه مَسدَّه أنه كان درعًا واقيًا للأمة الإسلامية من دولة الروم التي كانت ما تزال قوية، وكان حكامها ينتظرون أي فرصة ضعف في دولة الإسلام ليغيروا عليها، فكانوا بحاجة إلى أن يكون الوالي الذي يجاورهم داهية يقظًا ذا رأي سديد وسياسة دقيقة وطاعة في جنده، فكان عمر ينكر على معاوية بعض الأمور التي تخالف سياسته كالظهور بشيء من الأبهة والمظاهر السلطانية، ولكنه كان يغض الطرف عن ذلك لعظم غنائه في دولة الإسلام وعدم وجود من يجمع الصفات التي حازها مع الظهور بمظهر الزهد والتواضع.

---

(١) الرواجب هي مفاصل أصول الأصابع، والضَّرس الغضبان والصعب الخلق، ويفهم من السياق أن المقصود أنه يتركه في حال من الغضب المبني على الحيرة في أمره.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٣٣، وقوله «جشمناه» أي حملناه مسؤولية كبيرة.

ومما يدل على أنه كان يسد بابا يشكِّل خطرًا على دولة الإسلام ما كان من ملك الروم حينما أراد غزو بلاد المسلمين في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفي ذلك يقول الحافظ ابن كثير: وطمع في معاوية ملك الروم بعد أن كان قد أخشاه وأذله وقهر جنده ودحاهم[1]، فلما رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب علي تدانى إلى بعض البلاد في جنود عظيمة وطمع فيه، فكتب معاوية إليه: والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين لأصطلحنَّ أنا وابن عمي عليك، ولأخرجنك من جميع بلادك ولأضيقن عليك الأرض بما رحبت، فعند ذلك خاف ملك الروم وانكفَّ، وبعث يطلب الهدنة[2].

ومن أخبار معاوية رضي الله عنه في الحكمة وحسن التصرف ما أخرجه الخطيب البغدادي من خبر عبد الله بن عمارة بن القداح. قال: كان ثابت بن قيس بن الخطيم، شديد النفس، وكان له بلاء مع علي بن أبي طالب، واستعمله علي بن أبي طالب على المدائن، فلم يزل عليها حتى قدم المغيرة بن شعبة الكوفة، وكان معاوية يتقي مكانه. انصرف ثابت بن قيس إلى منزله فيجد الأنصار مجتمعة في مسجد بني ظفر يريدون أن يكتبوا إلى معاوية في حقوقهم أول ما استخلف، وذاك أنه حبسهم سنتين أو ثلاثًا لم يعطهم شيئًا. فقال: ما هذا؟ فقالوا: نريد أن نكتب إلى معاوية. فقال: ما تصنعون أن يكتب إليه جماعة؟! يكتب إليه رجل منا فإن كانت كائنة برجل منكم فهو خير من أن تقع بكم جميعًا وتقع أسماؤكم عنده.

فقالوا: فمن ذلك الذي يبذل نفسه لنا؟ قال: أنا. قالوا: فشأنك، فكتب إليه وبدأ بنفسه فذكر أشياء منها: نصرة النبي ﷺ وغير ذلك. وقال: حبست حقوقنا، واعتديت علينا وظلمتنا، وما لنا إليك ذنب إلا نصرتنا للنبي ﷺ، فلما قدم كتابه على معاوية دفعه إلى يزيد فقرأه ثم قال له: ما الرأي، فقال: تبعث فتصلبه على بابه، فدعا كبراء أهل الشام فاستشارهم، فقالوا: تبعث إليه حتى تقدم به ههنا وتقفه لشيعتك ولأشراف الناس حتى يروه، ثم تصلبه. فقال: هل عندكم غير هذا؟ قالوا: لا، فكتب إليه: قد فهمت كتابك، وما ذكرت النبي ﷺ، وقد علمت أنها كانت ضجرة لشغلي وما كنت فيه من الفتنة التي شهرت فيها نفسك،

(١) وقوله «دحاهم» يعني رمى بهم داخل بلادهم.
(٢) البداية والنهاية ٨/ ١١٩.

فأنظرني ثلاثًا، فقدم كتابه على ثابت فقـرأه على قومه، وصبَّحهم العطاء في اليوم الرابع[1].

وبعد، فـهذا الخبـر فيه مـوقف كبير لأمـير المؤمنين مـعاوية رضي الله عنه في الحكمة والسيـاسة، فهو بعد أن استـشار ابنه يزيد وبعض وجهاء الشام لم يعـجبه رأيهم ولم يوافـقهم على أخـذ الناس بالشدة والعنـف والجبروت، بل سـارع إلى إرسال عطاء الأنصـار رضي الله عنهم، ولم يؤاخذ ثابت بن قـيس رضي الله عنه على شدة اللهجة في كـتابه إليه، وهو بهذا التصرف الحكيم والسيـاسة الرشيدة لم يخسر شيـئًا بل كسب ولاء الأنصار له وولاء غيرهم ممن يطلع على خـبره معهم، ولو أنه أخذ بمـشورة السذج المتـجبـرين فبطش بصـاحب ذلك الكتاب لثـار عليه الأنصار، ولناصرهم طوائف من المسلمين لشهرتهم ومكانتهم في الإسلام.

وفي هذا الخبر موقف يذكـر لثابت بن قيس في الجرأة والتضحـية، حيث فدى قومـه بنفسه فـيما إذا كان هناك ضـرر عليهم، وهو وإن كان أمـرًا بعيدًا من أمـير المؤمنين معاوية رضي الله عنه فإنه أمر محتمل الوقوع، ومواقف الجرأة والفداء تدل على اتصاف صـاحبـها بالإيثار وتجـرده من الأنانية، وتلك من أخـلاق الكُمَّل من الرجال.

ومن أخـبار مـعاوية رضي الله عنه أيضًـا فى الحكمـة والمقدرة على الإقناع مـا أخرجه الخطيب البغدادي من خبر عروة بـن الزبير: أن المسور بن مخرمة أخبره أنه قدم وافدًا على مـعاوية بن أبي سفيـان فقضى حاجـته، ثم دعاه فأخـلاه فقال: يا مسور ما فـعل طعنك على الأئمة؟ فقال المسور: دعنا من هذا وأحسن فـيما قدمنا له. قال: معاوية لا والله لتكلمنّ بذات نفـسك، والذي تعيب عليّ. قال المسور: فلم أترك شيئًا أعيبه عليـه إلا بينته له. قال معاوية: لا بريء من الذنب، فهل تعدُّ يا مسـور مالي من الإصلاح في أمـر العامة، فـإن الحسنة بعشـر أمثالهـا؟ أم تعد الذنوب وتتـرك الحـسنات. قـال المسـور: لا والله مـا نذكـر إلا مـا ترى من هذه الذنوب. قال معاوية: فإنَّا نعترف لله بكل ذنب أذنبناه فهل لك يا مسور ذنوب في خاصتك تخشى أن تهلكك إن لم يغفرها الله؟ قال مـسور: نعم! قال معاوية: فما

(١) تاريخ بغداد ١/١٧٦، وثابت بن قيس بن الخطيم خزرجي أنصاري رضي الله عنه.

يجعلك أحق أن ترجو المغفرة منى؟ فـوالله لما ألي من الإصلاح أكثر مما تَلِي ولكن والله لا أخيَّر بين أمـرين، بين الله وبين غيره إلا اخترت الله تعـالى على ما سواه، وأنا على دين يقبل الله فيه العمل، ويجزي فـيه بالحسنات، ويجزي فيه بالذنوب، إلا أن يعفو عمن يشـاء، فأنا أحتسب كل حسنة عملتها بأضـعافها، وأوازي أمورًا عظامًا لا أحصيـها ولا تحصيها، مِنْ عملٍ لله في إقـامة صلوات المسلمين، والجهاد في سبيل الله عـز وجل، والحكم بما أنزل الله تعالى، والأمور التي لست تحصـيها وإن عددتها لك، فـتفكَّرْ في ذلك. قال المسور: فـعرفت أن معاوية قـد خصمني حين ذكر لي ما ذكر.

قال عروة: فلم يُسمع المسور بعد ذلك يذكر معاوية إلا استغفر له[1].

في هذا الخبـر مثل جيد في فن الإقناع، ومـحاولة امتصاص غـضب المخالفين وتحويل قناعاتهم، فـقد استطاع أمير المؤمنين مـعاوية رضي الله عنه أن يقنع المسور بن مخرمة رضي الله عنه بسياسته التي يسير عليها، وعاد مادحًا داعيًا له بعدما كان منتقدًا مهاجمًا له.

وفي هذا الخبر لفتة تربوية من مـعاوية حيث أبان بأن من العدل في الحكم على المسلم أن ينظر الحاكم عليـه إلى حسناته وصوابه قبل أن ينظر إلى سيـئاته وخطئه، ثم يوازن بين الجـانبين، فلعل هذا المسلم الذي برزت أخطاؤه في ذهن من تصـدى لنقده تكون له حسنات كثيرة جليلة قد لا تعد أخطاؤه إلى جانبها شيئًا مذكورًا.

موقف لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان رحمه الله:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: ومن أحسن الفراسة فراسة عبد الملك بن مروان لما بعث الشعبي إلى ملك الروم فحسد المسلمين عليـه، فبعث معه ورقة لطيفة إلى عبد الملك، فلما قرأها قال: تدري ما فيها؟ قال: لا، قال: حسدني بك فأراد أني أقتلك، فقال الشعبي: لو رآك يا أمير المؤمنين ما استكثرني، فبلغ ذلك ملك الروم فقال: والله ما أخطأ ما كان في نفسي[2].

---

(١) تاريخ بغداد ١/٢٠٨ - ٢٠٩.

(٢) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية/ ٥٤.

وبهـذا فوت أمـير المؤمـنين عبـد الملك على ملك الروم مـراده، وهكذا يكون الرجال العظماء الذين هم أهل لقيادة المسلمين وإدارة أمورهم.

من مواقف القاضي إياس رحمه الله:

ومن المشهـورين بالحكمة وسرعـة البديهة القـاضي إياس بن معاوية رحـمه الله تعالى قـال الحافظ ابن كثيـر في ترجمتـه: وقال: بعضهم: سـأل رجل إياسًا عن النبيـذ فقال: هو حرام، فـقال الرجل: فأخـبرني عن الماء، فقال: حـلال، قال: فالكسور[1]، قال: حلال، قال: فـالتمر، قال: حلال، قال: فـما باله إذا اجتمع حرم؟ فقـال إياس: أرأيت لو رميتك بهذه الحفنة من التـراب أتوجعك؟ قال: لا، قال: فهذه الحـفنة من التِّبْن؟ قال: لا توجعني، قال: فهـذه الغَرفة من الماء؟ قال: لا توجعني شيئًا، قال: أفـرأيت إن خلطت هذا بهذا وهذا بهذا حتى صار طينًا ثم تركته حتى اسـتحجر ثم رميتك أيوجعك؟ قـال: إي والله وتقتلني، قال: فكذلك تلك الأشياء إذا اجتمعت[2].

وهذا تشبـيه بليغ من القـاضي إياس أقنع به ذلك الرجل المعتـرض، وما له لا يقتنع وقـد مثل له بشيء يقـتنع به جميع العـقلاء وبهذا يكـون القاضي إياس من الدعاة الموفقين إلى هداية الناس والتأثير عليـهم بتوفيق الله تعالى ثم بذكائه الخارق وموهبته العالية وبلاغته الفائقة.

وذكر الحافظ ابن كثير أن رجلاً قـال للقاضي إياس بن معاوية: إن فيك خصالاً لا تعجـبني، فقال: مـا هي؟ فقال: تحكـم قبل أن تفهم، ولا تجـالس كل أحد، وتلبس الثياب الغليظة، فقال له: أيها أكثر الثلاثة أو الاثنان؟ قال: الثلاثة، فقال: ما أسرع ما فـهمت وأجبت، فقال: أوَ يجهل هذا أحد؟ فـقال: وكذلك ما أحكم أنا به، وأما عدم مـجالستي لكل أحد فلأن أجلـس مع من يعرف لي قدري أحب إليّ من أن أجلس مع من لا يعرف لي قدري، وأما الثـياب الغلاظ فأنا ألبس منها ما يقيني لا ما أقيه أنا[3].

فهذا الجواب من القاضي إياس يدل على عقل رصين ودين متين وسرعة بديهة.

---

(١) وقوله «فالكسور» يفهم من سياق الخبر أنها مواد صغيرة توضع مع النبيذ لتحسينه.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٣٥٠.

(٣) البداية والنهاية ٩/ ٣٥١.

قال الحافظ ابن كـثير: قالوا وتحـاكم إليه اثنان فادَّعى أحدهمـا عند الآخر مالا وجحده الآخـر، فقال إياس للمودِع: أين أودعـته؟ قال: عند شجـرة في بستان، فقال: انطلق إليـها فقف عندها لعلك تتذكر، وفي روايـة أنه قال له: هل تستطيع أن تذهب إليها فتأتي بورق منها؟ قـال: نعم، قال: فانطلق، وجلس الآخر فجعل إياس يحكم بين الناس ويلاحظه، ثم استـدعاه فقال له: أوَصَل صـاحبك بَعْدُ إلى المكان؟ قال: لا بَـعْدُ أصلحك الله، فقـال له: قم يا عدو الله فـأدِّ إليه حـقه وإلا جعلتك نكالاً، وجاء ذلك فقام معه فدفع إليه وديعته بكمالها[1].

وهكذا استخدم القـاضي إياس ذكاءه الحاد وفراسته الدقيقـة في كشف المعتدين الظالمين، والفراسة موهبة عالية يهبها الله تعالى لمن يشاء من عباده.

وقال الحافظ ابـن كثير أيضًا: وجـاء آخر فقال له: إني أودعت عـند فلان مالا وقد جحدني، فقـال له: اذهب الآن وائتني غدًا، وبعث من فوره إلى ذلك الرجل الجاحـد فقـال له: إنه قد اجتـمع عندنا ههنا مال فـلم نَرَ له أمينًا نضـعه عنده إلا أنت، فضعه عندك في مكان حريز، فقال له: سمعًا وطاعة، فقال له: اذهب الآن وائتني غدًا، وأصبح ذلك الرجل صاحب الحق فجاء فقال له: اذهب الآن إليه فقل له: أعطني حقي وإلا رفـعتك إلى القـاضي، فقال له ذلك فـخاف أن لا يودع إذا سمع الحاكم خبره، فدفع إليه مـاله بكماله، فجاء إلى إياس فأعلمه، ثم جاء ذلك الرجل من الغد رَجَاءَ أن يودع عنده فانتهره إياس وطرده وقال له: أنت خائن[2].

ففي هذا الخـبر مقـدرة فائقة مـن القاضي إياس على تخليص حـقوق المسلمين بعضهم من بعض، وهذا مثل على ذكائه الحاد وسرعة بديهته.

وللقاضي إياس أخبار أخرى في الذكاء وسرعـة البديهة وقد انتشرت هذه الأخبار حتى أصبح يضرب به المثل في الذكاء، كما قال أبو تمام يمدح أمير المؤمنين المعتصم:

إقـدام عمـرو في سمـاحة حـاتم في حلـم أحنف في ذكـاء إياس

يعني عمرو بن مـعد يكرب الزبيدي وحاتم الطائي والأحنف بن قيس التـميمي وإياس بن معاوية.

(١)، (٢) البداية والنهاية ٩/ ٣٥١.

من مواقف يحيى بن يحيى الليثي رحمه الله:

هو أبو محمد يحيى بن يحيى بن كثير الليثي المصمودي، أحد علماء الأندلس الكبار، من قبيلة مصمودة البربرية وينتسب إلى بني الليث بالولاء.

ذكره ابن خلكان وذكر أنه رحل إلى الإمام مالك بن أنس في المدينة النبوية وسمع منه الموطأ، وشك في سماعه لأبواب في كتاب الاعتكاف فكان يرويها عن زياد بن عبد الرحمن اللخمي وكان سمع منه الموطأ قبل رحيله من الأندلس، وهذا يُعدُّ من ورعه ودقة تحريه في نشر العلم.

وذكر أن الإمام مالكًا كان يسميه عاقل الأندلس، وسبب ذلك فيما روي أنه كان في مجلس مالك مع جماعة من أصحابه فقال قائل: قد حضر الفيل، فخرج أصحاب مالك كلهم لينظروا إليه ولم يخرج يحيى فقال له مالكُ: مالَكَ لا تخرج فتراه لأنه لا يكون بالأندلس؟ فقال: إنما جئت من بلدي لأنظر إليك وأتعلم من هديك وعلمك، ولم أجئ لأنظر إلى الفيل، فأعجب به مالك وسماه عاقل أهل الأندلس[1].

وهكذا حاز يحيى بن يحيى على هذا اللقب الكريم من كبير علماء الحجاز في عصره لإكباره للعلم والعلماء وعدم اشتغاله عن ذلك بشيء من أمور الدنيا.

ومن مواقفه العالية ما ذكره ابن خلكان من خبر أحمد بن أبي الفياض قال: كتب الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأموي المعروف بالربضي صاحب الأندلس إلى الفقهاء يستدعيهم إليه، فأتوا إلى القصر، وكان عبد الرحمن المذكور قد نظر في شهر رمضان إلى جارية له كان يحبها حبًا شديدًا فعبث بها، ولم يملك نفسه أن وقع عليها، ثم ندم ندمًا شديدًا، فسأل الفقهاء عن توبته من ذلك وكفارته، فقال يحيى بن يحيى: تكفر ذلك بصوم شهرين، فلما بدر يحيى بهذه الفتيا سكت بقية الفقهاء حتى خرجوا من عنده، فقال بعضهم لبعض وقالوا ليحيى: مالك لم تفته بمذهب مالك فعنده أنه مخير بين العتق والطعام والصيام؟ فقال: لو فتحت له هذا الباب سهل عليه أن يطأ كل يوم ويعتق رقبة، ولكن حملته على أصعب الأمور لئلا يعود[2].

---

(١) وفيات الأعيان ٦/ ١٤٤.

(٢) وفيات الأعيان ٦/ ١٤٥.

فهذه نباهة من هذا العالم الجليل، حيث تنبه لملاحظة مقاصد التشريع، فإن من مقاصد شرعيـة الكفارات أن تكون روادع تمنع من الوقوع في المعاصي، وحيث إن العتق والإطعام سـهلان ميسران للأغنيـاء فإن هذا العالم قد قصـر ذلك الأمير في فتواه على الصيام لمشقته عليه، فبه وحده - والحال هذه - تحصل مقاصد التشريع، وهذا يُعدُّ من الفقه في الدين، فإن الفقـيه لا ينبغي له أن يقتصر نظره على ظواهر النصوص، وإنما يقتضي منه الفقه أن ينظر إلى مقاصد التشريع.

وفي سكوت أولئك الفقهاء حينما تكلم يحيى بن يحيى مع إنكارهم فتواه حسن أدب منهم، وتقيـد بآداب العلم المرعية، من احـترام كبار أهل العلم وعـدم إظهار الاختلاف أمام غيرهم، لأن ذلك يوهن من أحكامهم وفتاويهم.

وكان رحمه الله مـتواضعًا في خدمة شيـوخه، قال ابن خلكان: وحكي عنه أنه قال: أخذت ركاب الليث بن سعد، فأراد غلامه أن يمنعني فقال: دعه، ثم قال لي الليث: خدمك أهل العلم، فلم تزل بي الأيام حتى رأيت ذلك[1].

من مواقف أمير المؤمنين المنصور رحمه الله:

قال ابن الـقيم رحمـه الله تعالى: ومـن دقيق الفـراسة أن المنصـور جاءه رجل فأخـبره أنه خرج من تجارة فـكسب مالاً فدفعـه إلى امرأته فذكـرت أنه سرق من البيت ولم ير نقبًا ولا أمارة، فقال المنصـور: منذ كم تزوجتها قال: منذ سنة قال: بكرًا أو ثيبًا قال: ثيـبًا قال: فلها ولد من غيرك قال: لا، فـدعا له المنصور بقارورة طيب يتخذه حـادَّ الرائحة غريب النوع فدفعهـا إليه وقال له تطيب من هذا الطيب فإنه يذهب غمك، فلما خرج الرجل من عنده قال المنصور لأربعة من ثقاته: ليقعد على كل باب من أبواب المدينة واحـد منكم فمن شم منكم رائحـة هذا الطيب من أحد فليأت به، وخرج الرجل بالطيب فدفعه إلـى امرأته فلما شمته بعثت منه إلى رجل كانت تحبه وقـد كانت دفعت إليه المال فتطيب منه ومر مـجتازًا ببعض أبواب المدينة فشـم الموكل بالباب رائحة طيـبة فـأتى به المنصور فسـأله: من أين لك هذا الطيب فلجلج في كلامه فبعث به إلى والي الشرطة فقال: إن أحضر لك كذا وكذا

(١) المصدر السابق، ٦/١٤٦.

من المال فخل عنه وإلا فاضـربه ألف سوط، فلما جرد للضـرب أحضر المال على هيئته، فدعا المنصـور صاحب المال فقال: إن رددت إليك المال تحكِّمني في امرأتك قال: نعم قال: هذا مالك وقد طلقت المرأة منك[1].

فهذا مثل للنبـاهة الدقيقة والتخطيط المحكم، وقد كان أميـر المؤمنين أبو جعفر المنصور مشهوراً بالذكاء الحاد والفطنة اللطيفة، ولقد قام في حل هذه القضية بدور القضاة مع شـغله الكبير بإدارة شئـون الدولة الإسلامية، مما يدل على تمتـعه بطاقة قوية ومقدرة فكرية عالية.

من مواقف الأمير أحمد بن طولون رحمه الله[2]:

قال ابن القـيم رحمه الله تعـالى: ومن عجيب الفـراسة ما ذكر عن أحـمد بن طولون أنه بينمـا هو في مجلس له يتنزه فـيه إذ رأى سائلاً في ثـوب خلق فوضع دجاجة على رغيف وحلوى وأمر بعض الغلمـان فدفعه إليه، فلما وقع في يده لم يهش له ولم يعبـأ به فقال للغلام: جئني به، فلمـا وقف قدامه استنطقـه فأحسن الجواب ولم يضـطرب من هيبتـه فقـال: هات الكتب التي معك واصـدقني، من بعثك؟ فقـد صح عندي أنك صاحب خبر، وأحضـر السياط فاعتـرف فقال بعض جلسائه: هذا والله السـحر قال: مـا هو بسحر ولكن فـراسة صادقـة، رأيت سوء حاله فوجهت بطعـام يسره بأكله الشبعان فما هش له ولا مد يده إليـه، فأحضرته فتلقاني بقـوة جأش، فلما رأيت وثاقة حـاله وقوة جأشه علمت أنه صـاحب خبر فكان كذلك.

قال: ورأى يومًا حـمالاً يحمل صنّا[3] وهو يضطرب تحته فـقال: لو كان هذا الاضطراب من ثقل المحمول لغاصت عنق الحمال وأنا أرى عنقه بارزة وما أرى هذا الأمر إلا من خوف، فـأمر بحط الصن فإذا فيه جـارية مقتولة وقـد قطعت فقال: اصـدقني عن حالهـا، فقـال: أربعة نفـر في الدار الفـلانية أعطوني هذه الدنانيـر وأمروني بحمل هذه المقتولة فضربه وقتل الأربعة.

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية/ ٥٤.

(٢) هو أبو العباس أحمد بن طولون أمير الشام ثم مصر في عهد العباسيين توفي في عام سبعين ومائتين.

(٣) الصن كما جاء في القاموس شبه السلة المطبقة يجعل فيها الخبز.

قال: وكان يتفكر ويطوف يسمع قراءة الأئمة فدعا ثقته وقال: خذ هذه الدنانير وأعطها إمام مسجد كذا فإنه فقير مشغول القلب، ففعل وجلس معه وباسطه فوجد زوجته قد ضربهـا الطلق وليس معه ما يحتاج إليه، فقـال: صدق عرف شغل قلبه في كثرة غلطه في القراءة[1].

فهذه ثلاثة مواقف في الفـراسة للأمير أبي العباس أحـمد بن طولون رحمه الله تعالى، وهي تدل على مهارة فائقة في إدارك حقائق الأمور من أماراتها وأطرافها.

والفراسة تجتمع في تكوينها أمور منها:

أولاً: توفـيق الله تعالى، وذلك مـبني على اسـتقـامـة الإنسان وحـبه للعـدل والإصلاح.

ثانيًا: موهبة ذاتية يهبها الله جل وعلا للإنسان كما يهبه الذكاء وقوة الحافظة.

ثالثًا: اهتمام دائب وتفكير متواصل بالقضايا التي يتوجه الإنسان إليها، ولا شك أن من أعمل فكره في أمر من الأمور طويلاً سيصل إلى نتائج لا يصل إليها خالي الذهن من ذلك الأمر.

من مواقف أمير المؤمنين المعتضد رحمه الله:

قال الحافظ الذهـبي: قال أبو علي المحسن التنوخي: بلغني عن المعـتضد[2] أنه كان جالسًا في بيت يبنى له، فرأى فيهم أسـود منكر الخلقة يصعد السلالم درجتين درجتين ويحمل ضِعفْ ما يحمله غيره، فأنكر ذلك وطلبه، وسأله عن سبب ذلك فتلجلج، فكلمه ابن حمدون فيه وقال: من هذا حتى صرفت فكرك إليه؟ قال: قد وقع في خَلَدي أمر ما أحسبه باطلاً، ثم أمر به فضُرب مئة، وتهدده بالقتل، ودعا بالنِطع والسيف، فـقال: الأمان أنا أعمل في أتون الآجُرّ، فـدخل من شهور رجل في وسطه همیان[3]، فأخرج دنانير، فـوثبت عليه وسددت فاه وكتفتـه وألقيته في الأتون، والذهب مـعي يقوى به قلبي، فـاستـحضـرها، فإذا على الهـميـان اسم

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية/ ٥٨ - ٥٩.

(٢) هو أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن محمد المعتضد بالله العباسي توفي عام تسعة وثمانين ومائتين.

(٣) الهميان حزام يشد في الوسط توضع به النقود.

صاحبه، فنودي في البلد، فجاءت امرأة فقالت: هو زوجي ولي منه طفل، فسلم الذهب إليها وقتله[1].

فهذا مثل عجيب في الفراسة، فقد قرأ المعتضد في وجه ذلك الرجل أن له شأنًا، وأنه قد ارتكب جريمة، فهو حينما رأى المعتضد أدركه الخوف لِمَا شاع من قوة المعتضد وبطشه بالمجرمين، فصار يسير بغير اتزان، ويعمل بسرعة غير معتادة، فلفت نظر المعتضد.

وهذه الفراسة التي تميز بها المعتضد عمن حوله قد وفقه الله تعالى إليها لما كان يتصف به من العدل والحرص الشديد على الأخذ على أيدي الظالمين، إلى جانب أن الإنسان إذا فكر في شيء تفكيرًا عميقًا فإنه يصل إلى اكتشاف متعلقات هذا الشيء إلى ما لا يصل إليه غيره، ولما كان المعتضد مستغرق الفكر في معرفة المجرمين وإقرار العدل فإنه يكون عنده من الفراسة في الرجال ما لا يكون عند خالي الذهن من هذا الأمر.

ومن ذلك ما ذكره ابن القيم رحمه الله تعالى أنه رُفع إليه أن صيادًا ألقى شبكته في دجلة فوقع فيها جراب فيه كف مخضوبة بحناء وأحضر بين يديه فهاله ذلك وأمر الصياد أن يعاود طرح الشبكة هنالك، ففعل فأخرج جرابًا آخر فيه رِجْل فاغتم المعتضد، وقال معي في البلد من يفعل هذا ولا أعرفه، ثم أحضر ثقة له وأعطاه الجراب وقال: طف به على كل من يعمل الجرب ببغداد فإن عرفه أحد منهم فاسأله عمن باعه منه فإذا دلك عليه فاسأل المشتري عن ذلك ونقِّر عن خبره، فغاب الرجل ثلاثة أيام ثم عاد فقال: لازلت أسأل عن خبره حتى انتهى إلى فلان الهاشمي اشتراه مع عشرة جرب وشكى البائع شره وفساده ومن جملة ما قال أنه كان يعشق فلانة المغنية، وأنه غيبها فلايُعرف لها خبر وادعى أنها هربت والجيران يقولون قتلها، فبعث المعتضد من كبس منزل الهاشمي وأحضره وأحضر اليد والرجل وأراه إياهما فلما رآهما انتقع لونه وأيقن الهلاك واعترف فأمر المعتضد بدفع ثمن الجارية إلى مولاها وحبس الهاشمي حتى مات في الحبس[2].

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٦٥ - ٤٦٦.

(٢) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية/ ٥٦.

في هذا الخبر بيان اهتمام أمير المؤمنين المعتضد بالله بأمور رعيته، حيث انزعج من تلك الجريمة التي اطلع عليها، وأبدى اهتمامه الشديد في الأمر وأعمل فكره من أجل الوصول إلى مصدر الجريمة، ولما وقع في يده خيط من خيوطها وهو الجراب بدأ بالبحث عن صاحب الجريمة، ومن طريق صانعي الجرب توصل إلى الرجل المتهم، فأجرى حكم العدالة عليه.

وهذه نباهة قوية وفراسة جيدة حيث توصل بمعرفة طرف من القضية إلى إدراك حقيقتها.

موقف للقاضي أبي حازم رحمه الله[1]:

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: قال مكرم بن أحمد كنت في مجلس القاضي أبى حازم فتقدم رجل شيخ ومعه غلام حدث فادعى الشيخ عليه ألف دينار دينا فقال: ما تقول؟ قال: نعم، فقال القاضي للشيخ: ما تشاء؟ قال: حبسه قال: لا فقال الشيخ: إن رأى القاضي أن يحبسه فهو أرجى لحصول مالي، فتفرس أبو حازم فيهما ساعة ثم قال: تلازما حتى أنظر في أمركما في مجلس آخر فقلت له: لِمَ أخَّرت حبسه؟ فقال: ويحك إني أعرف في أكثر الأحوال في وجوه الخصوم وجه المحق من المبطل وقد صارت لي بذلك دراية لا تكاد تخطئ وقد وقع لي أن سماحة هذا بالإقرار عين كذبه ولعله ينكشف لي من أمرهما ما أكون معه على بصيرة، أما رأيت قلة تعاصيهما في المناكرة وقلة اختلافهما وسكون طباعهما مع عظم المال، وما جرت عادة الأحداث بفرط التورع. حتى يقر مثل هذا طوعًا عجلاً منشرح الصدر على هذا المال، قال: فنحن كذلك نتحدث إذ أتى الآذن يستأذن على القاضي لبعض التجار فأذن له فلما دخل قال: أصلح الله القاضي إني بليت بولد لي حدث يتلف كل مال يظفر به من مالي في القيان عند فلان فإذا منعته احتال بحيل تضطرني إلى التزام الغرم عنه وقد نصب اليوم صاحب القيان يطالب بألف دينار حالاً وبلغني أنه تقدم إلى القاضي ليقر له فيسجنه وأقع مع أمه فيما ينكد عيشنا إلى أن أقضي عنه، فلما سمعت بذلك بادرت إلى القاضي لأشرح له

(١) هو أبو حازم عبد الحميد بن عبد العزيز تولى القضاء في عهد المعتضد بالله العباسي وابنه المكتفي.

أمره، فتبسم القاضي وقال له: كيف رأيت؟ فقلت: هذا من فضل الله على القاضي فقال عليَّ بالغلام والشيخ فأرهب أبو حازم الشيخ ووعظ الغلام فأقر فأخذ الرجل ابنه وانصرفا[1].

فهذه فراسة جيدة من القاضي أبي حازم من ناحية قراءة ما في الوجوه من تأثرات وانفعالات، فلم يتسرع في الحكم بالظاهر المبني على إقرار المدعى عليه لينكشف له من أمور الباطن ما يهديه إلى الوصول إلى الحق، وليس القاضي ملزمًا بالحكم الفوري، فإذا كان في شك من القضية فإن في تأجيلها فسحة للتأمل والمقارنة، أو حصول أمر خارجي يكشف الوضع الحقيقي كما هو الحال في هذه القضية.

موقف لصاحب شرطة أمير المؤمنين المكتفي بالله رحمهما الله[2]:

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن اللصوص أخذوا في زمن المكتفي بالله مالا عظيمًا فألزم المكتفي صاحب الشرطة بإخراج اللصوص أو غرامة المال، فكان يركب وحده ويطوف ليلاً ونهارًا إلى أن اجتاز يومًا في زقاق خال في بعض أطراف البلد فدخله مُنكَّرًا ووجده لا ينفذ، فرأى على بعض أبوابه شوك سمك كثير وعظام الصلب، فقال لشخص: كم يقوم التقدير ثمن هذا السمك الذي هذا عظامه؟ قال: دينار، قال: أهل الزقاق لا تحتمل أحوالهم مشترى مثل هذا لأنه زقاق بيِّن الاختلال إلى جانب الصحراء لا ينزله من معه شيء يخاف عليه أو له مال ينفق منه هذه النفقة، وما هي إلا بلية ينبغي أن يكشف عنها فاستبعد الرجل هذا وقال: هذا فكر بعيد فقال: اطلبوا لي امرأة من الدرب أكلمها فدق بابا غير الذي عليه الشوك واستسقى ماءً فخرجت عجوز ضعيفة فما زال يطلب شربة بعد شربة وهي تسقيه وهو في خلال ذلك يسأل عن الدرب وأهله وهي تخبره غير عارفة بعواقب ذلك، إلى أن قال لها: وهذه الدار من يسكنها وأومأ إلى التي عليها عظام السمك؟ فقالت: فيها خمسة شبان أعفار[3] كأنهم تجار وقد نزلوا منذ شهر

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية/ ٤٠.

(٢) هو أمير المؤمنين علي بن أحمد العباسي وأبوه المعتضد بالله ولقبه المكتفي بالله توفي في عام خمسة وتسعين ومائتين.

(٣) أي بيض الوجوه.

لا نراهم نهارًا إلا في كل مدة طويلة، ونرى الواحد منهم يخرج في الحاجة ويعود سريعًا وهم في طول النهـار يجتمعون فيأكلون ويشـربون ويلعبون بالشطرنج والنرد ولهم صبي يخدمهم، فإذا كـان الليل صدروا إلى دار لهم بالكرخ ويدَعون الصبي في الدار يحفظها، فـإذا كان سحرًا جاؤوا ونحن نيام لا نشعـر بهم فقال للرجل: هذه صفة لصوص أم لا؟ قـال: بلى، فأنفذ في الحال فاستـدعى عشرة من الشرط وأدخلهم إلى أسطحة الجيران ودق هو الباب فجاء الصـبي ففتح فدخل الشرط معه فما فاته من القوم أحد فكانوا هم أصحاب الجناية بعينهم[1].

فهذا الخبر فيه موقفان: الأول موقف حزم وقوة وعدالة من أمير المؤمنين المكتفي بالله، حيث استعظم تلك السرقة الكبيرة فجعل رئيس الشرطة بين خيارين: العثور على اللصوص، أو غرامة ذلك المال المسروق، فكان هذا الحزم الشديد دافعًا لرئيس الشرطة كي يبذل قصارى جهده في العثور على اللصوص.

والثاني: موقف لرئـيس الشرطة حيث بذل جهده وأعـمل فكره في البحث عن اللصوص إلى أن اهتدى إليهم بتوفيق الله تعالى ثم بدهائه ونباهته وحسن فراسته.

من مواقف الشيخ العز بن عبد السلام رحمه الله:

ذكـر الحافظ عـبد الوهـاب السبكي: أن رجـلاً جاء إلـى الشيخ عـز الدين بن عبدالسلام فقال: رأيتك في النوم تنشد:

وكنت كذي رجلين رجلٍ صحيحة ورجل رمى فـيهـا الزمان فَـشُلَّتِ

فسكت ساعة ثم قال: أعيش من العمر ثلاثًا وثمانين سنة فإن هذا الشعر لكُثَيِّر عزة، ولا نسبة بيني وبينه غير السن، أنـا سُنِّي وهو شيعي، وأنا لست بقصير وهو قصير، ولست بشاعر وهو شاعر، وأنا سُلَمي وليس هو بسلمي، ولكنه عاش هذا القدر.

قال: قلت: فكان الأمر كما قال رحمه الله[2].

---

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية/ ٥٩ - ٦٠.

(٢) هو أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي، ولد عام ٥٧٧ هـ وتوفي عام ٦٦٠ هـ.

فهذه فـراسة دقيقة من هذا العـالم الرباني جاءت على طريقة السبر والتـقسيم، حيث استعرض الصفات التي يتفق فيـها الناس فرأى أن بينه وبين الشاعر كُثيِّر عزة اختلافًا في عدة أمور، ولم يبق ما يمكن أن يتفق مـعه فيه إلا السن، ولما كان كثير عزة قد عاش ثلاثًا وثمانين سنة فإن العز بن عـبد السلام قد فسر الرؤيا بأنه يعيش ثلاثًا وثمانين سنة كمـا عاش كثير عـزة، وقد وقع ذلك كما فسـر به الرؤيا رحمه الله[1].

وهذا الخبر يدل علـى سعة اطلاع العز بن عبـد السلام حيث كان يعـرف سيرة كُثيِّر عزة الشاعر مع أن الأدب ليس من اختصاص العز بن عبد السلام.

موقف للوزير محمد بن السَّلم رحمه الله:

من أخـبار عـبد الرحـمن بن الحكم[2] أنه تكررت الشكوى عليـه بولاة المدينة واحد بعـد واحد، فـأقسم ألاَّ يُوَلي المدينة رجـلاً من أهل قرطبـة فكشف عن من يستحق هذا من سُكَّان الكُوَر من مـواليه فأُشير له إلى مـحمد بن السلم، ووُصفَ عنده بالحجج وحُسن العقل والتواضُع فبعث فيه وولاه المدينة، فلما ركب أوَّل يوم وُلّي فيه المدينة إلى القصر، قيل له قتيل بالقصَّابين في شيرة[3] فقال نُؤتى به، فلما صار بين يديه أمـر بإنزال القتـيل في الرصيف لعله يمرُّ به أحـدٌ ممن يعرفـه، وأمر بتقـديم الشيرة إليه فنـظر إلى شيرة جديدة فـقال عليَّ بالحصَّـارين كلهم، تجارهم وعمَّال الأيدي. فلما أُتي بهم، قدَّم نفسه إلى وجوههم فقال لهم: «عمل الشيرات والقفاف مشتبه أو يعرف بعضهم عمل بعض». فقالوا له: «بل يعرف بعضنا أعمال بعض، ونعرف أعـمال أهل الكور من أعمـالنا بقرطبة» فـأمر بإبراز الشيـرة إليهم فقـالوا: «هذه من عمل فلان وهو فـي الجماعـة واقف». فأمر بتـقديمه فقـدم إليه فقال: نعم هذه الشيرة اشتراها مني بالأمس فـتى عليه هيئة خدمة السلطان ووصفه كذا، فقال الشـرطُ والمشترون: هذه صفة فلان الأخْرَس السـاكن برُصافة، فنهض إليه وفُش عليه فوُجدت ثيـابُ القتيل عنده فلما بلغ الخبر عبد الرحـمن أمر بتوليته الوزارة مع المدينة، فلما دخل البيت صاروا له كلهم تبعًا في الرأي[4].

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٥/ ١٠٢.
(٣) الشيرة كالقفة وعاء توضع به الأشياء.
(٣) هو أحد أمراء الأندلس.
(٤) تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية/ ١١٤.

فهذا الأمير كان حاذقًا في معرفة صاحب الجريمة من متعلقاتها، فكان الخيط الذي عرف به القاتل ذلك الوعاء الذي وُضع فيه القتيل، فقاده ذلك إلى معرفة صانع الوعاء، ثم إلى معرفة من اشتراه حتى انكشفت الجريمة.

وفي الخبر موقف يذكر للأمير عبد الرحمن بن الحكم في حسن اختيار الولاة، وتقدير أهل النبوغ والتفوق، فحينما نجح هذا الوالي في كشف تلك الجريمة الخفية كافأه الأمير عبد الرحمن بإسناد الوزارة إليه مع إمارة قرطبة.

موقف للقاضي ابن العديم رحمه الله تعالى:

ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمة القاضي إبراهيم بن محمد بن عمر العقيلى بن العديم: أن ابن العديم ادعى عنده مُدَّعٍ على آخر بمبلغ فأنكر، فأخرج المدعي وثيقة فيها «أقر فلان بن فلان» فأنكر المدعى عليه أن الاسم المذكور قي الوثيقة اسم ابيه، قال له: فما اسمك أنت؟ قال: فلان، قال: واسم أبيك، قال: فلان، فسكت عنه القاضي وتشاغل بالحديث مع من كان عنده حتى طال ذلك، وكان القارئ يقرأ عليه في صحيح البخاري، فلما فرغ المجلس صاح القاضي: يا ابن فلان، فأجابه المدعى عليه مبادرًا، فقال له: ادفع لغريمك حقه، فاستحسن من حضر هذه الحيلة التي استغفل بها المدعى عليه حتى التجأ إلى الاعتراف.. فهذا من فراسة القاضي ابن العديم ونباهته فقد اضطر المدعى عليه إلى الاعتراف بالاسم الذي ذكره المدعي بالحيلة ثم حكم عليه باقراره واختصر القضية التي قد تطول بسبب انكار المدعى عليه[1].

موقف للقاضي مصطفى التركي رحمه الله:

هو أحد القضاة في عهد الدولة العثمانية ويعرف «كوجك مصطفى» وقد تولى قضاء الشام سنة إحدى بعد الألف، وقد سلك في قضائه مسلكًا حسنًا، وكان يتحرى في أحكامه ويحررها خصوصًا فيما يتعلق بالجند ومداينتهم.

وكان يحط على المرابين، وقد دخل عليه خصمان أحدهما جندى، فحرر عليه ولم يسع الجندي إلا الترك لرباه، ولما فاته ما يحصل له من الربا أنكر رهنًا كان

(١) الدرر الكامنة ١/ ٦٤ - ٦٥.

عنده للمدين، فقال للراهن: أقم عليه البينة، فقال: إنه لا يتجرأ أحد على الشهادة عليه، فقال للجندي: ادن مني، فدنا منه، فأخذ خاتمه منه وأعطاه للمدعي عليه وقال له: خذ هذا الخاتم واذهب إلى بيت هذا الرجل وقل لهم: أعطوني الرهن الذي صفته كذا وكذا وخذوا هذا الخاتم أمارة، فذهب وجاء بالرهن كما وصفه الراهن فاعترف به.

وكان له من قبيل هذه الفراسة أشياء كثيرة فتهارع الناس إليه في طلب الحقوق، وكان إذا مر في أسواق دمشق دعا له أهلها[1].

وهكذا استخرج هذا القاضي القوي الفطن الرهن من ذلك الجندي الجاحد بهذه الحيلة الناجحة، وبغير هذا التصرف فقد كان من الصعب استخراج الحق منه لعدم جرأة الناس على الشهادة عليه.

وكذلك يكون القضاة الذين نور الله تعالى بصائرهم ووفقهم لحل قضايا المسلمين، والفراسة نور يلقيه الله تعالى في قلب المؤمن فيكون عونًا له على حل المشكلات وتجلية الأمور الخفية، ويساعد على ذلك اهتمام الإنسان بهذا الأمر واستدامة التفكير فيه، فإن من وجه تفكيره لشيء برع فيه.

***

(١) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن موسى/ ١١٦٢ عن خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للشيخ فضل الله المحبي.

فهرس المصادر والمراجع

- الأحكام السلطانية لأبى الحسن الماوردي/ الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.
- أسد الغابة فى معرفة الصحابة/ لعز الدين علي الشيباني «ابن الأثير»/ الناشر: انتشارات إسماعيليات - طهران.
- الاستيعاب فى أسماء الأصحاب/ لأبى عمر يوسف ابن عبدالبر النمري/ الناشر/ مصطفى محمد بمصر.
- الإصابة فى تمييز الصحابة/ للحافظ أحمد بن على الكناني «ابن حجر»/ الناشر: مصطفى محمد بمصر.
- البداية والنهاية/ للحافظ أبى الفداء ابن كثير/ الناشر: دار الكتب العلمية.
- تاريخ بغداد/ للحافظ أحمد الخطيب البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي- بيروت.
- تاريخ دمشق/ للحافظ على بن الحسن «ابن عساكر»/ الناشر دار الفكر للطباعة والنشر.
- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) للمؤرخ محمد بن جرير الطبري/ الناشر: دار المعارف بالقاهرة.
- تاريخ المدينة المنورة/ لأبى زيد عمر بن شبة النميري/ تحقيق فهيم محمد شلتوت.
- تذكرة الحفاظ/ للحافظ محمد بن أحمد الذهبي/ الناشر: دار إحياء التراث العربي.
- ترتيب المدارك/ للقاضي عياض بن موسى اليحصبي/ الناشر/ دار مكتبة الحياة - بيروت.
- جامع العلوم والحكم/ للحافظ عبدالرحمن «ابن رجب» الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.
- الجرح والتعديل/ للحافظ عبدالرحمن بن أبى حاتم/ الناشر: دار الأمم للطباعة والنشر - بيروت.
- جمع الفوائد/ لمحمد بن محمد بن سليمان/ الناشر: عبدالله بن هاشم اليماني - المدينة المنورة.

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/ للحافظ أبى نعيم الأصفهانى/ الناشر: مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة فى مصر.
- الدرر الكامنة/ للحافظ أحمد بن على الكناني «ابن حجر ١١/ الناشر: دار الجيل فى بيروت.
- الذيل على طبقات الحنابلة/ للحافظ عبدالرحمن بن أحمد «ابن رجب»/ الناشر: دار المعرفة - بيروت.
- الزهد/ للإمام أحمد بن حنبل الشيباني/ الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.
- سنن الترمذي/ للحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي/ الناشر: المكتبة الإسلامية.
- سنن أبي داود/ للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي/ الناشر: محمد على السيد - حمص.
- سنن الدارمي/ للحافظ عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي/ الناشر: دار الريان - القاهرة، ودار الكتاب العربي - بيروت.
- سنن ابن ماجه/ للحافظ محمد بن يزيد القزويني «ابن ماجة»/ الناشر: دار إحياء الكتب العربية.
- سنن النسائى/ للحافظ أبى عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي/ الناشر: المكتبة التجارية الكبرى فى مصر.
- سير أعلام النبلاء/ للحافظ محمد بن أحمد الذهبي/ الناشر: مؤسسة الرسالة فى بيروت.
- صحيح البخاري/ للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري/ الناشر: المطبعة السلفية ومكتبتها فى القاهرة.
- صحيح الجامع الصغير/ للشيخ محمد ناصر الدين الألبانى/ الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت.
- صحيح مسلم/ للإمام مسلم بن الحجاج القشيري/ الناشر: دار إحياء التراث العربي.
- صفة الصفوة/ للحافظ أبى الفرج ابن الجوزي/ الناشر: دار المعرفة - بيروت.

- طبقات الحنابلة/ للقاضي محمد بن أبي يعلى/ الناشر: دار المعرفة فى بيروت.
- طبقات الشافعية الكبري/ للحافظ أبى نصر عبدالوهاب السبكى/ الناشر: دار المعرفة فى بيروت.
- الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية/ للعلامة شمس الدين محمد بن أبى بكر الزرعي «ابن القيم»/ الناشر: مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة.
- عمدة القاري/ للحافظ بدر الدين محمود بن أحمد العينى/ الناشر: دار الفكر.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري/ للحافظ أحمد بن على الكناني «ابن حجر العسقلانى»/ الناشر: المطبعة السلفية ومكتبتها فى مصر.
- الفتح الرباني/ لأحمد بن عبدالرحمن البنا/ الناشر: دار الحديث فى القاهرة.
- فتح المجيد/ للشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ/ الناشر: مطبعة الحكومة - مكة المكرمة.
- القاموس المحيط/ لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي/ الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.
- كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال/ لعلاء الدين على المتقي البرهان فوري/ الناشر: دائرة المعارف العتمانية فى حيدر آباد.
- لسان العرب/ لأبى الفضل محمد بن مكرم بن منظور/ الناشر: دار صادر- بيروت.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد/ للحافظ على بن أبى بكر الهيثمي/ الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت.
- مجموع فتاوى ابن تيمية/ جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم/ مطابع الرياض.
- المختار المصون من أعلام القرون/ للدكتور محمد بن حسن بن عقيل موسى/ الناشر: دار الأندلس الخضراء - جدة.
- مدارج السالكين/ للإمام محمد بن أبى بكر ابن قيم الجوزية/ الناشر: مطبعة السنة المحمدية - القاهرة.

- المستدرك على الصحيحين/ للحافظ أبى عبدالله الحاكم النيسابوري/ الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب.
- مسند أحمد للإمام أحمد بن حنبل الشيبانى/ الناشر: المكتب الإسلامي ودار صادر - بيروت.
- مسند الطيالسي/ للحافظ سليمان بن داود بن الجارود/ الناشر: المطبعة المنيرية بالأزهر.
- المسند/ للحافظ أبى بكر عبدالله بن الزبير الحميدي/ الناشر: عالم الكتب - بيروت، مكتبة المثنى - القاهرة.
- المصنف/ للحافظ عبدالرزاق بن همام الصنعاني/ الناشر: المجلس العلمي في الهند.
- المعجم الأوسط/ للحافظ سليمان بن أحمد اللخمي الطبراني/ الناشر: مكتبة المعارف - الرياض.
- معجم البلدان/ لشهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي/ الناشر: دار صادر ودار بيروت - بيروت.
- المعجم الكبير/ للحافظ سليمان بن أحمد اللخمي الطبراني/ الناشر: وزارة الأوقاف - العراق.
- منتخب كنز العمال/ للعلامة على المتقى الهندي/ الناشر: المكتب الإسلامي، دار صادر - بيروت.
- موارد الظمآن/ للحافظ نور الدين على بن أبي بكر الهيثمي/ الناشر: المطبعة السلفية ومكتبتها - القاهرة.
- الموطأ للإمام مالك بن أنس/ الناشر: دار إحياء التراث العربي.
- النهاية فى غريب الحديث والأثر/ للحافظ أبي السعادات «ابن الأثير»/ الناشر: دار إحياء الكتب العربية.
- الوافي بالوفيات/ لصلاح الدين خليل الصفدي/ الناشر: فرانز شتايز بفيسادن.
- وفيات الأعيان/ لأبي العباس أحمد بن محمد بن خلكان/ الناشر: دار صادر - بيروت.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
مواقف وعبـر في إخلاص النية	١١
- من مواقف أبي الدرداء رضي الله عنه	١٧
- من مواقف أبي جعفر القارئ	١٨
- من مواقف سفيان الثوري وفضيل بن عياض	١٨
- من مواقف سفيان بن عيينة	٢١
- من مواقف هشام الدستوائي	٢١
- من مواقف الشافعي	٢١
مواقف وعبر في الاهتمام بالعلم	٢٣
- من مواقف أبي هريرة رضي الله عنه	٢٥
- من مواقف تميم الداري رضي الله عنه	٢٥
- من مواقف أبي الدرداء رضي الله عنه	٢٦
- من مواقف عبدالله بن عباس رضي الله عنهما	٢٦
- من مواقف مكحول الدمشقي	٢٧
- من مواقف عكرمة مولي ابن عباس	٢٨
- من مواقف أبي الزناد	٢٨
- من مواقف ابن شهاب الزهري	٢٩
- من مواقف أبي بكر الباغندي	٢٩
- من مواقف ابن المسيب وقتادة	٣٠
- من مواقف أبي حنيفة النعمان	٣٠
- من مواقف عبدالملك بن جريج	٣٢
- من مواقف مالك بن أنس	٣٢

- موقف لعبدالله القعنبي ٣٥
- من مواقف أبي حنيفة وأبي يوسف ٣٦
- من مواقف هاشم السلمي وأبي شيبة ٣٦
- موقف لهشـام بن عمار ٣٦
- من مواقف أبي يوسف الفسوي ٣٧
- من مواقف ابن المبارك وعلي بن الحسن بن شقيق ٣٧
- من مواقف إسماعيل بن عياش ٣٨
- من مواقف أبي جعفر المنصور مع أحد العلماء ٣٨
- من مواقف عاصم بن علي ٣٩
- من مواقف علي بن عاصم ٤٠
- موقف لعبدالله الخريبي ٤١
- موقف لابن المديني ٤١
- من مواقف أبي حاتم التميمي وزملائه ٤٢
- من مواقف سليمان بن حرب ٤٣
- من مواقف يحيى بن معين ٤٤
- من مواقف علي الشقيقي ٤٦
- من مواقف أبي رجاء قتيبة ٤٧
- من مواقف ابن حنبل وأبي زرعة وابن راهويه ٤٧
- موقف لعبدالملك الأصمعي ٥١
- موقف لأحمد الرمادي ٥١
- من مواقف أبي عبدالله البخاري ٥٢
- من مواقف ابن أبي حاتم وزملائه ٥٤
- من مواقف مسلم بن الحجاج ٥٤
- من مواقف أبي مسلم الكجي ٥٥
- موقف لأبي حاتم الرازي ٥٥

- من مواقف علي بن أبي طاهر ٥٦
- من مواقف أبي بكر الإسماعيلي ٥٧
- من مواقف محمد السناني ٥٨
- من مواقف أبي علي النيسابوري ٥٩
- من مواقف أبي نعيم الأصبهاني ٥٩
- من مواقف محمد بن طاهر ٦٠
- من مواقف محمد الحميدي ٦١
- موقف لمحمد المازري ٦١
- من مواقف محمد الحازمي ٦٢
- من مواقف أبي الوفاء ابن عقيل ٦٣
- من مواقف ابن تيمية ٦٣
مواقف وعبر في بذل الجهد في حفظ السنة ٦٥
- المقصود من عرض أخبار الحفاظ ٦٧
- من أخبار عائشة رضي الله عنها ٦٧
- من أخبار زيد بن ثابت رضي الله عنه ٦٨
- من أخبار أبي هريرة رضي الله عنه ٧٠
- من أخبار عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ٧٢
- من أخبار ابن شهاب الزهري ٧٤
- من أخبار قتادة السدوسي ٧٧
- من أخبار وكيع بن الجراح ٧٧
- من أخبار أحـمد بن حنبل ٧٨
- من أخبار شعبة بن الحجاج ٧٩
- من أخبار علي بن المديني ٧٩
- من أخبار إسحاق بن راهويه ٨١
- من أخبار أبي عبدالله البخاري ٨١

- من أخبار أبي بكر الأثرم ٨٥
- من أخبار إسحاق بن بهلول ٨٦
- من أخبار أبي عيسى الترمذي ٨٦
- من أخبار الحسن بن سفيان ٨٧
- من أخبار الحسين النيسابوري وأحمد بن جوصا ٨٧
- من أخبار عبدالرحمن بن الخُتَّلي ٨٨
- من أخبار محمد العقيلي ٨٩
- من أخبار محمد بن المظفر ٨٩
- من أخبار ابن جوصا ٩٠
- من أخبار أبي الحسن الدارقطني ٩٠
- خبر الحاكم مع بديع الزمان الهمذاني ٩١
- من أخبار أبي نصر ابن ماكولا ٩٢
- من أخبار القاسم الشاطبي ٩٢
- من أخبار أبي زرعة والشاذكوني ٩٢
- من أخبار محمد بن يحيى الذهلي ٩٤
- من أخبار عبدالله بن بكير ٩٥
- خبر في بيان أهمية الذاكرة ٩٥
- من أخبار أبي بكر الأنباري ٩٦
- من أخبار أبي بكر بن أبي داود ٩٦
- من أخبار أحمد بن عقدة ٩٧
- من أخبار محمـد بن عبدالواحد ٩٩
- من أخبار أبي عبدالله الحاكم والخليل بن عبدالله ١٠٠
- من أخبار عبدالغني المقدسي ١٠١
- من أخبار محمد اليونيني ١٠٢
معاناة العلماء وتعرضهم للمشقة ١٠٥

- موقف لأبي حاتم الرازي ١٠٧
- موقف آخر لأبي حاتم وصاحبيه ١٠٧
- موقف لمحمد بن طاهر ١٠٩
- موقف لأبي القاسم الطبراني ١١٠
- موقف لمحمد بن إسحاق ابن منده ١١٠
- موقف لأبي المظفر السمعاني ١١١
- موقف لأبي عبدالله البخاري ١١١
- موقف لمحمد بن يحيى الذهلي ١١٢
- من مواقف حجاج بن يوسف ١١٢
- خبر المحمدين الأربعة فى مصر ١١٣
- موقف لأبي الفضل العجلي ١١٤
- من مواقف أبي القاسم ابن عساكر ١١٥
- موقف لحنبل بن عبدالله ١١٦
- من مواقف أبي الوقت السجزي ١١٧
- من مواقف ابن طاهر القيسراني ١١٩
- من مواقف عبدالقادر الجيلاني ١١٩
مواقف وعبر في الأدب العلمي ١٢١
- من مواقف عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ١٢٣
- من أخبار طلاب العلم من التابعين ١٢٣
- من مواقف القاسم بن محمد ١٢٤
- من مواقف مالك بن أنس ١٢٤
- موقف لسفيان بن عيينة ١٢٦
- موقف ليحيى بن معين ١٢٦
- موقف للقاسم بن سلام ١٢٧
- من مواقف عبدالله الأنصاري وناصر المروزي ١٢٧

- من مواقف ابن المبارك وحماد بن زيد ١٢٨
- موقف لعطاء بن رباح ١٢٨
توجيهات ومواقف في النقد العلمي ١٢٩
- من مواقف عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ١٣١
- من مواقف محمد بن إدريس الشافعي ١٣٥
- موقف ليحيى القطان ١٣٧
- من مواقف يحيى بن معين ونعيم بن حماد ١٣٧
- من مواقف أبي حاتم وأبي زرعة ١٣٩
- من مواقف ابن حنبل وأحمد بن صالح ١٤١
- من مواقف ابن المنادي ١٤٣
- موقف للخطيب البغدادي ١٤٤
- موقف لموفق الدين ابن قدامة ١٤٤
- من مواقف محمد بن الطيب المالكي ١٤٥
توجيهات ومواقف في إعزاز العلم وتكريم أهله ١٤٩
- من مواقف عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ١٥١
- موقف لأبي عبدالله مكحول الشامي ١٥١
- من مواقف مالك بن أنس ١٥٢
- من مواقف أبي جعفر المنصور ١٥٤
- موقف للقاضي شريك النخعي ١٥٥
- موقف لعبدالله بن المبارك ١٥٦
- من مواقف الإمام أبي عبدالله إسماعيل البخاري ١٥٦
- من مواقف المأمون ١٥٧
- موقف لطاهر بن الحسين وابنه عبدالله ١٥٨
- من مواقف يحيى بن هبيرة ١٥٩
- من مواقف القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني ١٦٠

توجيهات ومواقف في الحكمة والفراسة وسرعة البديهة ١٦٣
- من مواقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه ١٦٥
- مثل من حكمته فى علاج المشكلات ١٦٦
- عام الرمادة ومواقف لعمر رضي الله عنه ١٧٠
- موقف لكعب بن سور رضي الله عنه ١٧٧
- من مواقف عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه ١٧٨
- من مواقف معاوية رضي الله عنه ١٨٠
- موقف لعبد الملك بن مروان ١٨٣
- من مواقف القاضي إياس ١٨٤
- من مواقف يحيى الليثي ١٨٦
- من مواقف المنصور العباسي ١٨٧
- من مواقف أحمد بن طولون ١٨٨
- من مواقف المعتضد العباسي ١٨٩
- موقف للقاضي أبي حازم ١٩١
- موقف لصاحب شرطة المكتفي بالله ١٩٢
- من مواقف العز بن عبدالسلام ١٩٣
- موقف لمحمد بن السَّلم ١٩٤
- موقف للقاضي ابن العديم ١٩٥
- موقف للقاضي مصطفى التركي ١٩٥
فهرس المصادر والمراجع ١٩٧
فهرس الموضوعات ٢٠١